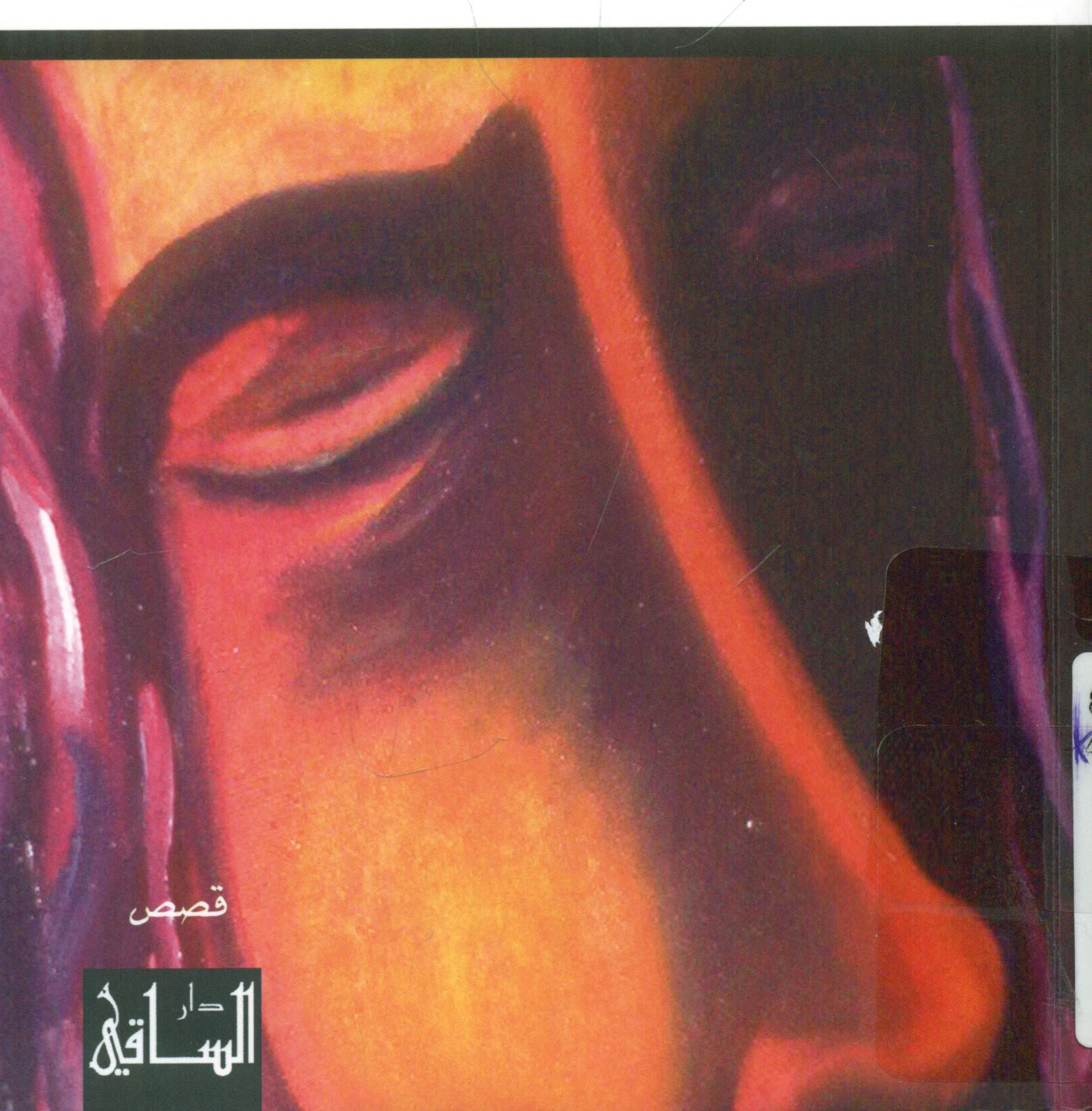
الطبعة الثالثة

عبده خال

ليسَ هناك ما يُبهج



قصص

دار الساقي

ليسَ هناك ما يُبهج

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- مدن تأكل العشب
- الطين
- فسوق
- لوعة الغاوية
- قالت حامدة: أساطير حجازية
- قالت عجيبية: أساطير تهامية
- ترمي بشرر... (فازت بالجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٠).
- الموت يمرّ من هنا
- الأيام لا تخبئ أحداً

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

عبده خال

ليسَ هناك ما يُبهج



الطبعة الأولى، مركز الحضارة العربية 1988
الطبعة الثالثة، دار الساقي 2015

ISBN 978-6-14425-814-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على



لا أحد

كتبت هذه المجموعة
بين عامي ١٤٠٧ - ١٤٠٩ هـ

إلى حبيبتي... سيدة الجهات!

الإرث

كان معها حزنها وقليلٌ من متاع أبي الذي رحل بعد أن أودع في أذنيها وصيته: "اللي يطالع لفوق تنكسر رقبته".

وبعد أن رحل أسلمتني ميراثه كاملاً. ففي الليلة الأخيرة من وقوفي تحت تنهداتها قرّبتني إلى جوارها. كانت عيناها خاشعتين مستسلمتين، وعبثاً حاولت أن تبثّ فيهما بريق النصر. أنفاسها تتصاعد بعنف ويدها تسقط من فوق صدري فأتلقاها بيدي وأشدّ عليها برفق. تخرج ابتسامتها باهتة فتغضّ أهدابها بامتنان وتسارع لمسابقة آلامها بمجاهدة لسانها المتخشّب الذي بللته بريقها الجاف حتى لم يعد قادراً على مغادرة "لهاتها". وبعد محاولات بائسة أخرجت ميراثي الذي خلّفه أبي كاملاً ووضعته في أذني.

"اللي يطالع لفوق تنكسر رقبته".

واستوثقت مني على حفظ هذا الإرث، وحين اطمأنت أغمضت عينيها وأسلمت نفسها للدود متقفيةً أثره.

هذه الجملة التي أرضعتني إياها في طفولتي حين كنت آتيها دامعاً فتعلّقها على مسامعي؛ هاهي تتركها زاداً وتمضي.

منذ ذلك العهد البعيد وأنا أحرص، أشدّ الحرص، على السير برقبة مطأطئة. كان هاجس السير برقبة مكسورة يملأ أعماقي بالرعب والفزع. ثابرت على إبقائها مسبلة حتى أصبحت مدلاّة على صدري كقلادة ضخمة. وبفعل هذه العادة التي اكتسبتها بالتقريع والتذكير أصبحت لا أرى شيئاً: أسمع الأصوات تتشاجر على بوابة أذني فلا أعيرها انتباهاً... الخوف على رقبتي بلغ حدّاً يتجاوز كل شيء، فالسمع يقود إلى الإبصار، والإبصار إلى الرغبة، والرغبة إلى التطلع، والتطلع إلى كسر هذه الرقبة العتيدة الممتدة التي تزيّن هذا الجسد الفارع.

منذ أمدٍ طويل تحاشيت أي رغبة تدفع هذه الرقبة للأعلى. وكجرذ لا يرى إلا الشقوق الغائرة في الأرض أو الفجوات المزروعة أسفل البيوت أصبحت أستدلّ بالأشياء التي تحيط بي من خلال الأحذية والأربطة وغالباً ما أحني رقبتي بشدة حين تقع عيناي - بالخطأ - على حذاء لامع!

في الشارع الذي أعبره يومياً ركض أحدهم وعلّق حبلاً برقبتي الخاضعة لتتدلى ورقةٌ على ظهري العريض، وخوفاً من مؤامرةٍ لكسر هذه الرقبة الفارعة لم أجرؤ على التطلع إليه أو إليها وواصلت طريقي بمثابرةٍ عنيدة.

عبرت الشارع الممتد والضحكات المرتفعة تتحرّش بي وتتبعها أصوات متباينة ثابتة الترديد: حمار للبيع!!

تجاسر بعضهم وقذف بالحصى في اتجاهي، مددت يدي وأسقطت ذلك الحبل المدلّى بعنقي الخاضعة وسرت دون أن أمكّنهم من استكمال مؤامرتهم الدنيئة.

مؤامرات عدة حاولت - في السابق - ثني عزيمتي وإشعال شرارة الغضب في داخلي كي تبتهج بانكسار هذه الرقبة ذات الفقرات العظيمة.

يتوقون لأن يروني كشجرة تمدّ جذعها للفضاء بوقاحة، ابتداءً بذلك السليط الذي أطلق عليّ لقب الأعوص بلوغاً إلى ذلك العاهر الذي كلما رآني صرخ: لقد سهوَا ليلتها فخرج ابنهما ساجداً!

قفزت على كثيرٍ من المؤامرات ووطدت النفس على الإبقاء على إرث أبي بعيداً وباقياً.

***

جزءٌ من ساقٍ لدنة وحذاءٌ لامع وصوتٌ ريّان يعبرونني يومياً، فينشغل بهم القلب وتنبثق رائحةُ الرغبة في داخلي فأقبرها بانحناءةٍ قاسية وما زلت أحنيها حتى نهض القلب.

في صباحٍ منتشٍ بشمسه الدافئة وهدوئه المبجّل ألقت على مسامعي تحية الصباح. حاولت أن أرفع رأسي فعجزت... تلعثمت فعبرتني قبل أن أردّ إليها تحيتها. وفي صباحٍ تالٍ انتظرتها عند مفترق الطرق حين خطا الريح برائحتها. استعددت لرفع رقبتي. انتابني عجزٌ مرير. استعنت بكل قواي على دفع هذه الرقبة

للأعلى. ألقت تحية الصباح ومضت، وأنا أجاهد هذا العنق للنهوض، وعندما يئست توجّهت بخطىً ثابتة للدكتور.

مرّر يده بين عظامها الغليظة. جسّ أوردتها فندّت منه صرخةٌ مفاجئة عاد بعدها لرصانته.

– كم مضى من الوقت وأنت على هذه الحال؟

– آخر عهدي بها وهي تتحرك بحرية عندما كنت طفلاً.

– وأين أنت من ذلك العهد؟

– كنت أحافظ على إرث أبي من أن تكسره الرغبات.

زفر في وجهي بضيق وغمغم: "جاهل". ابتلعت إهانته واستسلمت لفحص دقيق، وبعد عدة "جلسات" اصطحبني إلى الباب وهو "يطبطب" على كتفي مادّاً يده لوداعي وصوته يقطر بالأسى:

– لا فائدة... عظام رقبتك أصابها الضمور.

١٤٠٩/٢/١هـ

القنديل

ما إن جلست حتى ارتفع الستار.

***

رجل مسنّ يخرج حاملاً قنديلاً وصوته الجهوري يتقدّمه... في البدء كان يتمتم بصوتٍ منخفض:

- ما أشدّ العتمة!.. ما أشدّ العتمة!..

استوقفه رجل له قامة متهدمة وعينان تجوبان الأمكنة بعجل. زرع بصره في كل الاتجاهات ثم صرخ بتعجّب:

- هيه، أيها السيد، أنت تسير في فلق الظهيرة، فكيف تشتكي من العتمة؟ أبِكَ عمى؟!

حدّق الشيخ ملياً في سائله وبصوتٍ واثق أجاب:

- إن من يلمح لون بؤبؤ عينيك يجزم بأنه كاحل السواد وفي حقيقته يميل إلى البني الغامق.

اتّسعت دهشة السائل وبصوتٍ مستنكر صرخ في الشيخ:

- أوه... إذن أنت لا تشتكي من عمى؟!

الشيخ (بصوتٍ حزين): كحِّل عينيك جيداً.

تركه يمضغ دهشته وانسحب يرتّل تمتماته:

- ما أشد العتمة!

في شارع ضيق تفيض منه وجوه طرية ملساء، استوقفته امرأة تفور منها رائحة غدقة. خاطبته وهي تتثنّى باستخفاف:

- يا مخبول، العتمة في قلبك وليست في الطريق.

مدّ الشيخ بصره في الطريق المتبقي وأعاد نظره إلى المرأة:

- حين يبصر القلب تظلم الطريق، سيدتي.

ركبتها موجة غضب فبصقت على ظلّه بعد أن أشاحت بوجهها عنه وتركت له لعنةً كبيرة ليمضغها على مهل.

اعتدل، مدّ قنديله للأمام وسار وتمتماته تتعالى:

- ما أشد العتمة!

صفقت وجهه عدة طرق فوقف ثابتاً أمامها، يرفع قنديله وتمتماته. ومن زاوية مشبعة بالظل تدحرج رجلٌ مثقلٍ بجسده الضخم وبقامته الأسطوانية ظلّ يتدحرج حتى اصطدم بالشيخ، وظل غارقاً في ضحكة طويلة، ومن بين ضحكاته ولّد سؤالاً:

- كيف ترى الليل في هذه الظهيرة؟!

صرخ الشيخ بحدة: كوجهك!!

ثار ذلك الهائج وقبض على عنق الشيخ بشدة: أوجهي معتم؟!

صمت الشيخ قليلاً ووازى قنديله بوجه ذلك الهائج:

- هل تلمح هذا النور؟!

الهائج (بصوتٍ فظّ): نعم.

الشيخ (بصوتٍ هادئ): وهل تجده في داخلك؟!

فتراخت يده عن عنق الشيخ وأخذ يركض حتى وارته المنعطفات.

أخذ الشيخ نفساً عميقاً وشدّ يده على قنديله ومضى في طريقه.

على دكّة مقذوفة في وسط الشارع جلس طفلٌ يرسم في كرّاسته غيمةً يانعة تجاوره طفلةٌ تخطّط الأرض مربعات صغيرة.

مرّ بهما الشيخ وهو يردّد: ما أشد العتمة!

استوقفه الطفل برفق:

- يا عماه، هل العتمة أن لا يراك الآخر؟

مرّر الشيخ أنامله على رأس الصبي وبصوت حانٍ:

- وأن تراه يا بنيّ!

ظلّ الطفل حائراً:

- لم أفهم!
- ستفهم.
وواصل طريقه وهو يتمتم: ما أشد العتمة!
تبعه الصبي ومن خلفه أخذ يصرخ بصوت مستغيث:
- يا عم، وماذا يعمل القنديل في عتمة الظهيرة؟
استدار الشيخ نحو الطفل وضمّه بعينيه:
- كما يعمل عمرك الصغير في بحر التاريخ.
جلس الطفل باكياً، فتركه وولّى في طريقه. حينها قامت الصغيرة بمسح مربعاتها وتناولت كراسة الطفل وأكملت رسمته، فتساقط مطرٌ أخضر.
كان يسير أمامه حمال تقوّس ظهره حتى كاد رأسه أن يلامس ركبتيه، ومن تحت حمولته كان يئنّ بصوت خافت.
فيرتفع صوت الشيخ: ما أشد العتمة!
فجاء صوت الحمال زافراً: صدقت... ما أشد العتمة!
استدار الشيخ بكلّ جسده باتجاه الحمال وبصوتٍ محفّز صرخ به:
- إذاً ارفع رأسك، فالشمس قريبة.
تأوّه الحمال وهو لا يزال منحنياً: وهذه الأثقال، من يرفعها من فوق ظهري؟
الشيخ (بصوتٍ حثيث): أنت... هيا مدّ رأسك للشمس.
الحمال (بصوتٍ منكسر): رؤوسنا لا تمتدّ إلا في القبور!
وأكمل طريقه وهو يتأوّه.
فتبعه صوت الشيخ: ما أشد العتمة!.. ما أشد العتمة!..
أخذ الشيخ يتهادى في مشيته، يرفع قنديله حيناً ويهبط به مرة أخرى، وصوته يتأرجح بقوة:
- ما أشد العتمة!
مرّ بجواره رجلٌ يتوكأ على عصا فضية، كان يسير وهو يتأمل الشيخ باستفزاز. لاصقة ثم لكزه بعصاه:
- يا هذا... سينضب زيت القنديل.
صرخ به الشيخ زاجراً: لا تخذل النور... يا أنت.

وتراجع عن إكمال طريقه وسلك طريقاً آخر. قذفه عنق الشارع إلى برحة واسعة اصطفّ فيها خلقٌ كثير، وما إن رأوه حتى أحاطوا به. كانوا يحملون أوراقاً وأحلاماً، لهم وجوه متشابهة وأفواه مختلفة. وجد نفسه في وسطهم تماماً، تتقاذفه ألسنتهم، فرفع قنديله فوق رأسه.

صوتٌ طري: هل الظهيرة عتمة؟

الشيخ: وهل الليل نور؟!

صوت "مستهزئ": أنت مجنون لا شك!

الشيخ: حين تصبح مرآةً يهمّ الكثيرون بتحطيمك.

صوت "مستفسر": كيف تنجلي العتمة؟

الشيخ: اعبر عمرك لتنير لمن خلفك.

يتعالى لغطهم وتتداخل أصواتهم بشكل عشوائي، فارتفع صوت الشيخ: ما أشد العتمة!

هدأت أصواتهم قليلاً وارتفع صوتٌ "متحدٍّ": ما زلت تحيا والعتمة تنمو.

اخترق الشيخ حصارهم واتّجه صوب جدارٍ متماسك وغرس فيه إصبعه وصرخ:

- هاك إصبعي... اثقب بها الجدار!

تخاذلوا جميعاً. امتدت أياديهم وأعادوه إلى مركز الدائرة، وأحاطوا به مرةً أخرى.

صوتٌ "مختبئ": ما لون العتمة؟!

الشيخ: كألسنتكم، تمضغ الحديث وتنام.

صوتٌ "متقطّع يتمطّق بتكاسل": أنت ترى عتمة وغيرك لا يراها، فلا تقلقنا بصيحاتك!

انتفض الشيخ. غطّى وجهه وصرخ بهلع: "هاهو الطوفان قادم"، وجثا على ركبتيه وظلّ رافعاً قنديله إلى الأعلى.

حين انطلق صوتٌ مشتعل انتصب له الشيخ.

صوتٌ "مشتعل": من أين يأتي النور؟

الشيخ: أطلق أسئلتك في كل حين، لترى النور.

شاب طافح بالصحة يقطع الدائرة ويقف بجوار الشيخ.
الشاب: أريد أن أصحبك.
الشيخ: احمل نعشك واتبعني، فنور القنديل لا يزال ضئيلاً.
الشاب "بخجل": لا أقوى على هذا.
الشيخ "بحزن": والقنديل ينضب بالخطى المتعثرة.
تطلّع فيمن حوله فنكست القامات جباهها، فاخترق دائرتهم ومضى. بدأ صوته غارقاً بالحزن... أخذ يردّد بصوتٍ صخريٍّ هادر:
- ما أشد العتمة!.. ما أشد العتمة!..
وفي شارعٍ منحنٍ غرق في العتمة. توقّف الشيخ وتطلّع إلى قنديله... كانت شُعلته تغسل رِداء العتمة على مهل، والغبار المنبثق من الجهات الأربع يدفع أمامه رائحةً نتنة. تبسّم الشيخ وصرخ:
- مزيداً من النور!
عندها ظهر رجلٌ أنيق ومن خلفه توقّف رجالٌ يرتدون أقنعة ملونة وبأيديهم عصيّ معوجة، وبصوتٍ آمر صرخ الرجل الأنيق بمن معه:
- كمّموا فمه، وكسّروا قنديله.
فانهالوا عليه جميعاً...
وحين انفضّوا كان قبره يضيء.

***

حينها تنقّلت ببصري في القاعة. كان القوم يغطّون في نوم عميق... وما إن نهضت حتى أُسدل الستار.

٣/٢/١٤٠٨هـ

محاولة لإشعال سيرة منطفئة

الإهداء: إلى رجلٍ ما... جلس وحيداً كالخلاء.

يقولون عنه: إنه صيّاد جشع.

نبتت في رأسه فكرة اصطياد عروس البحر حين كان عائداً مع موال ساحلي، بعد رحلة صيد فاشلة.

سمع صيادين عجوزين كانا يخبئان ملوحة السفر الطويل في جلودهم السمر، ويتحسّران بعمق على عمرهما المهدور في الموانئ. يقلّبان ذكرياتهما ويتحدثان في مقدمة المركب عن حورية البحر وأنها لا تظهر إلا للفتيان، ومن رآها لا يغادر البحر شباكه.

أركب ابنه في مؤخرة القارب وشقّ ظهر البحر وأوغل في الإبحار.

ساعداه المفتولان يجدفان بمهارة، وصوته الريّان ينشد موّالاً رطباً، والبحر يقذفه للأعماق...

ابنه ظلّ ساكناً ينظر إلى غيمةٍ نمو في السماء وتُسدل على الأفق لوناً رمادياً غامقاً.

قال لأبيه: لنعد.

زجره ورفع صوته بنشوة: غداً سنعود نحمل البحر.

جاءهما الليل يدفع أمامه موجاً وعتمةً وعاصفة. تصافقت الأمواج وغدا البحر لجّةً من ليلٍ وغضب.

الريح تُعوي بصوتٍ حادّ وتركض في البحر، وحينما لا تجد ما تمضغه تقبر عواءها في لحد الأمواجِ.

كان يتطلع صوب ابنه فلا يراه، ويقذف ببصره السماء باحثاً عن نجم، فيلمحها عمياء، فيعتصم بصوته ويوصي ابنه: "ألقِ بنفسك في قاع القارب". والقارب تتناقله

الأمواج، تعلو به وتهوي.
مضى الليل يدفع أمامه ظلمةً وموجاً وعاصفة.
ركض صوب مؤخرة القارب فوجد أن الموج سرق ابنه ومضى مع الليل.
شدّ ساريته ورفع موّالاً مالحاً وأبحر يلاحق الموج يتتبع خطاه حتى بلغ هذا الشاطئ، وحين وصل لم يجد إلا الحجارة فاقتعدها وانتظر الموج وابنه.
وذات ليلة جاءت الأمواج ترغي. ألقت إليه بطبل فحمله وانتظر الموجة القادمة.

***

على امتداد الشاطئ ألفنا رؤيته كنورس يتنقل في أماكن عدة لكنه لا يبرح رائحة البحر. شعره الأجعد مضى عليه زمن لم يمسسه مزين، فغدا كالأسلاك الهرمة، ولحيته الكثة تثنّت حتى بدت كعناكب سوداء قبرت بوجنتيه. ثيابه مهلهلة، رثّة.
يجلس القرفصاء في مواجهة البحر فيبدو من ضخامته كأحد الحجارة السوداء الملقاة في وجه الأمواج.
يجلس صامتاً ساهماً وعيناه السوداوان معلقتان في المدى، ويداه تمسكان بطبلٍ قديم. وحين يلمح الموج قادماً يضمّ طبلته الضخمة إلى صدره بعنف وينهض.
عند الغروب نلمحه يتطلع إلى قرص الشمس وهو يهوي خلف الماء، وعندما يغيب تماماً ينهض بتثاقل ويخطو حتى يبلل البحر قدميه ويظل واقفاً في مكانه ممسكاً بطبله العتيق ويده معلقة تهمّ بضرب الطبل. وحين يختبئ المدى خلف العتمة يرفع رأسه للسماء يقلّب بوجهه تلك الصفحة السوداء. يظل هكذا... وقتاً طويلاً.
فجأةً، يتحرك ويده ترتفع عالياً وتهوي على الطبل الممسك به فيأتي الإيقاع منغّماً يدفعه بصوته الحزين:
– يا كريم... يا كريم نحن على بابك... يا كريم...
ويمضي يردد تميمته حتى يبتلعه الظلام.

***

يقولون عنه: إنه قاتل

كان يعشقها.

اقتاتته الغربة وهو يجمع المال لضفائرها المسترسلة كسنابل الحنطة. يستيقظ من الغسق، يحتزم بحبال خشنة ويقف أمام المستودعات، يبسط ظهره كحمارٍ معافى، ويسير في كل الدروب دون تأفف.

كان يحمل كلّ مدخراته في جيب بنطاله الخلفي، وينام على حصيرةٍ متآكلة يشاركه فيها ثلاثة آخرون دفعتهم الغربة لجمع المال، فجمعوا الغربة والعذاب، وقبل أن ينام يخرج مدخراته، يحصيها ويتمتم بصوتٍ محروق:

– أوه يا زينة، أعلم أن الزمن أكل ضفائرك وقلبي.

يضمّ مدخراته إلى جيبه الخلفي ويرتقه بإبرةٍ صدئة... يثبّت يده عليها وينام مستجلباً نوماً عصياً، وكلما دنا منه فزّ ملتمساً جيب بنطاله الخلفي. لم يستقرّ على حال، نقض خيوط الرتق الذي أحدثه، واستخرج مدخراته ودسّها في الجيب الداخلي لسترته.

في اليوم الأخير لغربته، تحدّث منشرحاً لزملائه:

– لم يعد يفصل بيننا سوى سفر سبع ساعات!

خرج للسوق وتبضّع لعروسه ولم ينسَ شراء طبل يزفّ به، وعاد ليقضي آخر ليلة من عمر سفره الطويل.

كان زملاؤه يغطّون في النوم، فبسط عشاءه، وغنّى بصوتٍ رخو... تمايلت أجسادهم وأفاقوا وهم يغنّون.

خلع سترته العتيقة وارتدى لباس عرسه. زفّه زملاؤه بالأهازيج. تراقص أمامهم فنثروا الأغاني على رأسه. غنّى حتى تعب ونام وهو ممسك بحلمٍ عذب ويسند رأسه إلى سترته القديمة.

في الصباح الباكر تهيّأ لأن يغادر غربته. كانت سترته القديمة مبثوثة... أصابه الذعر. ركض صوب زملائه المغادرين إلى أعمالهم، أمسكهم واحداً واحداً ومجتمعين، سألهم عن مدخراته، عن ماء غربته. وبّخوه، فبكى بين أيديهم... زجروه، وعادوا إلى غرفتهم استكمالاً لارتداء زيّهم الوظيفي.

دخل غرفتهم الوحيدة وناداهم واحداً واحداً. وحين خرج كانت عين ثالثهم جاحظةً بجوار زميليه وأقدامهم تتدلى من جذع النخل البادي من سقف تلك الغرفة

الطينية. خرج يحمل طبلة عرسه ونسي الأرض خلفه وخطا على البحر، وظلّ مسافراً حتى قذفه الموج بالقرب من هذا الشاطئ.

فمكث ينتظر موجةً أخرى تحمله إلى مدى أوسع.

***

غالباً ما يأتي في مثل هذا الوقت. ألمحه وأنا أذرع الشاطئ منادياً على بضاعتي. يسير بمحاذاتي، يتفرّس في وجهي ويقرع طبلته ببطء، فأتشاغل عنه.

في البدء اعتدت رؤيته قابعاً في ركنٍ منزوٍ من الشاطئ.

مرّ أمامي ذات مساء، كانت خطواته ثقيلةً، وشفتاه الغليظتان تتحركان بانتظام... أفزعني منظره، كدت أركض وأخلّف خلفي بضاعتي. تماسكت قليلاً حين لمحت دمعةً كبيرة تنحدر من عينيه وهو يسارع إلى مسحها بطرف كمّه المتّسخ. شعرت برغبةٍ في أن أضمّه إلى صدري، ضحكت في وجهه بودّ. تطلّع إليّ بلا اكتراث ومضى باتجاه عمودي صوب البحر فتقافز الموج الصاخب في وجهه... استفزّه... ثار وضرب طبلته بعنف وركض على امتداد الشاطئ، وبصوتٍ متهدّج يخالطه نشيج كان يردد:

– يا كريم... يا كريم نحن على بابك... يا كريم...

***

يقولون عنه: إنه فاحش الثراء..

جاء غريباً إلى هذه المدينة يحمل طبلته وعنواناً ناقصاً. اشتهر في قريته بدقاته المشهورة، وترامى خبره في المدن. كانوا يدعونه ليشاركهم أفراحهم... يغني ويرقص ويعود.

خرج من قريته صباحاً، جاب المدينة باحثاً عن صاحب العنوان. بحث طويلاً فلم يستدلّ عليه. وبعد مساحةٍ من اليأس أنزله صاحب السيارة الأجرة بالقرب من الشاطئ.

والليل قد مدّ خطوته على الأرض... وعلى امتداد الشاطئ كان يسير بتكاسلٍ

ويده تقرع الطبل ويتنهّد بالصوت:

– يا كريم... يا كريم نحن علي بابك... يا كريم...

حينها مرّ به شخص ونقده مبلغاً من المال وأوصاه أن يدعو له بالتوفيق.

من يومها امتهن التسول، ولكي يتقن مهنته أطلق شعره وسكن هذا المكان ولم يستبدل ثيابه التي قدم بها من قريته إلى اليوم.

***

تحركت باتجاهه.

كان يعطي الأرض ظهره ويستقبل البحر والأفق بترنيماته المعتادة ويده ممسكة بحجر تتهيأ لقذفه والأخرى ممسكة بالطبل.

اقتربت منه حتى وازيته... لم يلتفت إليّ... وقفت في وجهه – سددت الأفق عليه – فحرك رأسه قليلاً وتابع قدوم موجةٍ متكاسلة... ألقى بالحجر على حدودها فتلاشت وعاد يترقّب الموجة القادمة.

كان أمامه تلٌّ صغير من الحجارة يرجم بها البحر. تناولت حجراً من أمامه وقذفت به إحدى الموجات. شجّعتني ابتسامته على أن أحدثه:

– هل تقبلني صديقاً؟

نهض بسرعة وشدّ طبلته وألهبها بكفّه الضخمة وأخذ يركض على امتداد الشاطئ.

– يا كريم... يا كريم نحن على بابك... يا كريم...

***

يقولون عنه: إنه عين.

***

في الصباح حملت طعاماً رخيصاً وسرت إليه.

بحثت عنه على امتداد الشاطئ فلم أجده، فجلست تحت الصخرة التي استوطنها. ظللت قابعاً حتى بلغتني الشمس، حين سمعت صوت حركة في الماء

نهضت من مكاني.

رأيته ممدداً يسبح بمهارة وطبلته مشدودة على ظهره. واصل سباحته حتى أصبح البحر غير قادر على ابتلاع نصف قامته. استوى ومشى في اتجاهي، وحين وصل إلى صخرته تسمّر لبرهة حين رآني. أنزل طبلته من على ظهره وأعاد شدّها على ساعده الأيسر.

تنحنحت:

– عفواً. لو أن قدومي يزعجك... سأنصرف.

انتظرته طويلاً أن يردّ عليّ ولكنه لم يكترث، وحين لمح الأكل أقبل عليه بنشوة. فجأةً تريث... قلّبه بارتياب وناولني قطعة، قضمتها فابتسم وأقبل على الأكل يلوكه بنهم.

ظللت أتأمله بنصف عين وبصوت واهن رددت:

– يا كريم... يا كريم نحن على بابك... يا كريم....

قذف بلقمته واستدار بوجهه صوب البحر، وحين لمحه بارداً ساكناً ترقرقت من عينيه دمعة.

فأسرعت بمغادرته دون أن أتفوّه بشيء.

***

يقولون عنه: إنه منجم.

جاء من الجانب الشرقي ليبذر قامته في هذه الناحية.

فقد تتبع مسار النجوم وعرف أن نجمته ستغادر سماءها ومع سقوطها تنبت بلداً جديداً.

***

تعبت من دفع عربتي المتهالكة والسير لمسافات طويلة منادياً على بضاعتي. اخترت مكاناً صغيراً يتوسّط الشاطئ واستأجرته وأقمت به.

من مكاني ألمح المتنزّهين يحاصرونه بعيونهم وأفواههم المندهشة، فيترك

مكانه ويأتي إليّ... يجلس أمامي صامتاً... يده تعبث بوبر طبلته وعيناه غارقتان في المدى البعيد... شفتاه الغليظتان تتحركان كلما لمحتا ارتطام الأمواج بالكسّارة... ينهض حتى يستوي، ومع ارتداد الموج يعود إلى جلسته الأولى، وحين يدخل الليل ينفض جلسته ويتّجه إلى البحر... يظل يمشي حتى يبتلع البحر نصفه الأسفل. يتوقف ويرفع يديه بشكل عمودي ويلقي برأسه إلى الخلف وأنامله تطارد النجوم، وطبلته تتدلى إلى جنبه الأيسر... يظل هكذا زمناً طويلاً حتى يخبّئه الظلام.

كان يمارس هذه العادة يومياً، وحين يلمح نجمةً ساقطة يعتدل ويخرج من البحر راكضاً، ويده تضرب طبلته القديمة بعنف، ويصبح صوته حاداً يمزّق الأفق:

– يا كريم... يا كريم نحن على بابك... يا كريم...

***

يقولون عنه: إنه مجنون.

كان وحيداً كالخلاء.

ماتت زوجته بعد أن خلّفت له طفلاً جميلاً لم يكن هناك من يرعاه، فيحمله معه إلى الحقل ويتركه على ناصية "الفنية" و"يتلم" الأرض.

ذات صباح مبلّلٍ بالمطر فاض الوادي وجرف معه ضحكة الصغير. قذف بمسحاته وركَضَ خلْف الوادي حتى بلغ مصبّ البحر.

وظلّ ينتظر ابنه.

حتى قال: رأيت ابني يقطف النجوم في سلّةٍ بيضاء.

***

– أوه... ليته لا يأتي الآن!

توقفت سيارة كبيرة ذات قفص تبدو من بين أخشابه المتفرقة أجساد مكوّمة مهلهلة لم يتبقَّ منها إلا عيونها المتربّصة بانكسار.

توقفت السيارة أمام "الكشك"، ونزل ثلاثة من مقدمتها وانتشروا على امتداد

الشاطئ، وبقي رابعهم يحرس العيون من الهرب.

من البحر خرج... طبلته مشدودة على ساعده الأيسر... يمشي بتكاسل ورأسه يتدلى على صدره كديكٍ ذُبح للتو، وأنامله تقرع قرعاً خفيفاً قصيراً فينبثق إيقاعٌ خافت يتقدمه:

– يا كريم... يا كريم نحن على بابك... يا كريم...

أصغوا إليه، وركضوا خلفه... طاردوه وعادوا ممسكين به من شعره وسترته ويده. صفعه أحدهم بغضب:

– لم أكن أعلم أنّ للمتسولين ساقا نعامة.

مسح الصفعة وشدّ طبلته وقرع قرعاً سريعاً قصيراً.

صرخ قائدهم: اقذف بطبلته بعيداً واحشره مع البقية.

تحرك المأمور وجذب الطبل بقوة وكأنه يوجّه حديثه للقائد:

– إن وثاقه عسير، ولكن سأقطع يده وأقذف بها مع هذا الطبل.

كان المأمور يشدّ الطبل بعنف ويد صاحبي تتراخى وعيناه تفيضان بدمعة كبيرة وهي تتابع تدحرج الطبل الذي قذف بعيداً. مسح بكمّه الرثّ دمعته وأشار إليّ باتجاه الطبل.

دفعوه أمامهم. فتحوا له القفص وألقوا به على تلك الأجساد المهملة وصعدوا. تحركت السيارة واختفى خلف رمالها المتطايرة. تساقط أدمعه ويده المشيرة إلى الطبل المقذوف. غابت السيارة بعيداً فخرجت من محلي أعدو، حملت الطبل، شددته على ساعدي الأيسر ورفعت يدي وهويت بها وركضت على امتداد الشاطئ.

– يا كريم... يا كريم نحن على بابك... يا كريم...

١٤٠٧/١١/٣٠ هـ

لا أحد في القلب... لا أحد في الطرقات!

خرجت راكضاً والصرخات الحادة تتبعني، ومن خلال فزعي ولهاثي المتقطع أقلّب بصري في كل الاتجاهات: لا أحد هناك... لا أحد يقف بجواري... لم يتبقّ شيء سوى أن أتهيّأ للموت!

***

قررت أن أخرج لأختار قبري!

خرجت أحمل جثمان وليدي الوحيد. كنت أسير في الأزقة وأمه من خلفي تنتحب. وحيدين خرجنا... في الطرقات الطويلة كانت الأجساد تقترب منا فنتوقف لها فتتخطّونا وكأننا جدر مهدمة، وجثمان الصغير ملقى في حضني أسكب عليه حرقتي ونحيب أمه.

لا أحد يبللنا بالصوت.

فنخطوا به خطوةً أخرى صوب الموت... المقبرة أرض حبلى بالموت ونحن نتخللها كالريح: أي أرض رخوة تستقبل الخطوة؟!

أحمل جثمانه فيتقطّر من بين يدي كالماء تستقبله أمه وتلثمه ونحاصره بالدمع: لا أحد يبللنا بالصوت.

كان جثمانه ملقى على الأرض وخازن الموت منهمك في حفر قبر صغير؛ صغير جداً، وزوجتي تمرّغ رأسها بالكفن، أحاول أن أرفعها فلا أقوى فننخرط باكيين. استحلفتني أن تراه للمرة الأخيرة، فشرعت أحلّ أربطة الكفن الصغير فبزغت يده اليمنى – تلك اليد التي نبتت في راحتيها ستة أصابع – انشغلنا بتقبيلها، حين هبّ فينا خازن الموت وخطفه من بين أيدينا وطمر جسده في التراب...

كانت يده لا تزال منتصبةً تشير إلينا بحملها، والقبّار يهيل عليها التراب ونهيل – نحن – أدمعنا وتلك الأصابع الست لا تزال تنادينا. ارتمينا على القبر نقبّلها...
صرخ القبّار بفجاجة:
– هل ترغبان أن تشاركاه مكانه؟!
فزعت ونهضت أقود زوجتي ويد الصغير من خلفنا تنادي...

***

قررت أن أخرج لأختار قبري!
من يسند وحدتك في هذا الليل؟!
أسير على أحد الأرصفة يشاركني – هذا الرصيف – رجلٌ يحمل أمتعته، ومن تحت حذائه تتقافز حبيبات الرمل بعنف، ووجهه مساحة شاسعة من الغربة، تجوب عيناه الأمكنة بانكسار، يشدّ أمتعته على ظهره وتتصاعد من فمه آهات محمومة. كانت عيناه تغرورقان بالدمع فينضحها بكمّه الطويل جداً. تنبّه لعينَيّ المحدقتين إليه، نظر إليّ بارتياب ومدّ خطوته صوب صوتٍ ينادي:
– راكب واحد... واحد فقط...
صعد مسرعاً وهو يلملم تأوهاته وانكساره. لمحته يعبر أجساداً تتطلع للأمام ووجوهها تلتحف الغبار والصمت. كان يعبرهم بتثاقل... استقر في آخر الحافلة، ومن خلال النوافذ المغلقة كانت العيون تبصق غربتها في الأفق، والذي عبرني – للتو – لا يزال ينضح دموعه بكمّه الطويل.
تقت لصحبتهم فتحركت باتجاه الحافلة. اقتربت... كانت بوابتها مغلقة... قرعتها، فعبرتني:
إيه، تأتي وحيداً وتسافر... وحيداً يا هذا القلب!
لم يكن أمامي إلاّ أن أسير. خطوت نحو الرصيف الممتد إلى قلب المدينة: رصيف لامع تنزلق عليه عيناي والريح تفرغ وحشتها على هامتي فأتدارى بالسير. تعبرني الأقدام حاملةً وجوهاً مغلقة، أتأمّلها وأفاتحها بضياعي: في أي شارع أنا؟
الوجوه تسبل صمتها. سرت علّني أهتدي، وكلما توغلت في المدينة تستطيل غربتي، فأشعل الأرصفة أسئلة. بعض الأيدي تشير إلى لوحات مثبتة على

جنبات الشارع الطويل... قرأتها، كل الأسماء أنيقة وغريبة، فأدور بجسدي في كل الاتجاهات... تسرق عيناي المباني الضخمة، والأنوار الكثيفة، والحليّ، والفساتين الممشوقة، والمعارض الأنيقة، والسيارات الفخمة، والأحذية الراكضة، فأغصّ بشهقة مكتومة:

– آه... أين أنا؟

شبّ صداعٌ خفيف في مؤخرة رأسي.. حضنته بيدي وعمّقت النظرة. إسمنت ممشوق، و"سُبح"، و"غتر" منشّاة، وأفواه مائلة أو مغلقة، وعيون معلّقة، وأحذية تركض.

يجتاحني دوار، فأستند على إحدى واجهات المعارض. نهرني رجل بلهجةٍ عربية متداعية: إنت روحي اشهتي بأيد!

كدت أن أثور عليه حين لمحت رجلاً، أنيقاً جداً، يقف خلفه ويحثّني على الابتعاد: سيدي، أنا لست...

هشّ بيده فمي وغرسها في صدري:

– يا ناس... أنتم تشوهون البلد.

انتشر الصداع بحدة، فأطبقت عيني على ذلك الأنيق وهو يدفعني بكلتا يديه.

لا أدري كم مضى من الوقت حين أفقت لأجد جسدي ملقى في ركنٍ قصيّ من ذلك الشارع يبللني الماء وتجاورني كومةٌ من النقود.

نهضت بتثاقل وخطوت تاركاً خلفي تلاً من النقود وشارعاً تبرّج بالركض.

***

مساءٌ متهالك... لا أحد يرغب في أن يجاذبك أطراف الحزن، الكل يتدثّر بهمومه ويمضي وتستلقي وحيداً تغدق على وحدتك بالذكريات فتفيض الذاكرة وجوهاً أليفة تتمرّغ بفؤادك، فجأةً تعدو كالأرانب الهاربة وتخبئ. تنتظرها طويلاً... تنام على أبوابها وتحلم بها.

دخلت غرفتي وأشرعت منافذها وجلست حين هبط مساءٌ متهالك. بسط أعضاءه فنمت شجرة الوحشة، والصمت... ي... ن... ز... ينـ... ينزّ... من جنبات الغرفة... ينزّ... يتدفق... يهدر.

ويغدق على الشجرة الموحشة ماءه، فيهطل الحنين.

مللت هذا الصمت. مللت أن أقتات نفسي كلما نبتت هذه الشجرة. حين كانت زوجتي تشاركني هذه الغرفة كانت تطالبني أن أطارحها اللهاث المستمر وأنا أطالبها أن ننضح هذا الصمت... كانت تثور دوماً.

- أنت تعشق الكلام وكأنك خلقت لتتحدث!

ليس ثمّة شجارٌ في هذا المساء، والصمت ينداح في داخلي... أجزم أنني سأغدو صنماً. تسللت إلى مقر أمي، قبّلتها في رأسها ورميت رأسي في حجرها وبكيت... بكيت...

عمرها الطويل كسرها فجمعنا بقاياها في سريرٍ متهالك وأسكنّاها في ركنٍ منزو من بيتنا الواسع كنت أطلّ عليها يومياً حتى عدتُ لا أراها.

شعرت بعظامها تتقصّف تحت تنهداتي... لا شك أن رأسي مثقل بحزني وعظامها البالية لا تقوى على حمله. اجتاحتني عاصفةٌ من البكاء... أمسكت بجسدها المسجّى و"نشتها" فتساقطت من فمها آهات خافتة.

أمي، هل تسمعينني... وحيد... وحيد أنا... وح... ي... د... وجهها ينبئ أنّ كل شيء غدا رماداً... تماسكت وخرجت.

يا لهذا القبح! ما لنا نتذكّر الآخرين حين نريد منهم أن يتذكّرونا؛ فهذه المسكينة، أغلقنا عليها كبرها فتيبّست في وحدتها... لا شك أننا سنتجمّد داخل أنفسنا ونصبح علباً محفوظة سرعان ما تنتهي صلاحيتنا ونُقذف في براميل القمامة.

- يا الله... سأجنّ إن لم أجد من يفضّ وحدتي.

عدت أجرّ خطاي إلى غرفتي. تناولت الصحف اليومية وقرأت... قرأت... كلهم مزيفون... لا أحد يكتب من أجلك... يختبئون خلف كلماتهم كجرذانٍ تختبئ في شقوقٍ ضيقة لا تصل إليها العين.

تطلّعت حولي، ما زالت الغرفة تنزّ بالصمت... كل شيء اعتصم بالصمت: الصور المعلّقة على الحيطان... الماضي الحبيس في الذاكرة... الهاتف... قطعة من تمثالٍ منحنٍ... الكتب... الصحف... باب البيت وأنا. حتى في المكتب تظل الجباه منكّسة كالرايات المهزومة... الكل يدفعك، يلفظك من قلبه، وأنت تبحث

عن ظلٍّ في هذا الركض. اقتربت من المذياع وأدرت المفتاح فانبثقت أصوات متداخلة، أدرته حتى استقرّ على أغنية تشاطرني الصمت ومن ثناياها تفوح رائحة الحنين.

يتوغّل الصدى في أعماقي، يبلّلها، فتنمو وحدتي، ترفرف كطائرٍ "حطَّ" على الجرح. للطائر جمرةٌ تشعلني فأصرخ... أصرخ... ولا أحد... لا أحد يسمعني... فأجمع صوتي وفزعي وأعاود مضغ الصمت.

رنين الهاتف ينعشني... أركض باتجاهه... أرفع السمّاعة... صوتٌ متعب يستلقي على مسامعي:

– منزل حاتم؟

تلاشت تلك الفرحة التي بزغت في داخلي. غمغمت بوداعة: لا يا سيد! وأعدت السماعة إلى موضعها وهو لا يزال ممسكاً بالأخرى.

أوه... يا لها من وسيلة رائعة لردم هذا الصمت!

مكالمة

على عجل رفعت السماعة لتتناقل أصابعي بعشوائية فوق الأرقام. ارتفعت السماعة في الطرف الآخر. تواصل إلى مسامعي صوت شجار وامرأة تبكي. كدت أن "أرخي السماعة" حين كان الصوت يأتي ملحّاً:

– ألو... ألو... ألو...

تماسكت قليلاً وتنحنحت:

– عفواً... منزل حاتم؟

كان الصوت يتطاير ضيقاً: حاتم مين؟

ارتبكت وفي عجلة كررت: حاتم، حاتم.

جاء صوته عاصفاً: يلعن أبوك على أبو حاتم، يا أولاد الكلاب.

مع شتائمه تداخلِ صوتي ليناً: يا أخي ما يصـ...

وقبل أن أكمل جملتي كانت السماعة قد ارتطمت بعنف.

مكالمة

- ألو... مساء الخير.

يتهادى صوتٌ مفعم بالحياة أظنه لفتاة... للتو بزغت من أكمامها: مساء النور... مين؟

ارتبكت قليلاً وقبل أن يطول انتظارها أنبأتها:

- شخص يريد أن يـ...

قاطعتني بصوتٍ يضجّ بالدلال:

- مش وقتك. بابا موجود. اتّصل بعدين.

ووضعت السماعة بهدوء.

مكالمة

- ألو... صباح الخير.

كان الصوت معبّأً بالنعاس: صباح الخير... نعم؟

- ممكن نتحدث للحظات؟

- تريد من؟

- أي إنسان!

- ماذا تريد؟

- أن نتحدث عن الإنسان.

- يا ناس حرام عليكم! تتصل في آخر الليل وتقول إنسان وكلام فاضي!

أجبته بتودّد متلهّف:

- آسف علّى اتصالي المتأخر. حدّد لي أي وقت وسوف أتصل بك.

جاء صوته متقززاً:

- يا أخي أنت فاضي... روح شوف لك شغل يفيدك أحسن.

وقبل أن أجيبه أعاد السماعة إلى موضعها... لأبقى وحيداً على الطرف الآخر.

مكالمة

– ألو... صباح الخير.
صوت غضّ لطفلة تجمع الحروف على لسانها وتنطقها متساقطة:
– سباح النول... أنت مين؟
– عمو عبد الواحد.
– إنت تعرف ماما... ماما مش في...
كدت أن ابكي والطفلة تهزّ السؤال... ظلّت تنوشه وأنا أتهدّم بصمت، وعندما لم أجب تركت السماعة وذهبت.

مكالمة

صوت مذهّب يتحدث بطلاقة، لغته تفور باللهجة الشامية العتيقة:
– مرحبا.
– السيد حاتم موجود؟
– لا والله، الشيخ قطع جميع أعماله وتوجّه إلى الخارج في إجازة قصيرة... هل لك من خدمة؟
نهضت من المفاجأة بتلعثّم واضح:
– لا، لا، فقد أردت أن أقـ...
– عفواً، لحظة...
ظللت أنتظر اللحظة ومحدّثي يتكلم في تليفون آخر... يصلني صوته حاداً غاضباً:
– ألم أقل لك تابع "البورصة" كل دقيقة؟ لاحظ لو حدثت خسارة سوف تتحمّلها لوحدك... مفهوم؟ اتّصل بالبنك وأوقف بيع الأسهم وردّ لي خبر... استعجل.
أعاد صوته لي: عفواً... ماذا تريد أن تقول؟
كنت على وشك أن أعتذر منه وأنهي المكالمة حين استوقفني:

- عفواً، لحظة.

لا شك أن من الغباء ما لو وُزِّع على هذا العالم لأغناه... أي حمق هذا! لمَ لا أنهي المكالمة؟ يبدو أن له من العلاقات المتينة ما يحقق رغبتي، فلِمَ لا أنتظره؟!

بقيت أنتظر محدّثي ومحدّثي يتكلم في اتجاهات متعددة:

- طلبك سوف يصل غداً... أرجو أن تراجعنا في المكتب... مع السلامة - يتغير صوته: مشغول جداً... بعد نصف ساعة هاتفيني على رقم السيارة.

صوت ناعم يتداخل مع صوته:

- السهرة في نفس المكان؟

من بعيد يجيب عليها صوت أكثر امتلاءً:

- نعم في نفس المكان. أتمنى أن تكوني موجودة... لا تنسي.

صوت محدّثي يتهلّل فيغطّي على الأصوات الأخرى:

- هلا يا طويل العمر. رقم الشيخ... أبشر... أبشر.

فجأةً وضع السماعة دون أن يكمل معي اللحظة المنتظرة.

مكالمة

"مكالمتك لا تتم حسب الطريقة التي استعملتها. فضلاً تأكّد من الرقم الصحيح وشكراً... يو...".

مكالمة

- ألو... منزل حاتم؟

يأتي الصوت ممتشقاً لهجةً عربية محبّبة:

- لا يا ستاذ... تابقالة.

- ممكن نتحدث قليلاً؟

- عن مه؟!

- عن الوحدة.
- أنا ما شجّع كورة.
- لا يا حبيبي... أقصد عن الغربة.
جاء صوته حازماً:
- أقلك تا بقالة... مع السلامة.

مكالمة

صرخت مراراً: ألو... ألو... منزل السيد حاتم؟
صوت امرأة عجوز ينبئ أنها لم تسمع... يصلني صوتها متقطعاً:
- يا ولدي بعملك ذا تخرب بيوت عامرة... روح الله يستر عليك.
تأسرني بصوتها الحاني. قررت أن أحدّثها عن حزني فرفعت صوتي مضاعفاً:
- يا أمي أنا عبد الواحد... أبغي السيد...
جاء صوتها متلهفاً ومحروقاً:
- عبده! كيف حالك يا ابني؟
و"انبثت" حديثاً مجروحاً:
- كذا يا قليل الأصل تتركني لهم كل يوم يكسروا بخاطري وكأنني لست أمك... في كل صلاة أدعو لك بالتوفيق لكن أنت ما تستاهل...
وانخرطت تجهش بالبكاء، وإذا بي في حزن إضافي... لعنت كل الأبناء في نفسي...
هل أتركها تبكي وأنهي المكالمة؟... ما ذنب هذه العجوز التي لم تعد تميّز صوت ابنها؟... هاهي أم منكسرة تفجّر حزني وتقذف بي في وحدتها...
صوتها لا يزال يضجّ بالبكاء. حاولت أن أضفي على صوتي كثيراً من الحب فرفعت صوتي عالياً:
- ليس هناك ابن ينسى أمه... يا خاله.
أشعلتها فخرجت كلماتها محمومة، منكسرة:
- خالة! كثر الله خيرك. حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل...

روح تلاقي عملك قدامك وأنا لي ربّ اسمه الكريم.
ارتطمت السماعة بعنف. ظللت زمناً طويلاً ممسكاً بالخط علّ أحداً يرفع السماعة فأُفهمه الأمر وأعتذر لتلك السيدة.
انتظرت... انتظرت... ا.. ن.. ت.. ظ.. ر.. ت.
ولا أحد... يا للمسكينة!
حاولت أن أتذكّر الرقم الذي اتّصلت به لأعاود الاتصال إلا أنني عجزت. ركّزت كثيراً وأعدت المحاولة...

مكالمة

"عفواً. إن الرقم الذي طلبته غير موجود بالخدمة مؤقتاً. شكراً. وي سو...".
ركّزت مرة أخرى واتّصلت... وصلني صوت طفل. سألته إن كانت له جدة فضحك وارتفع صوته يحدّث شخصاً ما:
– أحد يسأل عن جدتي.
سمعت رجلاً يحدّثني بحزم:
– نعم!
– عفواً سيدي. أنا أتصلت برقم ولا أذكره. حدثتني سيدة كبيرة وأشعر أنني أخطأت في حقها، لذلك أردت أن أعتذر لها وأصحّح...
قاطعني بتذمر:
– ليس لدينا عجائز والحمد لله! وبعدين غلطت علينا باتصالك هذا.
– آسف... آسف ولكن...
ارتطمت السماعة وقبلها خرجت كلمة بذيئة جرحتني.
ركّزت مرة أخرى واتّصلت. ردّت امرأة، فسألتها عن المرأة العجوز. ضحكت:
– ألا تغازل إلاّ العجائز؟... انتظر حتى تردّ عليك أمي مرة أخرى.
وضحكت بعنف وأقفلت السماعة.
ركّزت واتّصلت. ردّ رجل وقبل أن أفاتحه بالموضوع أخبرني أن الرقم الذي اتصلت به هو لدائرة حكومية.

ركّزت... اتّصلت... ركّزت... اتّصلت... اتّصلت... ا.. ت.. ص.. ل.. ت... ولا أثر للسيدة العجوز.

***

قررت أن أخرج لأختار قبري.

أضمّ أحزاني النافرة وأدلف إلى مقهى تناثرت بداخله الأجساد والدخان المتصاعد. ألقيت بجسدي على طاولة يشاركني فيها شاب يفيض وجهه بابتسامةٍ مشتتة.

أقبل النادل يحمل أوانيه بيد وبالأخرى "حجر" خَبَتْ ناره وتطاير رماده.

- كأس شاي.

رمقني من الأسفل ومضى. أدخلت يدي في جيبي وأخرجت سيجارة أشعلتها على مهل وسحبت نفساً عميقاً واسترخيت بتلذذ.

جاء النادل ووضع كأساً من الشاي أمامي ومضى.

كان فم الذي يحاورني يدفع دخاناً كثيفاً وعيناه تنسلاّن من بين سحب الدخان في حيرة. رشفت من كأسي ومسحت فمي بطرف يدي. تنحنحت وأصلحت جلستي بحيث أصبحت في مواجهة وجهه:

- هل يضيرك أن أتحدث معك؟

قفزت من فمه ابتسامة حلوة وظلت عيناه تتأملانني بتمهّل، فلم أترك له الخيار وتحدثت... تحدثت طويلاً، وهو يصغي إلي... كنت ألمح وجهه فارغاً من أي تعبير.

وعندما بكيت انكفأ عليّ يربّت على كتفي.

رفعت رأسي باتجاهه فلمحت نزلاء المقهى يتجمّعون حولنا في نصف دائرة وعيناه تتنقلان بيني وبين وجوههم الضاحكة بحزن.

كفكفت دموعي واستويت في جلستي وعدت أتحدث. كانت أصواتهم وضحكاتهم تصلني فتدمّر ما تبقّى في داخلي. قلت لجليسي:

- انظر، حتى الحزن أصبح مدعاةً للضحك!

أطبق عينيه وتأوّه بحسرة وأطلق إشارات من يده... بدأها من وقت مبكر. هممت أن أواصل حديثي معه حين وقف النادل على رأسي وانحنى حتى لامست شفتاه أذني:

- جليسك أبكم!

اهتززت بعنف ووقفت. مستمعي لا يزال يعلّق ابتسامته المشتتة ومن هم حولنا بدأوا يقذفونني بالحصى. اخترقتهم مسرعاً وأخذت أركض والحصى والضحكات الساخرة تتبعني. تلفتّ... لا أحد!

لم يتبقّ شيء سوى أن أتهيّأ للموت...

قررت أن أخرج لاختبار قبري...

أتطلّع حولي، أجد نفسي وحيداً... يلفّني هذا الليل، يعصرني، فأتساقط... أتسلل إلى فراشي وأتدثّر بالنوم... رأيت في ما يرى النائم:

أنهم يسفكون دمي فيسيل مدراراً، ويأتون من كل فجّ ليغرسوا جذورهم في دمي فتنمو قاماتهم صوب السماء، وأنا أنحني وأموت.

فززت مفزوعاً ووجدت نفسي وحيداً ولا أحد يسترني بقلبه... ليس هناك أبعد من هذا الصباح!

تطلعت إلى ساعتي، لمحتها تمضغ النصف الأخير من الليل. ارتديت ثيابي وخرجت.

نورٌ سافر يستحلّ محاجري فلا أرى. أسمع صوتاً ينادي:

- يا ولد... يا ولد...

وقفت وسترت عينَيّ بيدي. حين نزل من سيارته واقترب مني مخبّئاً يده في جيبي وأطلق لسانه: إلى أين؟!

- أصابني الأرق فخرجت أبحث عمّن يشاطرني الحديث في هذا الليل... حتى الصباح لا أجد أحداً.

قال متهكماً: ما رأيك أن تصحبنا لنتحدث طويلاً.

كان فمي يابساً فتنحنحت بصعوبة.

- أفضّل أن أعود إلى منزلي.

استحثني آمراً: هيا...

عدت أسرع الخطى نحو داري وهو يرقبني بابتسامةٍ مقززة.

قررت أن أخرج لأختار قبري...

وقفنا في صفٍّ طويل ينتهي بغرفة ضيقة يجلس فيها رجل اخترق الصلع رأسه،

مخلفاً رافدين من الشعر الأبيض اللامع، له عينان لوزيتان تتحركان بعجلة من خلف نظارة سميكة، استقرّت على فمه لحظة عابسة ولم تبرح، يتناول الأوراق بتأفف مستفيض... يضغط على الكلمات بملل:

– فقد هوية؟

– نعم فقد هوية.

– وأنت؟

– فقد رخصة قيادة.

– جواز سفر، شهادة ميلاد، استمارة سيارة، حق ملكية، تعديل اسم. وأنت؟

ارتبكت قليلاً وبتلعثم:

– أكمل للإخوان وسأحدثك عندما تنتهي.

تطلّع إلي بعد أن رفع نظارته قليلاً وبحركة مصطنعة:

– تحدثني أنا؟

– نعم نعم، أنت.

طفحت على ملامحه ابتسامة فعكّرت وجهه وانكبّ يسجّل أسماءً وأرقاماً.

الصمت يغلّفنا والوجوه تحدث في الفراغ. تسري بيننا موجة من السكون والملل. فجأةً نما صوت متذمّر:

– هذه الأوراق تسلبك وجودك فمتى ما ضاعت عليك أن تضيع معها.

تنحنح كاتب الإعلانات من خلف مكتبه ورمق المتحدث باستخفاف.

– متى تواكبون الحضارة؟... ألا تعلم أن النظام روح الحياة الحضارية.

– وهل مفهوم الحضارة أن يصبح الإنسان رقماً؟!

– فعلاً أنت رقم؛ فالرقم هو سيد الأشياء لذلك.

توقّف عن الحديث عندما لمح رجلاً يتطلّع إليه من خلال نافذة الغرفة، وانهمك في الكتابة دون أن يكمل حديثه، بينما واصل الرجل تذمّره:

– أنا أعلم أن حياتنا أصبحت مجموعة من الأرقام. أما مشاعرنا وظروفنا فعلينا أن ندخلها في رقم ما ونعيش بداخله والويل إن سقطنا منه.

تركه رجل الإعلانات يتحدث كما شاء وغاص في صمته، والبقية ظلت تنظر إلى غضبه وتُحفّزه على أن يكمل.

بقينا وحيدين... تجاهلني طويلاً... تنحنحت... ركلت طاولة تجاورني... رفعت صوتي:

- أرغب في نشر هذا الإعلان.

عقّب مستخفاً:

- وهل نشر إعلان يحتاج أن نبقى وحيدين؟

- لأنه غريب.

مطّ فمه بضحكة طويلة قبيحة.

- وهل تريدني أن أرافقه كدليل سياحي؟!

أخذ كرشه يعلو ويهبط وهو لا يزال غارقاً في ضحكته الطويلة... يكتمها قليلاً ويواصل سخريته:

- أو... ربما تريدني أن أتنزّه به في الأماكن السياحية أو أن أدلّه على أقرب فندق.

رفعت صوتي محتداً:

- أرجوك!

ودفعت إليه ورقة كتبت فيها صيغة الإعلان الذي أرغب في نشره. تناولها وهو لا يزال يمسح دموع ضحكته الطويلة، قرأها فاتّسعت عيناه اللوزيتان بالدهشة ثم اتّسعت دائرة فمه حتى أطبق عليّ بضحكة شاهقة فبدا أكثر قبحاً.

قذفت له بالنقود وخرجت مسرعاً وضحكته تتبعني...

***

الساعة الواحدة ظهراً تخرج متأبطاً يومك الحزين، والشمس تثرثر بشكل عمودي، وأنت تستظلّ بأحلام غضّة تمزّقها أصوات العربات وبعض الوجوه التي تتربّص بك خلسةً وتتابع سيرَها.

قدماك فقط تواصلان حكايتهما مع الشارع الطويل. عيناك تتصفحان مئات اللافتات الغذائية والعقارية والإرشادية والتحذيرية. تسرّ لقدميك أن تواصلا السير فقد يسعفك الحظ في أن تنكت لنفسك وترافقها الطريق.

دخلت إحدى المكتبات ونقدت صاحبها ريالاً وتناولت الجريدة التي خرجت

من أجلها. تصفّحت الصفحة الأولى منها... كان إعلانٌ بخطٍّ عريض يستلقي في الربع الأيسر منها، قرأته بتلهّف:

"يرغب السيد عبد الواحد كثير باستئجار شخص وظيفته الأساسية الاستماع وأن يتفاعل مع ما يسمع. فعلى من يجد في نفسه الكفاءة التوجّه إلى العنوان التالي: شارع الميناء، المنزل رقم ٧، عبد الواحد كثير."

تأكّدت من خلو الإعلان من الأخطاء، طويت الجريدة بعناية ووضعتها تحت إبطي وتوجّهت إلى البيت.

قُرع الباب بانتظام... تحركت بتكاسل... سحبت المزلاج فانفرج الباب عن رجل ينتهي برأس مستطيل له عينان يتقافز منهما المكر، وتحت إبطه استقرت مجموعة من الأوراق والجرائد، يمسك بيده مظروفاً لم أتبيّن محتواه. مررت بعيني على جسده الجبلي بذهول... اقتحمني صوته:

– السيد عبد الواحد موجود؟

– موجود. هلا، هلا بيك... يا هلا.

تشاغل بنقل المظروف إلى اليد الأخرى، بحذر، ومدّ يده تحت إبطه وسحب جريدة متآكلة بعض الشيء.

– جئت من أجل هذا الإعلان.

تذكرت أنني قمت بنشر ذلك الإعلان، وعندما أرّقني طويلاً ولم يزرني أحد بشأنه نسيته وظللت ألوك أسئلتي على مهل.

كانت يده لا تزال تشير إلى الإعلان وعيناه تجوبان وجهي وأنحاء البيت، ففتحت له الباب ووجهي ودفعته بلطف إلى الداخل مُرحّباً. مدّ قدميه الضخمتين إلى داخل البيت فكان لوقعهما صوتٌ مرتفع. تسمّرت عيناي على حذائه السميك الذي لا يتناسب مع بزته... جسمه المتماسك وهيئته الجبلية ينبئان أنه يمارس مهنةً جسدية.

شعر بي أتأمّله فاستدار ليواجهني.

– أنا مثلك أشعر بحاجة ملحة لتبادل الحديث، فأنا أعيش في إهمال من قبل الكل، لذلك ستجدني أؤدي مهمتي بكل إنسانية، ولا تهتم للمبلغ الذي سأتقاضاه نظير سماعي إليك، لن نختلف... هه، هل نبدأ؟

– سنتحدث طويلاً. تفضل... تفضل.

اختار كرسياً رجراجاً وألقى بجسده بتثاقل وشبّك بين أصابعه وترك ابتسامةً ضعيفةً متهالكة تنزّ من بين شفتيه. عيناه كعقرب بوصلة فقدت الاتجاهات فظلت تدور دون هدى... فجأةً توقفت عن دورانها وغرسها في وجهي.

– ما الذي دفعك إلى هذه الوسيلة؟

– حينما تصبح في العراء يصبح كل شيء لباسك. الإنسان اجتماعي بفطرته، وحين تصبح حياته كابوساً صامتاً يتساقط ويتهدّم ويردم. مشكلتي أنني أشعر أنني غريب، بل يتضخّم هذا الشعور لدرجة أن أرتاب وأبدأ "أهوجس" بأن هذه الغربة شراك يدفعني إليها الجميع ويتآمرون علي.

– يتآمرون عليك! من وكيف؟

– لا أدري. في البدء أقنعت نفسي بأنني رجل "جلف" فقررت أن أكون ليناً حدّ الخضوع، فصعّرت خدي... إلا أن وحدتي اتّسعت.

– لا بدّ أن مقبرة صدرك تضم سراً عظيماً.

– وأي سرّ أكبر من أن يصبح الإنسان رصيفاً ثالثاً تسير عليه الأقدام والقاذورات بلا اكتراث... أشعر أنني تيبست ولم أعد صالحاً للحياة. فهذا الزمن لم يُبقِ لنا شيئاً نلهو به سوى أنفسنا، وها نحن نسابق كل شيء ببلادة ونستعجل كل شيء، حتى أعمارنا نحثّها أن تركض وتركض حتى تبلغ حدود الكفن... عندها نرتمي ككلاب وافتها المنية ضرباً بالرصاص، ولم تسعفها قوائمها أن تبلغ أبعد من رؤية الصياد. كلنا الآن خلف عين الصياد، قد تستقر الرصاصة فنسقط أو نواصل الركض لنموت في أحد المنعرجات ولا أحد يعلم بنا. تتورّم أجسادنا وتنبعث منها رائحة نتنة تقود كلاباً أخرى لتتسامر علينا تمضغنا في سكون الليل وتعوي.

شعرت أنني في حاجة للبكاء فدفنت رأسي بين راحتي وبكيت. نهض عن كرسيه بانفعال.

– لا وقت للبكاء. أكمل!

– الجرح عندما ينزف كثيراً يقود إلى الموت.

– عندما يصبح الدم فاسداً يستوجب إراقته... هيا ادلق غلّك الأسود كاملاً. أنت تحقد على أناس معينين، أخبرني من هم... هيا تحدث.

كدت أن أصفعه، وحين تذكرت ضعفي وجسمه الجبلي أحجمت عن رغبتي

وهببت فيه صارخاً:

– الحقد أن تتركهم يركضون نحو حفرة الموت.

قفز بتلذذ:

– أي حفرة، ومن أعدّها؟... ألم أقل إنك تعرف أموراً كثيرة.

– يبدو أن لك باعاً طويلاً في الغباء! ألا ترى أن هذا التصدّع هو بداية التهدّم... بداية أن تسير بجثمانك ولا تجد له قبراً.

– اعتبرني غبياً جداً واشرح كل ما بداخلك بالتفصيل... كيف ولماذا وأين ومتى... كل شيء، حتى تفاصيل حلمك.

– ألا تلاحظ أنك أصبحت تتآمر؟

– وماذا في ذلك؟

– !!!!!!!!!!!!!

تركته وعيناه تتطلعان فيّ بوقاحة وتوجّهت إلى غرفة مجاورة وأخرجت من جيب ثوبي المعلّق مبلغاً من المال وعدت إليه. كان يتحدث في الهاتف بصوتٍ خفيض. كدت أسقط حين سمعته يكمل جملته وأنا أفتح باب منزلي الخارجي وأعدو إلى الشارع... أعدو إلى الشارع... أعدو بكل قوة وصوته يلحّ من خلفي:

– توقّف...

تطلّعت باتجاهه، كانت يده منشغلةً بالمظروف، أخرج منها بندقية الصياد وأخذ يركض بهمة. ركضت بكل ما أستطيع من قوة، وعيناي تتلفتان في الطرقات... لا أحد بجواري والصوت يتبعني وأنا ألهث.

أصبح لزاماً تلبية دعوة تلك اليد الصغيرة التي نمت براحتيها ستة أصابع، فلم يعد هناك شيء سوى أن أتهيّأ للموت.

نعم أصبح...

قررت...

قرر...

قر...

ق...

١٤٠٧/٨/١٥هـ

النواة

أخذ يتشمّم فمي بارتياب، ففتحت فمي حتى بدتْ لوزتاي كحذاءٍ عتيق متقطّع. أبعد أنفه، ذا الحساسية المفرطة، متأففاً:

- لفمك رائحة نتنة!

ودفعني محذّراً من أن يراني في دورته القادمة... جمعت خطواتي وتحركت.

يغدو الليل مقبرةً عندما تكون وحيداً.

أبي كان حارساً ليلياً وظلّ كذلك حتى سكنه الليل فمات. أذكر أنه حينما كان يحتضر قرّبني إليه وهمس بصوتٍ محروق:

- إياك وصحبة الليل!

وهاأنذا كأحد الجرذان المختبئة بين الشقوق، ما إن يهطل الليل على أسطح مدينتنا حتى أبعثر خطواتي المتعثرة في الأزقة ليطاردني عواء الكلاب والأضواء الكاشفة وذكريات بالية.

المرأة تصبح داءً خبيثاً حين تحرقك وتمضي.

في منتصف الليل كنت أقتعد آخر الشارع وعيناي مسمرتان هناك، وعندما يتدلى رأسها كنجمة من فتحة البابِ أنفض غبار الانتظار وأمضي نحوها.

كل ليلة كنت أقول لها: أُحبّكِ.

فتتقافز غمازتان على خديها بنشوة وتغلق الباب وأعود أدراجي إلى منزلنا أضمّ وجهها وفرحي.

اليوم لم تعد هنا... تركتني مسماراً يتدلى من عنق الليل حتى يسقط.

مضت سبع ليالٍ على رحيل أمي؛ ذلك الركن الذي أنزوي فيه حين تعوي الكلاب في وجهي.

لا يزال البيت ندياً برائحتها، وسجّادتها المعلّقة على الحائط تذكّرني بأنني لم

أصلٌ منذ أمد طويل.

اختارتْ أن تفارقني وأنا نائم كي لا تؤذيني وهي تحتضر. استيقظت مع الليل فوجدتها متيبّسة. هززتها... صرخت بها... قبّلت قدمها أن تستيقظ...

في الصباح حملوها من أمامي، فأغلقت الباب ولم أرافقهم لوداعها. هِمتُ في الشوارع. الأطفال الذاهبون إلى مدارسهم يدفعون النعاس المتساقط في عيونهم بحثّ الخطى. طفلة صغيرة هرب شعرها من شريطتها البيضاء فبكت. اقتربتُ منها وجدلتُ جديلتها وأعدتُ وثاق شعرها على شكل وردة. تبسّمت في وجهي ومضت.

كل شيء يمضي وأنا كجمل يدور في دائرة واحدة ولا يعرف إلا الظلام.

تقول أمي إنها وضعتني في الليل حين كان أبي في جولته الليلية. لم يكن بجوارها سوى أنينها وألم المخاض، وحين انزلقت كنت صامتاً فخشيت أنني متّ أثناء الخروج، قلبتني لتجدني محاطاً بغشاء رقيق ما إن هتكته حتى انفجرتُ باكياً.

وتقول أيضاً إنها حلمت قبل مولدي بأنها وضعت غراباً أسود ميتاً، تكالب عليه الدود ونهشه ولم يبقَ منه إلا ريشه الأسود. وتضيف أنها رأت، في ما يرى النائم، أنها قامت وجمعت الريش المتطاير وأحرقته، فخرجتُ من بين الرماد شاحباً فاقداً للنطق، فأصبحت لا تسمع مني إلا زفراتي المحروقة.

وكلما تذاكرنا هذا الحلم تحوطني بأسماء الله الحسنى من كل حسود، فأنثر ضحكتي في وجهها:

– من يحسد الرماد يا أماه؟

فتسمّي بالله وتضمّني إلى صدرها وهي تنثر الأدعية حول رأسي وتهمس بلين:

– أنت تريد وهو يريد والله يفعل ما يريد.

فأهرب من ذراعيها صوب حزني.

مع حلول أذان المغرب أخرج حاملاً شنطتي الممزقة وأتجه مباشرةً إلى مدرستي الليلية، وأبي يحمل عصاه الغليظة وصفّارته المتعبة التي لم تعد قادرة على الصراخ ويجوب الأزقّة. وعندما يصبح غير قادر على أن يتلمّس طريقه يركن إلى أحد الشوارع ويظل قابعاً إلى الصباح تاركاً الكلاب تسرح في كل مكان بعواء متقطّع.

في مدرستي الليلية أظلّ وحيداً. الكل يكبرني وسنّي الصغيرة تمنح الآخرين أن يهمّوا بي.

في طريق العودة أظلّ أتلفّت في كل الاتجاهات حتى أبلغ منزلنا بعد أن أكون قد وزّعت خوفي في كل مكان.

كنت أخشى الظلام فأتحرّك إلى مدرستي قبل أن يهطل الليل، وفي العادة أظلّ أردّد آيات كثيرة حفّظتني إياها والدتي.

في العصر أجوب ملاعب الحواري وأبيع توتاً أو ماءً بارداً، وما إن يقترب الشفق من الاحمراء حتى أقفل عائداً... أضع في يد والدتي ثمن ما بعته وأحمل شنطتي وأتّجه إلى المدرسة.

غالباً ما أكون أول من يصل، وغالباً ما يصل بعدي. أجلس في ركن الفصل صامتاً، وهو ينهب وجهي بلذة تحيلني موجةً من الارتعاد.

كان لونه يميل إلى السمرة الغامضة، وشاربه غادر مكانه حتى بلغ أسفل ذقنه، عيناه محمرّتان دائماً وكرشه هربت من ثوبه حتى بدا كالحوامل.

اقترب مني ووضع يده على خدي برفق:

– هل أنت يتيم؟

تساقطت أدمعي فجأةً، وكمن يستعطفه هززت رأسي بعنف مؤمّناً على قوله، فدسّ في جيبي ريالاً كاملاً ومسح على رأسي برفق. تحدث كثيراً ثم سحبني من يدي:

– السبورة تحتاج إلى مسح.

ورفعني بمستوى منخفض، وما إن أشرعت بمسح السبورة حتى أحسست بشيء متوتر يلامس مؤخرتي، فجفلتُ. ضربته بالمساحة على وجهه فسقطت من بين يديه وخرجت أعدو ولم أعد إلى الدراسة منذ ذلك اليوم.

هذا هو اليوم السابع على رحيل والدتي وأنا أهيم في الأزقة وبين المقاهي. عندما عدت إلى دارنا استقبلني، أحد الجيران غاضباً:

– حتى أمك، يا قليل الحيا، لم تودّعها... لقد احترنا يوم دفنها فيمن ينزل معها القبر ويلحدها!

نظرت إليه بلا اكتراث وواصلت سيري.

أظنه ضرب كفاً بكفّ. كان صوته الوحيد الذي تبعني:

– الله يجيرنا من أبناء هذا الزمن!

أدرت المفتاح في أكرة الباب ودخلت... هاهي تجلس في كل مكان وصوتها

ورائحتها يطاردانني... ثوبها لا يزال منشوراً على حبل الغسيل... أمسكت به أتشمّمه وأجهشت ببكاءٍ حارق.

كفكفت دموعي وهاجسٌ مرعب يعبر مخيّلتي: "ماذا يعني أن تحيا بلا عمل أو حب... أيها البيت الخرب أخمد وحشتك بالموت!".

ارتعدت ونهضت مرعوباً أجوب غرفتي.

ها أنا والليل وحيدان ومقبرته تضيق فلا يتبقّى مني إلا أنفاس حارة تذود ضيق الحياة. كل شيء يمضي وأنا أدور كأسطوانة والزمن المكسور يخدشني فتخرج أغنيتي نشازاً.

الليل يوغل في داخلي وأنا أوغل في الحزن... انتشلت جسدي وعبرت الأزقة هائماً. نور السيارة العالي يخطف بصري وصوت يأمرني أن أتوقف.

خرج من سيارته وأمرني أن أفتح فمي. أخذ يتشمّم فمي بارتياب:

- لفمك رائحة نتنة!

ودفعني آمراً:

- إياك أن أراك في دورتي القادمة.

جمعت خطواتي وعدت إلى البيت... لا يزال البيت ندياً برائحتها، وسجّادتها المعلّقة على الحائط تذكّرني بأنني لم أصلِّ منذ أمد طويل.

مددت يدي إلى سجادتها وفرشتها وكبّرت بلاً وضوء... وبكيت.

جدة ٤/١١/١٤٠٨هـ

حالة إصغاء

للتو عدت بعد زمنٍ طويل من الانحناءات والاسترحام.

كل تلك الوجوهِ التي أحنيت جبهتي أمامها تصكّ على قامتي.

– آسفون... لا يوجد لك مكان.

كان آخر تلك الوجوه وجهٌ يسيل صلفاً. استغللتُ غياب الحاجب وقرعت الباب قرعاً خفيفاً ودخلت. كانت قدماي الرثّتان قد التهمتا نصف السجّاد اللامع. حييته فلم يردّ. اقتربت أكثر ومددت له يدي فأهملني، تشاغل بأوراق بين يديه وبصوتٍ بارد فاجأني:

– مَن سمح لك بالدخول؟

غرقت في صمتي وأخذت أعبث بأناملي وداخلي، وعيناي تركضان في وجهه اللامع بلا هدى. أخرجني من حيرتي بصوته المتعالي الآمر:

– اخرج!

وخزتني كلمته. ارتبكت قليلاً واستدرت خارجاً بعد أن سمحت لقدميّ الرثتين أن تلتهما أماكن أخرى من ذلك السجاد. فتحت الباب وصفقته خلفي بعنف.

ظللت منتظراً أن يُسمح لي بالدخول – إلى ما بعد الظهر – وعندما يئست تسللت إليه مرةً أخرى، وحين رآني صرخ باستنكار:

– أنت أيضاً؟!

انكسرت أمامه، وبتلعثم أجبتُ:

– نعم سيدي.

خطوت نحوه ومددت له أوراقي. مرّت عيناه الضيقتان عليها بملل. رفع رأسه باتجاهي، تصفّح ملامحي باستهزاء، وقذف ملفي بجوار قامتي المنكسرة.

– لا أريد رؤية وجهك مرةً أخرى.

- لكن يا سيدي!...

رفع صوته متأففاً ويده تقافزت في وجهي:

- ألم تسمع؟ قلت لك اخرج!

انحنيت وحملت أوراقي، بعد أن بصقت على ذلك السجّاد اللمع، وخرجت من مكتبه لاعناً.

ها أنا كالحزن القديم مقذوفاً في قلب هذه الغرفة لا أبرحها إلا نادراً. أظل قابعاً فيها كجدارٍ خامس. أمضغ الصمت ويمضغني.

لم يعد متبقياً أمامي إلا الانتظار... انتظار ماذا؟! لا أدري، فلا شيء يحرك هذا الركود!

جلست أحشو صدري بالدخان والهواجس حتى غدا صدري خلاءً موحشاً أسكب فيه غصّاتي وهذا السكون المرعب.

ارتابت والدتي من مكوثي الطويل حتى تعوّدت أن ألمح عينيها تتربّصان بي من ثقب الباب. في البدء كانت تقرع الباب فلا أجيب، فأسمعها:

- سوف تجنّ يا يوسف إذا لم تخرج من وحدتك.

- ....

- يا بني صلِّ على النبي... الناس بالناس والكل بالله!

- ....

- اسعَ يا عبدي وأنا أسعى معاك.

أهرب من صوتها، أُشرع نافذةً تطلّ على الشارع الخلفي فألمح المباني تنمو في وجهي لأضمر حتى أوشك أن أصبح عقب سيجارة تالفاً. يحاصرني الهواء الملوث فأشعر بالاختناق. أغلق نافذتي بشدة وأعاود اجترار الدخان لأتنفّس قليلاً وأبدأ في ملاحقة الصمت.

عندما شعرت أنني أوشكت أن أمضغ ما تبقّى من عقلي قررت أن أخرج... إلى أين؟! لا أدري... فقط أن أخرج.

في الشوارع الفسيحة الممتدة تسير العربات والقامات في عجل، وما إن تحطّ على إحدى تلك العيون حتى تبصقك بلا اكتراث.

حملت خطواتي الذابلة ودسست جسدي في أحد الأزقة الملتوية حتى أسلمني

لمقهى يفور بالأجساد المتعبة والدخان المتصاعد والهمهمات الخفيضة، وما إن رآني حتى نهض عن كرسيه وأجلسني بجواره وأحاطني بصوته المتوسل.

– قل لهم يا حسن... قل لهم أن لا يفصلوني... بربك أخبرهم بأنني في هذه السنّ لم أعد قادراً على شيء سوى حمل لعناتهم... سأقبل بها وسأقبّل أحذيتهم أيضاً إن أرادوا... فقط يتركونني أواصل دبيبي... لقد ساروا على كل عمري، فليكملوا ما تبقّى... بربك أخبرهم أن خلف دبيبي أفواهاً فاغرة.

ابتلعت ريقي مراراً وأنا أتطلع إليه بحزن. تمتمت بصوتٍ مرتعش:

– لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً... سيدي.

انقلبت سحنته واشتعل لسانه:

– أيها الوغد... لقد أنفقت كل وقتي في انتظارك على أمل أن تتوسط لي، ولكن أنتم هكذا، حين تكونون في حاجة تظلّون مرخين جباهكم كذيول الكلاب، ومتى استكفيتم ارتفع نباحكم.

استوقفته بإشارة من يدي، وعندما همّ أن يواصل صرخت به:

– كفى... كفى أرجوك.

طوّح بيده في وجهي وأكمل محتداً:

– لا داعي للرجاء، وإذا لم تكن قادراً على شيء فلا أظنك غير قادر على تسديد دينك... عليك أن تعيد الآن المبلغ الذي اقترضته مني ليلة البارحة، ولن أسمح بغير الآن.

ملأت الدهشة عينَيّ ففتحتهما بسعة:

– أي مبلغ هذا الذي تتحدث عنه؟!

ضرب الطاولة بعنف وهبّ واقفاً:

– أونسيت هذا أيضاً؟!

تململت في كرسيّي قليلاً. عصرت جبهتي بشدة:

– أوه، عفواً – أيها العزيز – لم أنسَ... أذكره جيداً... لقد أقرضتني إياه حينما كنا نلعب "الديمينو" في هذا المقهى.

– لا. أنت تنسى كثيراً أيها الصديق. لقد أعطيتك إياه في مكان آخر.

– لا عليك. ليس مهمّاً المكان. أذكر أنّ لك عندي مبلغاً من المال وكفى.

هممت بالنهوض حين أمسكني بلطف وأعادني إلى كرسيّي:

- لا تغضب أيها العزيز، فما دمت تذكره فلا بأس أن نتحدث قليلاً، هه... لا بأس.

احتلّ وجهي بابتسامته الكبيرة. ناولني كأس الشاي وارتفعت يده تهدهد علي. أغرقت شفتي في كأس الشاي وعيناي ما زالتا تراقبانه بارتياب.

رجل أربعيني تدلّت من جبهته جروح غائرة، عيناه تتموجان بصفرة حادة وفمه غادره كل شيء إلاّ الأنين. أشار بيده فأطلقت عيني خلف إشارته... لم ألمح أي شيء، فالشارع خاوٍ إلاّ من حمار وقف في آخره، يشمشم بوله ويرفع رأسه بنهيق متقطع. وعندما أعدت عيني إلى وجهه كان يتبسم... ابتلع ابتسامته بعجل... رفع غترته بشماله وتنحنح:

- لم تسألني لماذا أقالوني؟

- ....

- ما بك أيها الصديق... أما زلت غاضباً، أم أنك لا ترغب في الحديث معي؟

انتشلني من دهشتي فأردفت:

- لا، لا أبداً. فعلاً، لماذا أقالوك؟

سكب في جوفه كأس الشاي وصبّ كأساً أخرى وسحب نفساً عميقاً وأطلق الدخان أمامه بكثافة وأصلح من جلسته حتى أصبح في وجهي مباشرة.

- يقولون إني زائد.

وأطلق ضحكةً مرتفعة جافة أخذت تتلاشى حتى أوشكت أن تودي به. علق بصره في وجهي وبصوتٍ متهدّج تابع:

- وأبنائي، في نظرك، أليسوا زائدين عن حاجتي؟ ونحن ككل ألسنا زوائد في هذه الحياة؟ يالهم من خبثاء، لم يتركوا الموت يقلّمنا... لقد سبقوه! إنهم يجيدون تقليم الأغصان الصغيرة. إدارتنا تضجّ بالمديرين الزائدين. لكل عاملين مدير واحد... أليست هذه زيادة أيضاً؟

يقولون لنا: إنهم يؤدون خدمة للحياة بإقالتنا... تعرف لماذا؟... فقط لأن الموت تأخر علينا قليلاً فلا بأس أن يقوموا بنفس الدور. أما أطفالنا فعليهم أن يخلقوا الحياة بعرقهم... هكذا.

تصوّر خمسمائة عامل دفعة أولى، وجدنا أنفسنا في الشارع، لم نستطع أن نقول شيئاً. فقط أنا الوحيد الذي نفخت صدري عالياً ودخلت إلى إسماعيل... أظنك لم تنسه بعد؛ ذلك الغبي الذي زاملنا في المرحلة الإعدادية. كان منفوخاً كمخدّات المستشفيات الراقية ما إن اتكأت عليه بعجزي حتى أناخ:

– لا أستطيع أن أعمل شيئاً من أجلك... كما قلت أنت قبل قليل. رجوته كثيراً. ذكّرته بصداقتنا الطويلة. كان يهز كتفيه غير مبالٍ بدموعي. لا أدري لماذا تماديت في شتمه حتى أوشكت أن أضربه... حينها أمر بطردي فخرجت أجرّ تعبي ولعناتي على كل شيء.

علمت مؤخراً أن ذلك الكلب اللعين – إسماعيل – كان وراء تسريحنا ليبدي لمديريه حرصه على أموال الإدارة... أما نحن فلنذهب إلى الجحيم!

ملأ صدره بالدخان وضغطه للداخل حتى تشبّعت خلاياه وأطلقه بحرقة:

– نحن الوحيدون الذين نسير باندفاع طاغٍ نحو الهاوية. آه، آه... سأحرقك بهمومي إن أنا اشتعلت، لذلك سوف أدع جروحي بجواري وسأستمع إليك... هيا حدّثني عن أخبارك.

ملأت رئتي بالدخان وتطلّعت إليه. كانت بي رغبة في الحديث. مازال منتظراً أن أفتح فمي، تجوب عيناه وجهي بلهفة، وحين رآني أتهيأ للحديث حثّني مرة أخرى:

– هه... حدثني عن أخبارك.

– لا جديد، أيها الحبيب، فمازالت الوالدة تحمل الموت في أوصالها المتهدمة، وأنا أطارده بكل ما أستطيع... كل يوم أهشّه فيتغلغل في مكان آخر، وهي مازالت تئنّ مشفقةً عليّ. أنهزم أمام عينيها وألجأ إلى غرفتي فأجد الصمت ينتظرني، أجالسه ونتقاسم الهواجس نظل نمضغها إلى وقت متأخر من الليل، وقبل أن أنام أنكفئ على وجهي وأفرغ قوتي بألم وصمت.

وعندما أنهض أذرع أروقة الأماكن أبحث عن عمل يقينا مدّ أيدينا للناس. وأعود، يومياً، خاسئاً وأنا حسير، ليستقبلني صوتها الهارب من الموت بأنين متقطّع، فأخلّفه خلفي وأفصل ما بيني وبينه بإغلاق الباب بإحكام وأعاود مضغ ما تبقّى من قوتي.

الجديد، أيها الحبيب، أنني استطعت أن أخرج هذا المساء.

***

مكثنا لوقت طويل نرتشف الشاي ونتجاذب أطراف الحزن ونجترّ الدخان بنشوة. وقف على رأسينا النادل:

– عفواً... أريد إغلاق المقهى.

تحسست جيبي وظللت جالساً أتأمّل صديقي الذي أخذت يده تعبث بجيوبه. أخرجها لي جيباً جيباً – بيضاء من كل سوء – وتطلّع إلى بحيرة. خلعت ساعتي ووضعتها على الطاولة ونهضت حين استوقفني بيده:

– هه... متى ستعيد إليّ نقودي المقترضة؟

تلعثمت وهدهدت على كتفيه وأنا أبتسم:

– عندما نلتقي مرة أخرى.

منحته ظهري وخطوت. سمعت طرق نعليه يتبعني ويده تربت على كتفي من الخلف. استدرت نحوه بغضب... كان وجهه دامعاً:

– عفواً، سيدي، لا تظنّ بي الجنون. ما هو اسمك؟... فأنا لا أعرفك حقاً.

أرخيت رأسي بأسى:

– نعم أنت لا تعرفني، وأنا كذلك.

جدة ١٤٠٨/٣/٢٠هـ

الأوراق

الإهداء: إلى عبد الله باخشوين غريباً وبحاراً.

أعدو والهلع يتشجّر ويثمر في قمة رأسي فألمح الطرقات تضيق وتطول، فلا يبقى أمامي إلا الركض، فأركض وأركض والطرقات لا تنتهي.

وجهه الصامت ينفر من مخيلتي. تذكّر أن الحياة لن تمرّ بك مرةً أخرى كي لا تبتئس.

وكلما تذكرت أن الحياة لن تمرّ بي ثانيةً قبضت على قلبي وبكيت.

أبكي هذا العمر الذي قُذف في الوحل وأصبح لباساً موحلاً لا يعيد بياضه إلا ميلادٌ جديد.

فللحياة طعم القاذورات وللموت طعم الحياة!

أليس ظلماً أن تقيّد هذه الخطوة القصيرة بوثاق؟!... أكل هذه الأرض مصابة بالتيبّس ما إن تصلها حتى تطالبك بأن تريق دمك لكي تدور بك؟!...

وتظل تدور تسقي بدمك مركبتك المتّجهة بك للموت حتى إذا نضب وريدك حملتك للتراب القديم!

أجزم أن هذه الأرض كانت ماءً عذباً ومن أجسادنا جاءت اليابسة والملوحة... إننا نستظلّ بأحذية المارة!

مللت من قلع وزرع قامتي في المحطات البعيدة وتلك الموانئ التي تستقبلني باكتئاب وتلفظني على عتبة وجوه مقفلة لا أعرفها... فأمضي زمناً طويلاً أعالج أقفالها وأرحل وهي لا تزال مغلقة.

أين ألقاه؟!... سيرمّم خوفي ويضمّني قليلاً لا شك.

افترش جسده الضخم من وقتٍ مبكر... ظلّ زمناً طويلاً يقتات عمره وحيداً،

وحين استظلّ بامرأة اقتاتته بنهم وتركته كجذعٍ خاوٍ امتصّه الدود والريح فجلس في الطرقات شاحباً بائساً يجمع الأوراق من جدًيد.

هو أول "ريّس" عملت تحت إمرته، وعندما علم أنني موجة بحر أُلقيت على "شطّ" ناء جلس بجواري يزيح زبد السفر. وحين استرجعني البحر وقف يودّعني:

– تذكّر أن قلبي يستقبل الماء الميت!

بعدها تعوّد على إطلالتي المفاجئة... فعندما "أحطّ" رحالي يضحك بعمق:

– حين أرى "طير أبو قرقور" أعلم أنك هنا، فأتنفس ذكرياتك المرّة وأخرج للقياك.

أوه... هل لمح طائر أبو قرقور ليخرج لملاقاتي؟!

***

تعوّدت أن أجلس في هذا الركن المنزوي من المقهى، أمتصّ حرائقي وأبدّدها مع الدخان المتصاعد...

هاهو يومٌ عابسٌ جديد يتكرّر، أضحك في وجهه فيتكسّر في داخلي، فأحتزم بمقولتي: تذكّر أن الحياة لن تمرّ بك مرةً أخرى... كي لا تبتئس!

وها أنا أودّع الحياة بلا ضجر وهي تودّعني كقرية نبذت حاسبها بعد أن جفّ ماء بئره... تقذفه بشقف جرارها السوداء المحكمةً وتقفل عائدةً تضرب الدفّ لعمرٍّ غضّ قادم كي تزفّه للموت.

لم يعد أمامي شيء أواجه به هذه الأيام المتجهمة سوى الدخان أنفثه وأضحك... أضحك بحزم وبلادة، وبآلية مميتة أتمتم:

– تذكّر أن الحياة لن تمرّ مرةً أخرى...

أرددها بحزم وأتماسك قليلاً... وأضحك.

فجأةً وقف أمامي، كعادته. لم ألمحه منذ أمدٍ طويل، فبعد انقضاء عملنا في بناء تلك العمارة الشاهقة المطلة على البحر خرج يبحث عن عمل ولم يعد.

وقف أمامي لاهثاً، فنهضت وفردت ذراعي له... أهملني. صوته المرتبك العجول يستحثّني:

– خبّئني... إنهم يبحثون عني!

حشر جسده الناحل أسفل الكرسي الذي اقتعدته وصوته لا يزال متهيّجاً يأمرني بإلحاح أن أجلس. جلست وفردت ثوبي عليه، وواصلت نفث الدخان.

مجموعة من العساكر اقتربت منا... تطلعت في تلك الوجوه المتناثرة في المقهى وخرجت.

أنفاسه تصلني حارةً صاخبة فأتني رقبتي: أراه يجمع عظامه بين يديه ويرتعد وعيناه من أسفل الكرسي تتقافزان بهلع... لم يبقَ منه إلا صوته الواهن.

– هل غادروا المكان؟

– من؟

– هؤلاء العساكر... إنهم يبحثون عني لا شك!

– لماذا؟

– اسكت، اسكت... تشاغل بأي شيء غيري.

– لكنهم...

– أرجوك، اصمت!

تشاغلت عنه بذلك الدخان المتصاعد من رئتي ورفعت صوتي بأغنية شجية.

كلما جئتها نافضاً عن جسدي غبار السفر ارتمت عليّ وأجهشت بحرقة.

آه وآه يا عبد الله... لقد تقاسمتك الموانئ فلم يعد لنا نصيب فيك.

ولا تكفّ أدمعها إلا عندما أعدها أنني نويت هجر تلك الدروب البعيدة، وأظل بجوارهم حتى إذا نفق ما ادّخرته في غربتي، خرجت أتسكّع في قريتنا الصغيرة بحثاً عن عمل... تلك القرية التي لا عمل فيها سوى الجلوس وانتظار أن تلد سنابل القمح. أما من ليس له حقل يستظلّ بمحصوله فعليه أن يمتهن الغربة؛ فهنا كل الأعمال تقوم على المقايضة أو أجرٍ مؤجّل حتى تجمع ثمار الحقول بعد حصدها.

في الليل، حزمت حقيبتي وخرجت خلسة.

بلغني أنها تنتظرني عند مرمى القرية... تخرج من الصباح وتجلس بين القمائم تقلبها. وحين يفاجئها أحدهم بالسؤال عمّا تبحث، تردّ عليه بانكسار:

– ابني مضغة السفر، وسيقذفه يوماً ما مع القمائم... الغربة هكذا، تمضغك، وعندما تصبح غير صالح لشيء تقذفك لموطنك. وأنا أحب أن ألقاه قبل أن تقبره هذه القائم!

أسمع نتفاً من أخبارها فأضمّ حزني وأنسكب في غربتي أجمع فتات الأرض.
من مدة وجيزة وصلتني رسالة قصيرة جداً بعد أن تنقّلت بين أيدي مسافرين عديدين حتى بلغتني، وحين قُرئت عليّ ارتعدت.
"أريد أن أكحّل عيني برؤيتك... قبل أن أتكحّل بالتراب".
حملت جسدي على عجل وألقيت به في السيارة المتجهة إلى بلادي.
وحينما وصلت وجدتها كما قيل: بين القمائم تجمع أعقاب السجائر التي أدخّنها. وحين رأتني واقفاً على رأسها نهضت، تطلعت في ثم أرخت عينيها وعاودت الجلوس وهي تمسح دموعها وأكملت جمع أعقاب السجائر:
- كنت أعلم أن البحر سيقذفك مبللاً... مهيضاً... متعباً.
استوت أمامي... فتحت ذراعيها:
- تعال إلى أمك واسكب جرحك... هيا تقدم لن أبكي؛ لن أحمّلك جرحاً آخر.
انكفأت على قدميها أقبّلهما. رفعتني وتعلّقت بي. مسّدت شعرها:
- غربتي قوتٌ لكِ ولأخواني.
وبصوت حارق ضمتني:
- مللنا مضغك يا قلبي... وأجهشت بالبكاء.

***

- لقد ذهبوا... هيا انهض.
انتشل جسده من بين أرجل الكرسي المتآكل. مددت له يدي وتناولت كرسياً مجاوراً وأجلسته. جلس شارداً واجماً تهطل من عينيه دمعات كبيرة.
أنوشه، فيعود إليّ بوجهه الحائر وفمه المعقود.
- ماذا بك؟
- ....
ضحكت بعمق كي أزيح كآبته:
- الحياة لن تمرّ ثانيةً، وهذا أجدر بأن لا تبتئس.
تطلّع إليّ باستنكار وأوشك أن يتفوه لكنه تراجع وأرخى رأسه وأعاد رسم دوائر متصلة بتلك القطرات المائية التي استقرّت على الطاولة.

ناولته كأس شاي فدفعه بيده بتأفف. وضعت يدي على ظهره وضممته.

- أي أرض رمتك هذه المرة؟!

- ......

مررتُ بيدي على شعره المغبرّ ونفضت الغبار العالق به، وأمسكت بخصلات من شعره برفق.

- ألم تجد عملاً؟

- ....

مازال وجهه مظلماً ينيره بدمعاته المتلاحقة... تتحشرج الكلمات في حلقي فتخرج محروقة:

- أأنت مشتاق للأهل؟

ارتفع صدره عالياً وأجهش بصوت حاد وألقى برأسه في حضني.

***

كالعادة حزمت حقيبتي وأخذت أنتظر الليل، فأنا لا أقوى على مغادرة قريتي نهاراً، فالنهار يقود تلك العيون لأن تتبعني بأدمعها.

للتو احتضن إخوتي الصغار أنفاسهم القصيرة الهادئة وانطلقوا خلف حلمٍ يأبى أن "يحطّ" على شرفات أهدابهم السوداء.

وخطيبتي - تلك السنبلة التي تعبت من حمل عذق السنين وهي تنتظر أن أنهي سفري الطويل - قد جهزت لي فطيرةً غارقةً بالعسل كي أتذكّرها حينما أغصّ بغبار السفر...

لا شك أنها الآن تنتظرني خلف عشّتهم لتضع في جيبي العلوي زهرات "السكب" التي توجد في آخر الوادي.

أذكر آخر سفرة حينما همست في أذني:

- احرص أن لا تذبل هذه الزهرات كما ذبلت أنا.

هكذا تودّعني... لآخذ منها الزهرات وحسرتها وأبتعد وأنزوي أبكي هذا العمر المسفوك في الدروب البعيدة.

آه، مازلت كلما سمعتها تودّعني تذبل خطواتي، فأوقظ ذبولها بحلمي الأبدي:

حتماً خلف عتمة اليوم غدٌ مشرق... وأنطلق في الموانئ البعيدة أبحث عن الحلم.

جلست أمام أمي صامتاً وهي تزفر بمرارة وبصوتٍ يجوس بالانكسار:

– ألم تعاهدنا بأنك لن ترحل؟

– وعاهدت نفسي أن لا تموتوا جوعاً.

سكنتُ في دمعاتها وهي تمسك برأسها، وعلى ضوء السراج المرتجف ألمح تجاعيد متهدمة ولم يبقَ في وجهها منتصباً إلا دمعتها.

تكوّرت بجوار حقيبتي وأخذت أتابعها وهي تنتقل من مكان لآخر بغير هدى... تتمخط و"تنفل" يدها في عرصة الدار.

تعوّدنا أن لا نضرم غضبها. فهي حين تشعر أنها غير قادرة على تحمّل حزنها تلجأ إلى الحجارة لتسكن بها غضبها؛ فقد شجّت رأسها كثيراً، آخرها حينما تركنا أبي وسار إلى قبره حزيناً بائساً.

مازالت تدور حولي كجملٍ مسعور وزبَد شدقيها يرغي وهي تلوك "شياتها" بانفعال. تقترب مني حتى توشك أن تلامسني ثم تبتعد. خرجت إلى فناء الدار وعادت وهي تربط رأسها بنقبتها السوداء. وقفت أمامي كشجرةٍ عتيقة داهمها الجفاف فغدت فاحمة، وبصوتٍ مخنوقٍ متحشرج همست:

– عزمت؟

استنشقت رائحتها بعمق.

– يصبح السفر أمراً محتوماً يا أماه، وليس خياراً.

أسبلت يديها بعصبية وكأنها تحطّم آخر الجسور:

– لن ترحل وحدك بعد اليوم... سأرحل معك.

أحرقتني "فهبّيت" من جلستي واستويت واقفاً:

– ماذا؟!

– ألم تسمع... سأرحل معك.

– لا شك أنك تمزحين.

شاحت بوجهها عني وخرجت. عادت تحمل صرةً صغيرة وقذفتها بجوار حقيبتي، وأنا مازلت مندهشاً فاغراً فمي أمام قرارها.

اقتربت منها وحضنتها:

- أنسيتِ أبناءك الصغار؟ لمن تتركينهم؟

- هم في أرضهم وبين ذويهم، كما أن أختك ستتكفل بهم، أما أنت فلن أدع الغربة تمضغك وحيداً.

وما إن أنهت كلمتها حتى توجّهت نحو الدارة. تبعتها... كانت منشغلةً بفكّ رباط حمارنا الأعرج وتجهيزه. أمسكتها من يديها.

- أماه، هناك أمر غائب عنك.

- ما هو؟

- أنت لا تملكين هوية.

حدقت فيّ باستغراب، وبسذاجة تساءلت:

- وما هي الهوية؟!

- أوراق رسمية تمنحنا تأشيرة دخول لأي دولة.

انفلقت كلماتها ولعناتها على عقوق الأبناء، ثم تداركت غضبها وتحدثت بهدوء قاتل:

- اسمع... منذ أن كنت صغيرة وأنا أسمع جدتك تردّد "الأرض أرض الله فاسعوا في مناكبها"... أعلم أنك تريد أن تثنيني عن عزمي، ولكن سأتبعك وإن خلفتني خلفك.

- دعيني أجمع بعض المال وأرسله لك لتستخرجي جوازاً وتتبعيني.

- لن تخطو شبراً إلا وأنا معك.

لم أفلح في ثنيها عن عزمها ولم تعد تكترث لشيء سوى أن تظللني في غربتي. أطلقت زفرةً حادة يائسة:

- أماه، الغربة موتٌ بطيء... اسأليني.

فقفزت في وجهي وعيناها تتقدان:

- سنقف سوياً ضد الموت!

خرجنا نلتحف الليل... كنت كطائرٍ جريح يستتر بالليل كي يخبّئ عجزه وجرحه... تسللت بها عبر الحدود... تدحرجنا من جبال وعرة وأكلتنا الطرقات والخوف... قدماها تشققتا من الشوك والمسافات الممتدة؛ ففي الطريق بعنا حمارنا الأعرج كي نأكل ونتزوّد في رحلتنا الطويلة.

بعد ثمانية أيام دخلنا المدينة خلسةً... الليل هنا مضغته الأنوار فبدا سافراً يتربّص بنا ونحن نخطّ بأقدامنا في تلك الأزقّة الضيقة، وتعبنا يرقص فينا بعنف.

توجّهت بها إلى مقهى يهطل به الغرباء والمعدمون. أجلستها في ركنٍ ضيق فتمددت ونامت وهي تئنّ.

في الصباح تركتها في مكانها وخرجت أبحث عن مأوى يؤوينا... وجدت بيتاً طينياً متهدماً. عدت إليها وأخذت من عنقها "دبلولها" الذهبي القديم ودفعته إيجاراً لتلك الغرفة المتهدمة.

قطنّا في حي عيونه مفتوحة كعيون سمكة... في البدء تحدث أهل الحي عن المرأة التي معي، وحين رأوها عجوزاً أهملونا.

وبعد بحث طويل عملت عاملاً للبناء في شركة كبيرة، أخرج صباحاً وأعود ليلاً. حينما أعود أجدها كئيبة حزينة، أقبّلها وأجلس بجوارها فألمح دمعاتها تتساقط... أقترب منها أضمّها:

– ماذا بك؟

تمسح دموعها وتجاهد نشيجها:

– لا شيء، لا شيء...

يهدّني حزني وتعبي فأنام وعيناها لم تجفّا بعد.

منذ أن وصلنا – إلى هذه المدينة – وهي لم تغادر هذه الغرفة ولم تجالس أحداً سواي. حثثتها مراراً أن تخرج وتباسط الجيران...

– قد يعلمون أنني بلا أوراق... ولا أحب أن أتعبك في الغربة.

جاءنا "الريّس" ونحن على وشك أن نصبّ الخلطة في تلك الهياكل المنتصبة... رفع صوته الحازم:

– سوف تنتقلون إلى خارج المدينة، فهناك عمل يتطلب أنفاراً إضافيين.

وقفت أمامه معتذراً.

– سيدي، هناك امرأة عجوز تنتظرني ليس معها إلا الحزن وأنا.

هدهد على كتفي وعيناه منشغلة بإحصاء عددنا.

– لا عليك، ستعود إلى دارك في موعدك المحدد.

حشرنا في القفص الخلفي لسيارة الشركة التي انطلقت تعبر بنا مسافات

شاسعة... دخلت في الليل ونحن لم نصل للمكان المحدد.

صرخت بهم أن يعودوا بي... لم يكترثوا الصراخي. بكيت... توسلت... وفي كل محطة نقف بها أنزل أقبّل يد الريس.

- سيدي، هناك امرأة عجوز تنتظرني وليس معها إلاّ الحزن وأنا!

يهملني تماماً، وعندما ألحّ عليه بتوسلاتي يصرخ في وجهي:

- ليس في استطاعتي أن أقدّم لك شيئاً.

أنكسر أمامه بكل خضوع وتوسّل:

- حسناً. أعطني أجر يومي وسأعود مع أي سيارة أجدها.

استشاط غضباً وقذفني بشتائم بذيئة وأكمل:

- الآن لا أملك نقوداً، وفي هذا الخلاء لا يوجد غيرنا... هل تلمح سيارة هنا؟ أطلق عينيك في كل الاتجاهات... لا أحد غيرنا. اصبر، اصبر وسنضاعف لكم الأجور.

- الآن لا أريد شيئاً سوى العودة.

دفعني بقوة:

- هيا تحرك، ها هي الطرق أمامك... عد إن شئت.

وتحرّك من أمامي لاعناً. صعد بجوار السائق وأمره أن يتحرك.

تطلعت في الخلاء حائراً... تحركت السيارة فركضت خلفها وقذفت جسدي بين تلك الأجساد المهلهلة. بلغنا مقر العمل... كان الغروب يمضغ المدى والعتمة تقف على بعد خطوة والريح تجلجل في تلك الصحراء الخاوية. ظللت أبكي وأطالب بالعودة... استخف بي الكثيرون. وجدت دموعي تُسكب في أرضٍ جرداء فتوقفت عن البكاء...

عاودتني فكرة أن أعود سيراً على الأقدام، وعندما عزمت وجدت أنني لا أعرف في أي اتجاه نحن، فاعتصمت بالإضراب عن العمل. نبذوني، فقاطعت الأكل والشرب.

في اليوم الثاني جاءني ساخطاً متوعداً:

- عندما نعود لن يكون لك مكان بيننا... فابحث لك عن عمل.

كدت أن أمسك بعنقه وأهرسه تحت قدمي... تبخّر غضبي حين تذكرت غربتي

فانسللت من أمامه صامتاً.

في صباح اليوم الرابع عدنا... كنت ألعن كل شيء، وعندما هبطنا في المدينة قام بتوزيع الأجور على العمال ولم يمنحني شيئاً. اقتربت منه وبصقت على ظله وعدت.

فتحت الباب بعجلة، كنت متشوقاً لأن أمرّغ وجهي تحت قدميها: كانت ملقاة على حصيرتها الممزقة تسند رأسها ببعض ملابسها الرثة، فمها فاغر عن نداء فاتر حاصرته الجدران فبقي متحفزاً على شفتيها، ويدها مرفوعة بتخشّب كأنها تحاول أن تمسك طيفاً يمعن في الهرب... عيناها جافة، جامدة، ساكنة، اختلط فيها الفزع بالانتظار، وفي أسفل رأسها نام شجٌّ عميق نزح منه دمٌ غزير فاقتربت منه أناملها ولم تبلغه بعد، وبجوارها رقدت جرة غليظة تيبّس عليها دم متجمد.

انكفأت عليها، نشتها فتحركت دفعةً واحدة... جسست نبضها وجدتها قد غادرت الحياة من وقت مبكر.

غرقت في حيرتي ودموعي. جلست بجوارها وقتاً طويلاً ساهماً واجماً. جو الغرفة الرطب ضاق بتلك الرائحة الخفيفة المتعفّنة التي سرت في أركان الغرفة فأخذ يزيحها عبر شروخ النافذة المطلّة على الشارع ليستيقظ الخوف في داخلي.

عدت أتطلّع إلى وجهها الكمثريّ الغامق... كان عاتباً ممرغاً بالحسرة، فانكفأت أقبّلها وكلما التصقت بها فارت رائحة العفن. رفعت رأسي مفزوعاً حين خطر لي دفنها...

- يا إلهي... ماذا أصنع الآن؟!

في قريتنا حين يموت الإنسان تخرج القرية لتشييع جثمانه، تشارك في حفر القبر وتلحيده، يهيلون عليه التراب ويعودون وهم يترحّمون له، ويقفزون جميعهم لهشّ الأحزان من على قلبك...

وهنا لا بدّ من أوراق تجهيز الموت... حتى الموت أصبح غير قابل للصرف إلاّ بالأوراق!

سأقف على باب المستشفى وأقبّل كل رأس على حدة، وسوف أسرد لهم كل الحكاية، وسأبكي وأقسم لهم أيماناً غليظة، وأنا أضع يدي على كتاب الله، أنها أمي.

آه، حتماً سيتطلعون إليّ من خلف مكاتبهم بمكر ويطالبون بأوراق، ولا شكّ سيخرج لي ثعبان ما يلدغني:

– أمك، كيف تركتها تتعفن؟!

ولن أجد أحداً يزكّيني؛ فالغرباء سيقان بلا جذور أو أوراق.

وقد يتحرك ذلك الثعبان بمهارة ويتساءل عن هذا الدم المتجمّد، وسيلفّ عليّ بلسانه ويتهمني بموتها... لن يصدقني أحد أنها أمي خرجت لتظللني بقلبها في هذه الغربة فمضغها الموت قبل أن أتفيّأ تحتها.

نعم، لن يصدقني أحد، فخيرٌ لي أن أدفنها هنا قبل أن تنطلق رائحتها تستنفر الكلاب والحدآت والدود.

أحضرت الماء وشرعت في غسلها، وكلما مرّت يدي على جزء من جسمها سحبته معها... جلدها مهترئ "يتهتم" وتفور رائحتها النتنة، فتوقفت عن غسلها... كوّمتها في شرشف نومها، وفي "حوشنا" الصغير بدأت الحفر... على السطح المجاور لبيتنا كان هناك طفل يلهو بطائرته الورقية... ابتسم في وجهي حين تلاقت عينانا فتعكّر فؤادي بالخوف، كدت أصرخ به أن ينزل، لكنني تراجعت ووقفت جامداً، فكّرت أن أؤخّر دفنها إلى الليل إلا أن رائحتها تنتشر بسرعة... اغتنمت انشغال الطفل بطائرته التي أوشكت أن تسقط وأسرعت بحملها من غرفتها، وفي ربكتي تعثّرت فسقطت من بين يدي... لمحني الطفل فصرخ بفزع واختفى.

عاودت حملها فشعرت بها تتقطّع بين يدي. فكّرت أن أعيد ترتيب أعضائها ولكني تراجعت وأسرعت بها إلى القبر الذي هيأته لها. وضعتها بداخله... كان القبر قصيراً... عزمت على أن أكوّمها وأحشرها بداخله.

رأيتها تنظر إلي بعتب... أنزلتها من بين يدي وحملت مسحاتي وانهلت أوسّع قبرها.

سمعت طرقاً عنيفاً على الباب وأصواتاً متداخلة تأمرني بفتح الباب.

يا الله! سوف يقبضون علي... وقفت متعثراً أمام رائحتها وعيناها الجامدتان تمثال متكسر والأصوات تنهال بعنف.

– افتح الباب.

أوه، لم أصلِّ عليها بعد... ماذا أصنع؟... الباب يرتجف أمام دفعهم... لعنة

الله عليكم أجمعين... آه أولاً... أدفنها... بل أصلّي عليها... مازالت الأصوات تسكب الخوف في صدري:

– يا مجرم افتح الباب.

ارتعدت... مجرم!... وهذه المقذوفة ماذا أصنع بها؟... نظرت إليها نظرة مودّع حين كانت يدها مرتكزةً على شفا حفرة القبر؛ تلك اليد التي تطارد طيفاً يمعن في الهرب... والآن قبرها يمعن في الهرب أيضاً فلتطاره كيف شاءت.

قبّلتها وتركتها مقذوفةً بجوار قبرها وقفزت الجدار الخلفي لبيتنا وأخذت أعدو في الطرقات.

ها أنا أستكين بصدره الآن، وأفرغ عجزي وخوفي ووجهه مازال، كما عهدته، مصقولاً بالصمت يتجرّع وحل الحياة ويبتلعه بغصّاته المتكررة حتى غدا صدره مقبرةً موحلة.

هل يصدّقني لو أخبرته؟! أوه، كيف لو دفعني للسجن وهو يردد كلمته: لا تبتئس؟... هل يفعلها؟! لا، لا أظن... سأخبره فصدري أوشك أن يتحطم.

***

مازال وجهه مظلماً ينيره بدمعاته المتلاحقة وكلماتي المتحشرجة تشعل نحيبه:

– أأنت مشتاق للأهل؟!

انخرط في موجة بكاء حادة وألقى برأسه في حضني. أضمّه؛ أمسّد على شعره، وأربت عليه... تركته ينضح أحزانه بهذه الدموع الطافرة وقتاً طويلاً وجلست أكمل تبديد حياتي عبر الدخان المتصاعد.

بعد صمت طويل استعاد رأسه من حضني... تطلّع فيّ بإمعان، فهمست أحثّه:

– أخبرنيً ماذا بك؟! ماذا حدث؟!

جاءنا صوت جزمة ثقيلة ترطم الأرض بعنف. استدرنا فاصطدمت عيوننا بعسكري ينكفئ نحونا. نهض عبد الله من أمامي مفزوعاً وأخذ يعدو في الشارع الطويل، وصوتي يطارده: تذكر دائماً... لا تبتئس!

جدة ١٤٠٨/٢/٢٦هـ

الصورة

أمام صورته الرصاصية المعلّقة في جميع الأماكن. أقف مرعوباً فتسعفني ذاكرتي بأن الذي يقف أمامي هو شبح قرضه الزمن ولم يعد باقياً منه إلا هذه الملامح المسمارية... فيعود إليّ هدوئي.

أتأمله جيداً وأتسلّل عبر ضحكةٍ طويلة. أهشّه بيدي وأظل أضحك ألمّ في فمي كل حقدي وأوشك أن...

فتربو نتوءات وجهه وعيناه المنطفئتان تتّقدان ويَلْبنُ زبد شدقيه ويده الممدودة للصفع تتحرك... فأتوقف عن ضحكتي وأعدو هارباً.

كل يوم أكرّر هذه المحاولة فأعجز... اليوم قررت أن أبصق عليه...

***

أكرهه، نعم أكرهه... أقولها الآن دون خوف ودون أن أرتبك وأخبّئ لساني؛ ذلك اللسان الذي لم يعرف في عهده إلاّ التخشب!

أهل الحي ظنوا أنني أصبت بالخرس في وقت مبكر من طفولتي، وقد عمّق هذا الظن تلك المسكينة التي كانت تجوب بي الأزقّة وهي تولول، تغرسني في صدرها وتبكي بحرقة:

- لقد مسّته ريح خبيثة!

أشار إليها عجائز الحي أن تذهب بي إلى "السيّد" كي يُخرج الجنّي الذي سكنني... دارت بي على "سادة" كثر حتى ملّت، وملّ وجهي تلك البصقات المتعددة التي يستقبلني بها السادة الشيوخ.

من تلك الطفولة المبكرة ضمر لساني في ظلمته، أصبح غير قادر على قذف

الكلمات إلى الأمام... فقط ركن إلى الثرثرة لأعماقي بأحلامه وعجزي.

كان هذا القاسي يعرف كيف يجعلني أثأثئ أمامه، فيبصق في وجهي ويصرخ:

- تعالي واسمعي كلبك كيف ينبح.

وحين تسمعني تضمّني بفرح، تخرج إلى الشارع وتحثّني على الكلام، فينمو عجزي وأظلّ جامداً كالخلاء. تهزّني فلا أنطق... تذرف أدمعها أمام المتجمهرين على صوتها وتمسح شعري:

- لا بدّ أن العفريت الذي مسّه لا يرغب في إنطاقه أمامكمْ!

تعود بي منكسرةً إلى البيت، فيخبطني على مؤخرة رأسي:

- لمَ لا تنطق؟!

فأثأثئ... أبلّل جسدي ولا أقوى على التطلّع في وجهه... يزعق في وجهي:

- تقدّم!

فأتحرّك باتجاهه وأنا أبكي ماءً مالحاً من كل جسدي. يستلّ سوطه وأنحني له ليشبعني وجعاً حتى يكفّ، فأغادره دون أن أجرؤ على التحديق فيه أو الاعتراض بالنشيج.

تستقبلني في حجرها وتبكي.

***

ها أنا أقف أمام صورته مليئاً بالحياة، وملامحه النافرة من "البرواز" الذهبي راكدة لا يحرّكها إلاّ الماضي المتخم بعنجهيته وجبروته. وجهه المتنامي بالعبوس يحفّزني أن أعبّ من حقدي الدفين وأُكيل له اللعنات.

باستطاعتي الآن أن أحدّق في صورته وأبصق في وجهه بكل وقاحة... لن يستطيع أن يتحرك أو أن يمدّ يده ليصفعني.

يا له من قاسٍ... حتى الموت لم يُلِنْ قلبه الصخري... أوقفني أمامه وأمطرني سبّاً:

- لا تظنّ أن الموت سيفصل بيننا!

فأنزوي جانباً وأتابعه وهو يتلوّى في رمضاء الموت، وفرحٌ داخليّ يخضرّ في أعماقي:

– يا للعقرب اللعين... يعرف كيف يلدغ نفسه بمهارة!

يعصر أوردة رقبته بكل قوة وأنا أستشيط غيظاً:

– "حتى الموت تريد أن تهزمه؟ لا... لن أمكّنك".

توجّهت نحوه وأزحت يده عن عنقه. ركلني فسقطتُ على وجهي:

– يا ابن العاهرة، لن يستطيع أحد أن يهزمني!

التوت يدي؛ تلك اليد التي كسرها أربع مرات ولم تعد صالحة إلا لأن أدفنها في كتفي وأسير بها بقية العمر... ليست يدي فقط... كثير من العاهات قبرتها في جسدي وسرت... أصبحتُ مقبرةً متحركة... كل يوم يقبر عاهة في جسدي ويسير في جبروته وأسير في انكساري.

الموت يسكنه وهو لا يزال فجّاً... بشعاً.

الزبد يتدفق من بين شدقيه ويده تعصر الحياة بقوة، فينتح جسده نتناً. وحين جفّت الحياة من عروقه اقتربت منه، تطلّعت إلى جسده الملقى، ملأتُ فمي، أوشكت أن...

فهدر صوتٌ قوي:

– يا ابن العاهرة، لن يستطيع أحد أن يهزمني.

فخرجت أركض...

عدت بالمغسّل، وتجمهر على جسده نفرٌ قليل... قلبوه بصعوبة فبدا من تحته دودٌ متخمٌ بالعافية... هشّوا الدود فهرب إلى عظامه وتحت جلده، ومن وجهه الممتلئ بالفظاعة ومن بين شفتيه المنفرجتين فاض دودٌ محترق.

كان منظره مريعاً. فيده مازالت تمسك بآخر وريدٍ في رقبته، وعيناه المنطفئتان اتّقدتا بجحوظهما، وزبد شدقيه تيبّس على جانب فمه.

كان مقذوفاً كجملٍ نافق مات مخنوقاً.

المغسّل يجفل كلّما اقترب من الجنازة... دلق الماء وغسله وظلّ يغسله ويطالب بماء و"غُسُل".

تحرّك المتجمهرون بصوتٍ واحد: يكفيه غُسلاً!

ردّ عليهم متأففاً: ما زالت بهِ نتانة... لا بد أنه مات من أمد!

أقسمت له أنه لم يمت إلاّ من لحظات، فتشاغل عنّي بصبّ الماء على الجنازة.

دلقوا عليه ماءً كثيراً حتى أن المشيعين غاصت أقدامهم إلى أنصاف السيقان، يتنقلون من حوله وهم يكمّمون أنوفهم.

ولم تبرح تلك الرائحة الكريهة، عندها توقف المغسّل وحثّهم على قلبه... قلبوه بصعوبة ومرروا الكفن من تحته، وأطبقوا عليه الكفن.

تجمّعوا لحمله فتثاقل عليهم. أمروني أن أخرج لأطلب المساعدة من المارة.

***

لا أذكر أنه ابتسم في يوم ما. في آخر غرغرته لمحته يتبسم وتفيض بشاعته الدائمة التي يلعنها كل حين... هذه المرة كانت سحنته مرتوية بالفظاعة أكثر من أي وقتٍ مضى:

– انتصرت!

أمروني أن أودّعه الوداع الأخير. أزاحوا أربطة الكفن... كان وجهه متجهماً كالعاصفة. انثنيت وبي رغبة حقيقية لقضمه. لامست شفتاي وجنتيه فجفل. سمعت صرخةً تدوّي في أعماقي:

– يا ابن العاهرة، لن يستطيع أحد أن يهزمني!

فتنحيت عنه وأنا أرتعد. سمعتهم يتهامسون:

– ابن عاق.

أعادوا ربط الكفن وانشغلوا بقراءة الفاتحة. اقتربت منه وجدلت الكفن، جدلته... جدلته.

أحسست به يبصق وبقعة دم تنتشر في فضاء بياض الكفن. سخرت منه في داخلي، وشبّت على فمي ابتسامة:

– لن تقوم ثانيةً أيها المنتصر!

فتحرك الجسد المسجى، واستوى في جلسته، ويده ترتفع رويداً صوب عنقي، فصرخت بأعلى صوتي:

– أسرعوا... فإكرام الميت دفنه.

ختموا قراءتهم بالدعاء وتقبيل أيديهم وأقبلوا على حمل الجنازة... تأوهوا كثيراً، وحين أيقنوا من عجزهم حثّوني بألسنتهم:

- اخرج لطلب المساعدة من المارة.

جبت الأزقة صارخاً:

- لم يتبقَّ إلاّ ردمه.

لم يأبه بي أحد... أوه لو تبقّى هذه الليلة حتماً سيطل عليّ بوجهه البشع ولن يرحمني منه أحد... سينتقم مني ويودعني مكانه... لا بد أن أعود بمن يحمله. كان عمال النظافة منهمكين في حمل القمائم والزبالات المتناثرة كخوفي. اقتربت منهم، توسّلت إليهم.

- فقط نردمه.

ذرفت أدمعي فتبعوني.

***

في الليل، بعد أن يخرج، كنت أتسلل إلى مخدعها، أراقبها خاويةً من الحياة، تصرف ألمها وحزنها من عينيها الواسعتين... غدت كحلم شحيح.

أقترب منها، أقبّلها فتزداد أدمعها في التدفق. أجلس بجّوارها صامتاً، يائساً. تجفّف بركتيها الواسعتين وتنثر في وجهي ضحكاتها المتقطعة، وحين ينغزها الألم تغمض عينيها... فأخرج لأتركها تتنهد بعمق.

جاء ذات ليلة وأنا أسقيها شربة ماء، فتناول سوطه وقطع جسدي الصغير وهو يزأر...

ولم أعد أذهب إليها... خرقت في جدار غرفتها ثقباً ضيقاً وداومت على زيارتها من خلاله.

في كل ليلة أضمر قتله وظللت أضمر هذا... حتى سبقني إليه الموت.

كان يأتيها وهي ملقاة في براري الألم... يخلع ملابسها ويضاجعها. أسمعها تسترحمه وهو ككلب يلهث... يلعق دموعها وينتشي... يوصلها إلى فضاء الغيبوبة ويتركها ملقاة وينام.

أتسلل بحذر مريب، أرشّ وجهها بالماء... تفتح عينيها وتبكي، فأركض هارباً. أعاود التطلّع إليهما من ذلك الثقب الضيق.

يتململ في رقدته طويلاً وينثني عليها... يداخلها فتشهق... تئنّ فيصفعها بكلتا

يديه. وعندما ينتهي من لهاثه يبصق عليها ويتدثّر بالنوم.

يتعالى نشجيها وشخيره.

تمتلئ عيناي بالدمع فلا أراهما. أمسح وجهي وأقدح قلبي بكرهه وأنام وأنا أمسك به في ذاكرتي كي لا يهرب.

فينبت في منامي شوك، يحاصرني. وحين أمدّ صرختي، يرتقها. أنهض مفزوعاً. أتطلّع حولي... لا أحد يجاورني سوى العتمة وحزني.

أجمعهما في خطواتي وأتسلل إلى المطبخ وأفرغ في جوفي شربة ماء. أسمع صراخة حادّاً:

- أنتِ ملكي، أتفهمين!

أركضَ للثقب وأسمّر عيني، فيتدفق قلبي حقداً إضافياً عليه.

***

ها أنا أقف أمامه الآن... أقف منعماً بالحياة وهو من خلف الصورة يقف بموته وبعينه المنطفئة وتضاريس وجهه المتباينة التي تنزّ بالغلظة.

أكوّر يدي وأشير بها في اتجاهه. ألمح صورته تتحرك وتصوّب صوتاً قوياً:

- يا ابن العاهرة، لن يستطيع أحد أن يهزمني.

تتصلّب أطرافي وأبدأ السير إلى الخلف حتى يواريني باب غرفته لتفاجئني صورته في كل أرجاء الدار، تكرّر نفس الصوت، فأعدو راكضاً خارج البيت...

***

تبعني عمال النظافة.

حين وصلنا إلى جثمانه كان المُغسّل ومن معه قد رحلوا. تطلّعت إلى الكفن: كانت أربطته محلولة!

مفزوعاً عدت أجدلها، وعمال النظافة يتحركون وهم يضعون أيديهم على أنوفهم. حثثتهم بالبكاء والصوت: أسرعوا بحمله. قبل أن يهربَ من الموت!

"تداولوا" به قليلاً وأناخوا حملهم وهم يئنّون:

– لرائحته عفن الزنازن المهجورة ولجسده ثقل الأرض. لن نبرح به حتى تعاهدنا.

– بِمَ؟

– بما خلّفه لك!

– أبقى لي سوطاً، وحقداً، و...

ألقوا بنعشه وغادروا وهم يتهامسون بالفزع.

بقيت أنا وجثمانه.

أربطة الكفن تحلّ وأنا أفيض ارتعاداً، وموج الخوف يهدّ جدار القلب. لم أعد أقوى على شيء سوى أن أتبوّل هلعي... أبلل ملابسي وأركض في الأزقة.

يتبعني الأطفال وهم يتضاحكون:

– "البوال... البوال"...

أبكي بين أيدي الكبار... يمضغونني بشفقة قاتلة. يتمتمون:

– شفاك الله!

أنخرط في موجة عاتية:

– سيهرب من الموت!

فيحقرونني ويمضون.

***

خرجت أعدو وأنا أصرخ... أمسك بكل من أجده... أنوشه:

– لقد قتلها!

يمسكون بي ويدلقون عليّ الماء، يكبّرون في أذني، يستحثونه بأسماء الله العليا أن يخرج، ومن بين ارتعاشي وفزعي أصرخ:

– لن يخرج حتى يودي بنا. إنه الموت!

بينما كنت أتطلّع إليهما من ثقب الغرفة، جاءها... رفضت... مزّق ثيابها فسقطت على الأرض وهي تئنّ. حملها عالياً وقذف بها على سريره، فشهقت عدة مرات. داخلها... يلهث هو... تئنّ هي.

يتعالى صراخها ولهاثه. كان صوتها يأتي حاداً مرعباً. لمحته يتناول "مخدة"

ويلقي بها على وجهها ويحكم منافذ صراخها بغلظة.

لم يكن بوسعي إلا أن أبكي.

ناخ بلذته... وتبعه صمت ثقيل.

بصق عليها... منحها ظهره وأيقظ الصمت بشخيره.

دخلت عليها... أرقت عليها ماءً كثيراً... لم تفق.

ومن تحتها يخرج الماء دموياً... قلبتها... كانت ترقد على بركة دم وقد تلبّست وجهها صفرةٌ فاقعة... حطّت أناملي الصغيرة على خدها، تُربِتُ عليها... لم تفق. هممت أن أجلب نشادر حين لمحته يترقرق... خرجت مسرعاً.

عدت إلى ثقب الغرفة... عاد فلهث، وهي تتقطر دماً وصمتاً.

– يا للمسكينة، كأن الحياة قد قُبرت في صرخاتها الأولى.

في الصباح الباكر لمحته يكوّرها في شرف نومها، بعد أن جمعها دماً وصمتاً، ومدّ خطوته... تبعته... دخل بوابة الموت، أودعها ركناً قصياً وهال عليها التراب وعاد.

لأنطلق أركض في الأزقة محمّلاً بدموعي وحزني وخوفي:

– لقد قتلها!

دبّت الحياة في النعش. كدت أن أتلاشى. خرجت أركض... أركض... ولساني يمطر الطرقات:

– لم يتبقّ إلا ردمه!

صوتي يتمدد... يتمدد... يلوك كل الأمكنة ويعود إلى أعماقي كموجٍ متكاسل. أدفعه مرة أخرى:

– لو هرب من الموت لأماتنا جميعاً!

تلفتُّ حولي... كان يحاصرني صبية يتبعونني بمرح ويرددون خلفي ما أقوله ويتضاحكون. حين يئست من أن أجد ضالتي في الطرقات توجّهت إلى المسجد.

ألفيتهم سجوداً. انتظرتهم طويلاً... مرقت بين الصفوف... تخطيت جباهاً، وذرعت الأروقة.

انتظرت باكياً... ظننت أنهم قبضوا هنا... غادرتهم سُجَّداً... أوشك الباب الخارجي للمسجد أن يلفظني حين سمعتهم يسبّحون ويهلّلون بصوتٍ مرتفع...

عدت أتلفّع خوفي وتوسّلي:
– يريد أن يهرب من الموت!
ارتفع استغفارهم... أقسمت لهم، فهدّأوا روعي وخرجوا أفواجاً يسوّرونني. كانت الجنازة ملقاة والكفن فارغاً فاه عن جسدٍ محترق. تراجعوا فدفعتهم بصوتي:
– هي الخديعة.
تقدّم شيخٌ جليل وتمتم بقراءات وأدعية... حثّ من حوله على محاصرة الجنازة وملأ فمه بالماء... بخّ الجنازة ثلاثاً ورفع صوته مكبّراً وأعاد ربط الكفن... تعاونوا جميعهم على حمل الجنازة وإعادتها إلى النعش... جلبوا حبالاً متينة وأوثقوه وثاقاً عسيراً ونادوا بحمله...
فاستعصى حمله!
قال الشيخ: لا يُدفن إلا في داره!
توسّلت إليهم أن يحملوه... حاولوا مرة أخرى، فعجزوا. نادوا بالحفر... حُفرت أرض الغرفة... عُمِّقت... وألقوه بها موثوقاً بنعشه، وردموا... وردمت:
– يا شيخ، أنا خائف. فلو نبش القبر وجذبني إليه، لن أستطيع أن أقاومه!
أمسكني وأوصاني بحفظ آيات من سورتي "البقرة" و"المائدة".
حثّني على قراءتها في كل حين، وخرجوا.
ليلتها تورّمت الأرض وربما القبر إلى سقف الغرفة.
انتقلت إلى غرفة في أقصى الدار، أقفلتها ولبثت ليلتها أتلو آيات وأنا أبكي حتى طفح الدمع في منامي.
في الصباح أوصوني أن أغلق غرفته جيداً وأن لا أنام في الدار لثلاث ليالٍ. في الليلة الرابعة عدت... كان البيت متّشحاً بأشجار الصبار.

***

اليوم قررت أن أحطّم صنم الخوف في داخلي. امتشقت قامتي، نصبتها حتى وازت صورته المعلقة في كل الأركان وتعملقت.
بعد أن نفضت خواري المزمن امتلأت يقيناً بالنصر. تنقّلت بين ممرات البيت

وفي كل زاوية تطالعني تلك الملامح التي نسخ منها صوراً عديدة وألصقها حتى في عيني.

سخرت من نفسي كثيراً: "منذ أمد طويل ترعبك هذه الصورة وأنت القادر على إحراقها، بل تسطيع إنزالها تحت قدميك وسحقها".

لاح على زجاج الصورة وجهي المبتسم فامتلأت ثقةً ودفعت آخر خوفي بضحكة طويلة.

أعدتُ النظر إلى الصورة... لمحت فمه ينزّ زبداً، وعيناه المنطفئتان تضرمان حقدهما، ويده الممسكة بالسوط تتدلى.

كدت أن أنكسر وأجمع تبعثري بالركض حين لمحت وجهي لا يزال مبتسماً على الزجاج ويحثّني أن أتقدم.

أقلعت عن مضغ خوفي بحزم، وضعته تحت حذائي وهرسته. اعتدلت وتقدمت بخطىً ثابتة.

الصورة تتحرك وتحفّز ترددي القديم أن يفيض.

"أوه، إنه يستجلب أعضاءه على التجمع. فلنتوءاته الرمادية تأجّج النار الخابية، ولنظراته الراكدة تموّج يعتقلني وأنا أسرب خوفي المزمن، كدت أن أنحني وألتقط خوفي، أخبئه في صدري وأمضي. عندها دوّى في داخلي صوت"يدفعني للأمام.

– لا وجود للأموات إلا في دواخلنا!

خطوت خطوة واسعة وغرست قامتي أمام صورته بعد أن نفضت آخر ترددي، ووجهي لا يزال يرشّ فاتحة النصر.

جمعت كل حقدي في فمي وبصقتي... أيهما يصل؟!

جدة، شعبان ١٤٠٧ هـ

من يغنّي
في هذا الليل؟!

إلى محمد علي الشبيلي أخاً وصديقاً...
وتواصلاً لحياة جمعتنا مظللين بفيء امرأتين
وهبتانا نهراً من ماء عذب نرشف منه سوياً
كلما أوغلنا في هذه الدنيا.

الجدار

(نصّان لاسم واحد)

كان نائماً، ورأى فيما يرى النائم: زنزانة ضيقة نتنة، كان يقف فيها بصعوبة، والمسامير تأكل من جسده، فتهطل دماؤه سوداء، ويصرخ فلا يُسمع لصوته من صدى، ورأى حيةً رقطاء تلتفّ حول عنقه وتهمّ بغرس أنيابها بحبل الوريد، وقبل أن تفعل ذلك استيقظ من نومه فزعاً ودفع غطاءه، لكن الغطاء استحال إلى جدار.

الجدار مرة أخرى

أحب البرد بهذه العادة التي درجت عليها من الصغر، حيث أغلق منافذ غرفتي وألتحف بغطاء سميك وأرتشف كوباً ساخناً من الشاي بينما عيناي تركضان بين سطور إحدى الروايات. ولم يطرأ أي تغير على هذه العادة سوى علبة سجائر أستجلب منها دخاناً ينعش هاتين الرئتين ويزيدهما ضيقاً، ومازلت أستلذ بهذه الجلسة مع كل موسم شتاء.

كان من الممكن أن تندثر هذه العادة مع كثيرٍ من الأحلام التي كنت أعيشها وتصبح جرحاً في الذاكرة يطيب لي استرجاعه بين الحين والآخر بحنينٍ متدفّق راوياً أعماقي المجدبة بقطرات دمع شحيح وفاءً لذلك العهد القديم.

ها هو البرد يأتي في موعده قارساً يحيل الأشياء إلى جمر بارد ليصبح لمس أي شيء مخاطرة لفتح منافذ جسدك لاستقبال وخزات البرد الحادة. لذلك كنت أحرص دائماً على جمع عظامي بغطائي السميك وعدم لمس أي شيء يجاورني. وقد ضحك مني أحد الأصدقاء حينما أخبرته بهذه العادة عندما عاتبني:

– جئتك ليلة البارحة لتنقلني للمستشفى إلا أن طرقي أوهنني ولم تخرج.

واقترح عليّ شراء مدفأة، ونويت شراءها بالفعل ولكني تراجعت حينما خشيت افتقاد لذة الانغماس داخل الغطاء وذهاب تلك الرعدة الخفيفة، لذلك استبدلت المدفأة بشراء "بطانية" صُنعت من وبر الضأن الجبلية، وعدت إلى غرفتي حاملاً قرص "تميس طائفي" وفولاً وحزمة بصل خضراء. كانت الغرفة تعيش فوضى مرعبة، فقد تناثرت الجرائد وأعقاب السجائر في كل مكان وثمة كؤوس بها بواقي لبن أو عصير أو شاي، وقد استقام بعضها واندلق البعض الآخر، ومشت الفطريات في قاع بعضها، وثمة "سفر" ممدودة تبقّت عليها كسرات خبز وأجبان وفول وعظام دجاج أو رؤوس أسماك وغيارات الملابس، وملاعق تيبست عليها

"إدامات" متنوعة، وكانت الغرفة مغلقة النوافذ مستبقيةً رائحةً ممزوجة لا يمكن تحديد عَرْفِها، وقد انبثّ فراشي القابع في الزاوية اليسرى من مدخل الغرفة، فبرز منه قطن مضغوط بعشوائية وقد نكث رتقه من الأطراف وظهر حتى تساوى بالبلاط الذي لا يستره شيء. كنت ألوم نفسي على هذا الإهمال المريع، وفي كل ليلة أعزم على تنظيف الغرفة ورشّها برائحة زهور جلبتها منذ أسبوعين، وفي كل مرة أتقاعس عن ذلك وأجزم على إنجاز تنظيفها في وقت لاحق، وكللت من لوم نفسي حينما اكتشفت أنني لا أستمتع بوقتي كما أنا عليه الآن. حيث كنت أجد النمل والذباب يشاركني الغرفة عنوةً، ولولا مضايقتها لارتضيت البقاء على ذلك الوضع.

تناولت عشائي ونهضت تاركاً البقايا كما هي، وغسلت براد الشاي – البراد هو الوحيد النظيف في هذا البيت حيث أغسله يومياً – وأصلحت الشاي وقفزت إلى فراشي متدثراً بـ"البطانية" الجديدة، في حين كانت الريح الباردة تهبّ دافعةً نوافذ الغرفة ومحدثةً أزيزاً خفيضاً.

الليلة كنت أتابع تفاصيل رواية الفراشة باستغراق تام، وثمة خاطر يتضخم في مخيلتي، فأهجس بين لحظة وأخرى:

– حتى فرنسا تغتال الأحلام، فلا عليك.

وأبتلع هذه الجملة برشفة شاي معتّق، جاعلاً دخان سيجارتي يملأ تجويفات صدري بما فيه الكفاية، وأقرض شفتي السفلى بحسرة، مستجمعاً أطرافي، بينما يكون البرد يتغلغل داخل غرفتي وعظامي، وأتابع عذابات "هنري شارير" بتعاطف كسيح. لم يكن أمامي إلا قذف الشتائم وتخيل كل الشقاء الذي يلحق بإنسانٍ يبحث عن مكان يوزع فيه أحلامه بدون خوف.

كان من الممكن أن أمضي الليل كله وأنا أقرأ لولا ذلك الأنين المكتوم الذي انبثق خارقاً مسمعي بحدة. كان أنيناً ثقيلاً يخرج من نفس ضيقة مجهدة وكأن جبلاً ما مغروس بأنفاسها، لينداح الأنين بطيئاً ثقيلاً ينتهي بقنوت صاخب. أنصتُّ له ملياً... لم يكن مبعثه مكاناً محدداً، فتارةً يأتي من بعيد وتارةً أخرى أحسّ به يتصاعد مع زفراتي. توقفت عن القراءة وأخذت أنصت لأحدّد من أي الجهات ينبثق هذا الأنين، ولم أستطع التيقن من جهة انبثاقه. وكانت نفسي تحدثني عن أولئك الشباب المقذوفين في الخارج، الذين يستخدمون أسلحتهم للتحدث بدل

ألسنتهم، معللاً نفسي بأن أحدهم غرس سكينه في ظهر خصمه وتركه يسفح دماءه. وحين قررت أن أخرج للتعرف إلى صاحب ذلك الأنين، خشيت أن أكون ضحيةً أخرى فتراجعت وظللت ألوك هواجسي، حين ارتفع الأنين:

- أغيثوني.

ودون تمهّل أشرعت باب غرفتي وأطللت للخارج، فاجتاح وجهي هواءٌ قارس وعجزت عيناي عن اختراق عتمة طاغية كانت تقف أمام الباب، فعدت إلى داخل غرفتي والتحفت بشال وحملت كشافاً صغيراً وانطلقت باحثاً عن صاحب هذا الأنين الثقيل، وكلما مضيت سبقني الصوت إلى الأمام. كانت الأزقّة نائمة والقطط والكلاب تعبث بمحتوياتها كيفما شاءت، بينما الهواء القارس يهبّ بأزيزٍ متقطّع. سرى خدرٌ خفيف في أوصالي حين لمحت شبحاً يركض في تلك الظلمة باتّجاهي، فخبّأت جسدي في أحد الأزقة الملتوية، وحين عبرني بانت ملامحه وهيئته الرثة وعرفت من خلالها أنه مجنون الحارة؛ ذلك الذي قذف به أبناؤه إلى الشوارع خوفاً من أن يلحقهم العار حين يلمحه زوارهم في "فيلّتهم" التي انتقلوا إليها، ولكي يقطعوا صلتهم بالماضي قذفوا به في هذه الشوارع... أيكون هو صاحب الأنين؟! تبعته من على بعد فرأيته يدسّ جسده داخل أكوام من الكراتين ويغطّ في نوم عميق، بينما الأنين لا يزال يصلني حادّاً ثاقباً سكون هذه الظلمة الغامضة. فترت همّة فضولي وفضّلت الدفء على الركض بين منحنيات هذه الأزقة، وقد ترسّبت بداخلي فكرة جعلتني أسرع بالعودة، فعدت أدراجي قبل أن يكتشفني أحد، وأنا أنير جنبات تلك العتمة وأنقب زواياها كلصٍّ محترف.

عدت إلى غرفتي وتكوّمت بداخل "البطانية"، وعدت إلى وضعي السابق. وقبل الشروع في القراءة عاد الأنين صاخباً ومستغيثاً:

- أخرجوني.

فارتبكت ونهضت مفزوعاً لخاطر لعين أخذ يجب مخيلتي: "لا شك أنك جننت أم أن أنين أبطال الفراشة أخذوا يجوسون بأعماقك". وللهروب من هذا الخاطر أطفأت نور المصباح ودسست جسدي بين أغطية ثقيلة، وأغمضت أجفاني بكل قوة، ولم أتمكن من النوم حيث نهضت أشباح كثيرة بداخل الغرفة تتراقص بفزع على نغمات ذلك الأنين مما زاد من خوفي، فنهضت وأشعلت المصباح وقررت أن لا أتوجّه إلى العمل.

في الليلة التالية نهض الأنين صاخباً ومدوّياً، وعبثاً ذهبت كل محاولاتي للوصول إلى صاحب ذلك الصوت المثقل بالأنين.

ساءت حالتي واقتربت من الجنون، خاصةً بعد أن شاركني بعض الأصدقاء غرفتي وخرجوا متحسّرين على ما آلت إليه حالتي، ونفى جميعهم سماع أي صوت حتى عندما كنت أمسكهم صارخاً:

– أنصتوا، ها هو الأنين يرتفع.

فيتطلعون إليّ بحسرة، ويمضون بعد أن ييأسوا من تهدئتي. وقد تطور الأنين فأمسيت أسمع أصواتاً تلاحقني، وكانت ثمة استغاثة ثابتة يردّدها صاحب ذلك الأنين بصوتٍ متواصل لا يعرف الكلل.

– ساعدني... أخرجني!

فكنت أستعيذ بالله وأظل الليل بأكمله أقرأ السور الطوال طارداً خوفاً عظيماً ترسّب بأعماقي.

جاءني أحد الأصدقاء واقترب مني ملاطفاً:

– أنت تؤمن بوجود الجنّ وربما سكنك أحدهم.

وقبل أن يواصل حديثه، كنت قد تشاجرت معه وأخرجته خارج غرفتي، فظلّ لوقتٍ طويل يعيد إليّ نصحيته بضرورة الذهاب إلى أحد المشايخ لإحراق هذا المارد في جسدي قبل أن يصل إلى عقلي، وقد انبرى يقسم بأنه رأى شيخاً يخرج جنيةً من جسد رجل كانت تبعده عن زوجته. وعندما أحسست أنني على وشك أن أفقد عقلي وافقته، وطرقت أبواب المشايخ، ووقفت أمامهم واحداً واحداً، فذهب بخورهم و"مروخهم" يؤجّج ذلك الأنين، حتى أن أحد المشايخ صاح بي:

– أرضك قاحلة لا ماء يجري فيها، فمن أين تأتيك المردة؟!

اليوم كان الأنين صاخباً أكثر ممّا مضى، ولأول مرة أتنبّه إلى أن الصوت قادم من خلال الجدار الذي يجاور مرقدي. أنصتُّ ملياً... كان أنيناً متهاوياً يمتد ويتراخى ويهوي بأسىً قاتل:

– أخرجني.

فزاد يقيني بأن صاحب الأنين قريب جداً، وبدون تفكير حملت معولاً وهويت على الجدار.

وقال: واصب... وامعنى

إلى محمد عبد الحميد والوجوه الضائعة في الغربة.

النهار أوشك أن يتثنّى تحت عباءة الليل، حين "تذاورنا" حول مائدةٍ بائسة بعد يومٍ طويل من العرق والكدّ.

كنا مجموعة من الأفئدة المحروقة قُذفت من أطراف الأرض إلى هذا المقهى النائي يجمعنا خيطُ دمع وغبارُ سفرٍ عتيق وذكرياتٌ عميقة مالحة.

بعد أن أنهينا طعاماً – في عجالةٍ – تناثرنا على مساحات شاسعة من ذلك الظل الممدّد كميت، أو نشغل بعضنا بجمع الشيش وموارارة نار جديدة لمساءٍ غريب، وانشغل آخرون بفرك التبغ بأقدامهم وألسنتهم تعاقر النكت الماجن بصخبٍ.

هذه الأفئدة كنت أقدمها حزناً وتواجداً في هذا المكان حين لم يكن يسكنه إلا أنا والدخان والعربات العابرة بلا اكتراث.

في تلك الأيام الموحشة كنت أجلس للريح فتعبرني وتلقي عليّ روائح الأماكن المهجورة والجبال والبحار والأودية، فأنثر لها دموعي وحزني، ومع مرور الوقت أصبحت صديقاً لها.

لا شيء تحت هذا المساء سوى الركض وتلبية الطلبات المستعجلة أو مساعدة مسافر انقطعت به حبال السفر في هذا الشريط الأسود الممتد في جوف الصحراء.

مساءٌ كئيب كمساء الأمس والغد، لا شيء يحرك فيك الحياة إلا أنفاس بطيئة نطلقها في الفضاء لتشعرنا بأننا مازلنا نحيا... كل شيء هنا يأتي ويمضي برتابة وملل هذا المكان الجامد المقفر. الجديد ما حدث ليلة البارحة؛ ذلك النبأ الذي نزل علينا كالصاعقة فأحرقنا لبرهة، لنمسك على قلوبنا جزءاً، وبعده تشاغلنا بإزالته بنكات عريض.

فحين كنا منهمكين في أعمالنا، هبط من سيارة فارهة، تزيّنه حلّةٌ ناصعة البياض وتتحرك بين أنامله سبحةٌ ذهبية، وعندما رأيناه واقفاً بيننا توقف كلٌّ منا في مكانه، ودنت منّا انحناءة خفيضة لم يمهلها أن تكتمل حتى هبّ صارخاً في وجوهنا ومضى كإعصارٍ عقيم... لأتذكّر أنني غريب!

***

في هذا المقهى تعلّمت أن أعلّق وجهي كيافطة لإعلانٍ كبيرٍ ومدهش، فالوجوه المخبّأة لا يتذكرها العابر... هنا يلتقي الغرباء بلا اكتراث، يتحدثون ويتصافحون ويمضون ولا يحملون معهم إلا الحكايات. وقد دأبت على مجالسهم أزوّدهم بحكايات سمعتها من غرباء وأتزوّد منهم بحكايات جديدة أنثرها على مسامع غرباء آخرين.

أوه، كل الوجوه الداكنة التي ما إن تسترخي حتى تفور وتطفح من ثناياها رائحة الغربة المزمنة فأشعل وحشتها بالحكايات فتنتشي وتنثر على وجهي قليلاً من الأنس، حتى إذا غادرتني عدت صنماً تجلجل بداخله ظلمة الوحشة العاتية... كم نحن فقراء للناس!

في هذا المساء الشتائي يصبح المقهى فوّاحاً بالأحاديث والدفء، فالمسافرون يهجرون الفضاء الفسيح ويخبّئون عظامهم في ملابس ثقيلة داخل غرفتين ضيقتين استقرّتا خلف المقهى - كاستراحة شتوية - يحتسون الشاي، وعلى كركرات الشيش ينثرون حكاياتهم... يتحدثون عن مدن كبرت وعن قرى مزّقها الترحال فراحت تجوب الفضاء بحثاً عمّن تركها. ويتحدثون عن أرضٍ شحّ بها العشب، وعن إسمنت صعد للسماء، وعن لغات يلوكونها كحبات الحصى فتتكسّر أفواههم. يتحدثون، ويتحدثون ويمضون... لتعلق في ذاكرتي مدن وقرى نمت في غفلة مني حين كنت أذرع هذا المكان ملبّياً نداءات المسافرين. فمنذ ذاك الزمن الذي غادرت فيه بلادي غاب عني كل شيء، ونسيت كل شيء إلا العودة... كنت أحلم أن أعود علّني أحيي الوادي وأستعيد طفولتي المسروقة؛ تلك الطفولة التي سطت عليها الغربة عنوةً وتركتني كجذعٍ خاوٍ تقلّبه الرياح ذات اليمين وذات الشمال. حينما كنت طفلاً كنت أحلم أن أقطّف التعب من جبين أبي وأقف بدلاً منه في تلك

الحقول الممددة كجثث هامدة. أوه... ماذا عساه يقول عني الآن؟!

أما زال يلوّح بيده لذاك الأفق الذي ابتلعني ذات مساء؟... ربما ما زال يلوّح بيده لي الآن. ربما... فقد مضت سنين طويلة على تلك التلويحة. فقد نزحت من بلدتنا منذ أمد طويل، أصبحت لا أذكره بالتفصيل، فكل الذي أذكره أنها قافلة من السنين العجاف عبرتني وأنا كجسر أبسط لها ظهري وأطقطق بأنّات محمومة وأعلّل النفس أن القافلة ستنفق يوماً ما وأفيق من رقدتي الطويلة لأعود للأهل والأصدقاء وتلك الحقول الممددة كجثث هامدة. وكنت كلما أبطأت السنين في سيرها تضعضعت، وقبل أن أتهاوى أتذكّر وجه أمي العتيق ودمعتها المتهيئة للانحدار دوماً، فأتصبّر وأنهض من حمّى حنيني وأجمع أوراقاً علّها تعيدني وتعيد لي بسمة أمي وغناء أبي.

أما الآن فلم أعد أكترث لهذه الأيام إن أبطأت أو جدّت في سيرها؛ فالزمن ينهبنا ونحن نحصيه.

حين مات الوادي فجأةً، وأصبح قلبها حجراً، تمايلت وجمعت شحمها ووقفت أمامي، وبصوت آمر تخالطه بحّة:

– تغرّب قبل أن يموت كل شيء!...

حينما كنت أخرج للتعليف في المراعي القريبة من الحقول أسمع العجائز يتحدثن عن أن من يسافر لا يعود، فأضمّ إخوتي الصغار وأبكي وأستحلفها بأن تبقيني حتى أعبر طفولتي، فتقترب مني وتقبّلني، وبحديث رطب لين تفاتحني:

– في البلاد القريبة ستجد المال، وستعود إلينا سريعاً... أيرضيك أن يموت إخوتك من الجوع؟!

أقاطعها بفزع طاغ:

– لا... لا... سأتغرّب.

كنت ألمح أبي يقف في الصباح الباكر في حقله يرفع يده للسماء ومن تحت قدميه تتشقق الأرض عن أشواك شابة، وعندما آتيه بزوادته يجثو و"يخمش" الأرض ويذري ترابها في كل الجهات وصوته يذود حشرجةً تعبر حنجرته بيأس:

– الرياح تذري الحبوب في الأماكن الرديئة!

ويمضي قاطعاً حزنه والخلاء.

كانت ثمة دمعة تكاد أن تسقط سرعان ما يمسكها بموّالٍ جريح، وعندما وافقت أن أتغرّب سقطت تلك الدمعة ولم يستطع صوته الدافئ أن يذودها بعيداً عن وجنتيه.

في الليل باعا غنمتنا الوحيدة وخبّآ ثمنها في "كمري" وقذفا بي لقافلة "مشايمة" وودّعاني بالدعوات والقبلات. ضمّتني أمي وهي تغمغم، وبحّتها المفاجأة تزداد ثقلاً:

– لا تنسيك الغربة أهلك!

لتهطل بداخلي ظلمةٌ فاقعة أخذت أزيح لبدها بتقبيل كل من أجد في طريقي.

وقبل الغروب وقف أبي بعيداً يلوّح لي بيده الطينية حين كانت القافلة تنثر خلفها رائحة قريتي، ومن خلفنا كانت العشش والحقول تمعن في الفرار، فتطاولت حشرجةٌ مرّة في داخلي لأخبّئ وجهي وشهقاتي المتقطعة في الليل، أو ربما دسست رأسي ودموعي في ظهر ذاك العجوز الذي حزمني خلفه، لتمضي القافلة تعبر بنا بوابات الغربة.

استيقظت والشمس تُمطر صباحاً جديداً وأرضاً جديدة، وتلك الوجوه المخبّة في السفر تلقي بعيونها على مشارف الغيب وتحثّ الخطى.

كانت القافلة مكونةً من مجموعة من الحمير وأربعة جمال وعدد كبير من الرجال والنساء والأطفال، وكنت رديفاً لشيخ عجوز أوصاه أبي أن يضعني في عينيه. وعلى طول الطريق كنت أنزلق عن مؤخّرة الحمار الذي نمتطيه فأسقط بين تلك الكثبان الرملية أو بين الأشواك وأظل أتألم. وحين ألمح القافلة تجدّ في سيرها أصرخ بهم فيعود البعض لحملي وإعادتي رديفاً لذاك العجوز.

بعد مسيرة يومين وجدت نفسي وحيداً على ظهر الحمار، وذاك الشيخ العجوز لمحتهم يضعونه في حفرةٍ عميقة ويهيلون عليه التراب ويمضون.

كنت أبكي كلما خطرَ في بالي أن دوري سيأتي وأنهم سوف يلقونني في حفرةٍ عميقة ويطمرونني في التراب ويمضون. ظلّ هذا الخاطر يلازمني حتى انضمّ إلى قافلتنا رجلٌ لوجهه نتوءات الحياة، وكان كلما لمحني منكسراً اقترب مني ومسح على رأسي:

– ما أقسى أبويك حين أخرجاك وأنت لا تزال صغيراً! ألا يعلمان أن الغربة تقتات القلوب والرجال؟!

وكان يحدثني وأنا غارقٌ في طفولتي أستأنس حنانه وأفرّ من وحشتي إلى لسانه الطري. أذكره كالآن، لكنته تبدو جبلية ووجهه المشرّب بالحمرة موارب لا تعرف بماذا يفكر أو لماذا يضحك. تشعر أحياناً أنه غابة من المفاجآت، وحيناً تلمحه كطفلة موشكة على الكذب، ومنذ أن انضمّ إلى قافلتنا وهو يسير على قدمه يتلفّع صوته ويقلّب وجهه في اتجاهات عدة، وبيده تلك العصا الريّانة التي اقتطعها من أشجار "الرديف" يسوط بها الهواء الذي أمامه ويزمّ فمه ويصفر، ويتبعها بدندنةٍ محروقة:

وقال واصب وامعنى

متى رجوعك إلى زبيد

تجده أثناء استراحة القافلة يجلس وحيداً يغنّي أو يبحث عن أشجار "الكين" ويظلّ يلقي بالحجارة في جميع الاتجاهات، لتتساقط حبات "الكين" بوفرة فيجمعها ويقوم بتوزيعها على الأطفال وهو يغني بحزنٍ فاتر، وكان يخصّني بنصيبٍ وافر.

في اليوم الثالث من انضمامه لقافلتنا وجدته يستحلّ ظهر حماري وأنا من خلفه ممسكاً بخاصرته بحنان. في ذلك اليوم أودعته قلبي الصغير وسرت تحت ظلّ أمره حتى إذا قطعنا الحدود أخرجت نقودي التي خبّأها والدي في "كمري" وأسلمته أياها، فصرفها واستأجر لنا سيارة تقلّنا إلى مدينةٍ نائية، تقع في أقصى الشمال، كما فهمت منه، فلم يبقَ إلا أنا وإياه. فبعد اجتيازنا الحدود تفرّق أفراد القافلة ووجدت نفسي وحيداً إلاّ منه. صعدت تلك السيارة الكبيرة التي أخذت تلهث بنا على شريطٍ أسود متآكل لا ينتهي، عندما أحسست بالدوار فتقيّأت على من جاورني لتمطرني أصوات ساخطة بأقذع الشتائم. ضمّني "مسايري" إليه ومدّ إحدى رجليه فوضعت رأسي عليها وأغلقت عينَيّ دون ذاك الدوار الرهيب... ونمت.

لم أشعر إلا وهو يهمزني حين كانت الظلمة تمدّ جناحيها على الكون، فهمست بتعب:

– هل وصلنا؟!

غمغم "مسايري" بأنّ مقصدنا لا يزال بعيداً وأن السائق رضخ لتعب المسافرين

الذين ينوون المبيت في هذه الاستراحة. نفضت النوم من أهدابي وهممت بالنزول، وقبل أن أنزل جذبني من كتفي وهمس في أذني:

- احرص على نفسك دائماً.

بعد هذه الجملة تعوّدت أن أنام وحيداً وبعيداً عن أعين الناس. كنت ألتفّ بكراتين أجمعها من الصباح، حتى إذا جاء الليل أنثرها على جسدي الملقى بين الأخشاب والقاذورات كي أوهم القادم أن لا أحد في هذا المكان - ففي طفولتي الأولى كنت أحمل وجهاً وسيماً تتقافز منه رجولةٌ غضّة - ولم أترك تلك العادة إلا قريباً.

في الاستراحة تناثر المسافرون على الأرائك وأسلموا أجسادهم لها. وحين أصبحنا وحيدين قال لي:

- لا بد وأن تبدو مؤدباً تجاهي حتى وإن صفعتك، فأنت ابني من الآن.

طأطأت له رأسي موافقاً، فتحرك باتجاه صاحب المقهى وطلب لنا عشاءً وكرسيين للنوم بدون فرش أو غطاء، فأسلمت جسدي لواحد منهما وأغمضت عينيّ وذكريات رطبة مجروحة تنزف من مخيلتي، وتعب طفولي يتخثّر في مفاصلي، وحنين عاصف لأولئك الذين غادرتهم، فنمت وأنا أحصي وجه أهلي واحداً واحداً.

في الصباح بكيت أمام صاحب المقهى العجوز ذي التجاعيد الغائرة حينما وجدت نفسي وحيداً. أخبرته أن رفيقي رحل مع الليل حاملاً نقودي، وجمعت قامتي في دمعة كبر:

- سيدي، لا أملك الآن إلاّ غربتي!

اقترب مني ولامس شعري وتمتم برفق:

- لا عليك، فقد رحل وتركك أمانةً في عنقي.

وناولني "مريلة" العمل لتبقة مدلاة على عنقي، وكلما حاولت خلعها وهممت بالرحيل وقف أمامي ذلك العجوز حائلاً ومنعني عنوةً وسمح لعينيه أن تلازمني كرائحتي، ولا أدري لماذا كنت أتراجع أمام تجاعيده الغائرة ونبراته العميقة وأرضى أن يمضي عليّ يومٌ آخر في هذه الوحشة المسبكة.

كان أجري بسيطاً تافهاً يتقاضى منه صاحب المقهى أجرة نومي وطعامي

ويمتنع عن دفع الباقي دون إبداء سبب واضح.

في البدء كان يقول إنه يدّخر لي المال خوفاً من سيلان يدي، ومع مرور الأيام والسنوات عرفت منه أنه ينتظر أبي الذي رحل مع الليل بعد أن تقاضى أجري لأربع سنوات ودفعني إليه وأوصاه أن يحافظ عليّ حتى عودته. وعندما علم ذلك العجوز بأمري ذرفت عيناه وتناشج بحرقة ومدّ يده إلى خزنته ومنحني ورقة "الدخولية" وزودني بمبلغ من المال وكثيرٍ من الدعوات.

وأخذت أتهيّأ للرحيل منتظراً سيارةً عابرة تعيدني لبلدي البعيد.

وفي إحدى ليالي الانتظار كنت أركض بالنار لركاب إحدى السيارات القادمة للتو، حين اصطدمت عيناي بتلك الملامح التي أعرفها جيداً... كان جاراً لنا يكبرني بسنوات عديدة.

اقتربت منه وعرّفته على نفسي. حضنني بفرح وحضنته بلهفة. قال:

– لم يتبقَّ إلا القليل.

واستكملت فرحتي بضربة خفيفة على صدره:

– ها، خبرني كيف الأهل؟

طأطأ برأسه وامتلأت عيناه بالدمع حتى طفحت، عندها شعرت أن حجراً غليظاً يسقط في القلب وأوشكت أن أتهاوى. كنت لا أريد أن يكمل شيئاً، فقط أن يتركني هكذا ويمضي، إلاّ أنه شدّ على ساعدي:

– لم يتبقَّ من بيتكم الكبير إلا أنت... البقية في حياتك، لقد منحوك أعمارهم ومضوا.

بُهتُّ وظللت صامتاً، وظلّ – هو – دامعاً يتحدث بصوتٍ متحشرج:

– قدّر الله، وما شاء فعل. لقد بقيت القرية قاحلةً لسنواتٍ وفجأةً جاء الغضب و"دفر" الوادي وجرف معه أناساً كثيرين... خبّأهم تحت زبده ومضى معربداً.

تركته بعد أن علمت أنني أصبحت غصناً يابساً مقذوفاً في هذه الغربة ولم أعد صالحاً إلا للاحتراق.

ليلتها جلست أجمع ذكرياتي البعيدة وأسكب عليها دمعي، ولم يعد هناك شيء قابل لأن أتصالح معه سوى الموت.

وقفت أمام ذلك العجوز وطلبت منه أن يقيني في هذا المقهى، فلم يعد لي

بيت سواه، فائتمنني على المحل وغادر إلى المدينة ليقضي ما تبقّى من أنفاسه بين أولاده.

***

كان هذا المقهى هو الاستراحة الوحيدة في هذه البقعة النائية، إلا أن السنوات القلائل الماضية نمّت حركة مفاجئة ليصبح هذا المقهى بائساً حقيراً أمام تلك الاستراحات الفخمة والبقاليّات المضيئة.

وقبل أيام مضت تنامى إلى مسامعنا أن صاحب المقهى قام ببيع هذا المقهى، فأصابنا الذعر وسرعان ما أزلنا هذا النبأ بالضحك والنسيان.

ليلة البارحة جاءنا سيّد يفوح بالكبرياء، يرتدي حلّةً بيضاء أنيقة وسبحةٌ ذهبية تدور بين أنامله، ووقف أمامنا، فطأطأنا رؤوسنا ليصرخ فينا:

– ليس لكم، بعد اليوم، عمل هنا؟!

ساعتها، فقط، تذكّرت أنني غريب. فغادرنا حضرته إلى غرفةٍ ضيقة تجمعنا، وحمل كلٌّ منا متاعه واستعدّ للرحيل.

كانت هذه المرة الأولى التي أحزم فيها حقيبة للسفر. فحين قدمت من بلادي لم أكن أحمل إلاّ أملاً ناصعاً ورغبةً ملحة في أن أجمع كل ما أستطيع جمعه وأعود. وبعد أن أرقت دم عمري ها أنا أعود خالي الوفاض، لا أحد هناك ينتظرني سوى قبر صغير أو سرير متقلب من الماء يحملني لكي أرى من ودّعتهم صغيراً.

لا أعرف إلى أين أتجه الآن... هل أعود؟!... لماذا؟ ولمن؟!... وقبل أن أغلق تلك الشنطة المعارة قررت أن أزرع قامتي في أي مكان من هنا إلا العودة.

جاءني أحد الزملاء وحرّضني للذهاب إلى المدينة:

– هناك الأعمال متوفرة... اقبر نفسك في إحداها وتناسَ.

قادني فانقدت له وخرجنا.

في المدينة وجدت أنني غريب حقاً، وعندما لم يجد زميلي متنفساً له بهذه الشوارع الواسعة غادرها إلى بلاده، وظللت أجوب شوارع المدينة بحثاً عن عمل، وكلما سألت طلبوا هويتي فأخرج لهم ورقة صفراء متآكلة قديمة عبرت بها الحدود في زمنٍ مضى، فيضحكون مني ويعيدونها في وجهي.

السير المرهق والبحث الطويل اهتديت بهما إلى مكان يتجمّع فيه طالبو الأعمال ويصطفّون على رصيف رثّ أو لامع، فتقترب منهم سيارة تحملهم ويمضون. فاقتعدت معهم، وكلما اقتربت سيارة ركضت معهم، إلا أنهم كانوا يزكّون بعضهم لطالب العمل وينبذون الغرباء. مكثت عدة أيام أداوم على ذاك الرصيف دون أن يزكّيني أحد منهم. وعندما حاولت أن أصعد مؤخرة السيارة عنوةً دفعوني حتى كدت أفقد أحد أضلعي. في اليوم التالي عزمت على أن أجد ما يقيم عودي حتى وإن عملت مقابل إطعامي فقط.

جلست وسط تلك الأجساد "المالحة" ذات الملابس الرثة والروائح الدفينة في انتظار قدوم السيارات. اقتربت سيارة و"ركنت" في مكان ليس ببعيد عنا. رأيت المنتظرين ينفضون مؤخراتهم ويركضون بهمّة باتجاهات مختلفة، فأسرعت بقدمي صوب السيارة المليئة بالناس على أمل أن أجد لي مكاناً بينهم. كانت مزدحمة يقف على مؤخرتها عسكريان، وما إن رأياني حتى أمسكا بي وزجّا بي داخل ذاك الشبك.

وفي يوم الترحيل جلس بجواري رجل عجوز متهالك يمسح دموعه ويدندن بصوتٍ حزين:

وقال واصب وامعنى
متى رجوعك إلى زبيد

من يغني في هذا الليل؟!

ما إن تخطُ عقارب الساعة متجاوزةً تصف الليل حتى يتدثّر هذا الحي العتيق بصمت رهيب – صمت ينتصب كصمت المقابر الموحشة – وتخور تلك الأجساد المنهكّة الرثة في سباتٍ عميق، ليدبّ صوت الجندب "مصنصناً" مفتتحاً ليلاً من السكون المميت يتداخل معه نباحٍ متقطع، متكاسل، سرعان ما يخبو ليغرق الحي في ظلمة عاتية وسكونٍ رتيبٍ ممل، وأعمدة الكهرباء الخشبية – الهوائية – تغدو كشبح أسطوري جاثمٍ بظلّه على كل مكان... لا شيء هنا سوى الليل وعدد من السيارات التي تجوب الحي ببطء وترقّب.

أما الليلة فهي خارج كل الليالي، فقد ارتفع غناءٌ شجي يقطع نياط القلب وينساب دافئاً حزيناً فيشعل جنبات الحي بالتساؤلات:

من يغني في هذا الليل؟!

في طرف الحي يقطن ذلك العجوز الذي قرضه الزمن ولم يبقِ له إلا تجاعيد مهدّمة وذكريات طويلة من الآهات، فتبقّى كشجرةٍ تساقطت أوراقها، فجثت على الأرض بحثاً عن قبرٍ لها.

هذا العجوز يبيت ليله يجرّب ملابسه القديمة ويعيد سرد سيرته على نفسه بصوت يغلب عليه الأسى، فينام قبل أن يكمل زينته القديمة.

الليلة تحركت مواجعه الراكدة وطفحت محاجره بالدمع حين ارتفع غناءٌ رخيم عذب من ثنايا هذا الليل البهيم، فأصغى له بحنين متوجّع حتى تنفّس الصبح وانتشرت في الأفق تباشير يوم جديد، ليمسح دموعه وينام هادئاً مستسلماً.

في جلسته المعتادة – متّكأً خشبي بجوار بيته – حدّث جلساءه عن ذاك الصوت المجروح ذي الغناء الرتيب المؤنس، وعندما شعر أن مستمعيه لم يعيروا نشوته – بذلك الغناء – أدنى اهتمام، ابتلع رغبته في الحديث وصمت.

إلا أنه عاد للحديث في اليوم التالي والذي يليه، وفي كل يوم يبتكر وصفاً جديداً لذلك الغناء الليلي.

اليوم، وفي جلسته المعتادة، جمع كل المارة... كان يستحلفهم لسماعه حتى إذا استجابوا، فأخذ يحدثهم عن ذلك الغناء الذي ينعش فؤاده ليلياً:

- أعلم أنكم مللتم حديثي، وكل الذي أرجوه أن تضيفوا لصبركم عليّ سماع هذه الحكاية... كنت أجلس كعادتي أنقب في الليل عن شيء يشغلني عن اجترار ذكرياتي الطويلة، منتظراً عبور النصف الأول من الليل لكي أسلم أذنيّ لذاك الغناء الشجي، وما إن بدأ الغناء حتى أحسست أنني أنمو من جديد فتقت لأن أحيا وأعيد كتابة حياتي. كنت منتشياً كطائرٍ يحلّق في أرجاء فسيحة، وبينما كان الغناء يذوب ويصبح ترنيمة عذبة مجنّحة، في هذه النشوة الغامرة اعترتني رغبة ملحّة لمعرفة صاحب هذا الصوت الممتلئ بالحياة، فتجرّأت وفتحت الباب... كان الظلام كثيفاً فلم ألمح أحداً، إلا أن الصوت الرطب الدافئ كان قريباً، فاقتفيت أثره، وكلما سرت سمعته أمامي، وأقسم لكم بخالق النوى أنني قطعت هذا الحي لعدة مرات، وكلما طال بي السير أمعن الغناء في الشجو المجروح.

بدأ المتجمهرون ينفضّون من حوله، وبعضهم يصفّق يداً بأخرى لما آل إليه ذلك العجوز، وأجزم غالبية من حضر جلسته أن الرجل أدركه الخرف، وردموا على حكايته بالنسيان ولم يعد أحد لسماع حديثه الذي لم ينقطع عن سرد حكاية ذلك الغناء الليلي حتى أنّ الصبية أخذوا يرددون سؤاله، كلما رأوه:

- من يغني في هذا الليل؟!

في مكانٍ آخر من هذا الحي، أسرّت فتاة يافعة لبعض زميلاتها بسرٍّ ضاق به صدرها، فأفشينَ حديثها للملأ وفي جلساتهن الخاصة، وتناقلنه كما ورد على لسانها:

- جُبلتُ على الابتعاد عن شجار أبوَيّ الذي يبدأ مع منتصف الليل، فكنت ألجأ إلى غرفة منزوية من بيتنا، وغالباً ما يصاحبني الأرق فأظل أقلّب ليلي بالأمنيات التي يوسوس بها هذا القلب، وعندما يرهقني الانتظار من انقشاع هذا الليل، وأفول النوم من أهدابي، أبعثر أوراقي القديمة وأنشغل برتق وتزيين فساتيني. بعد ذلك أتهاوى على فراشي تاركةً الليل يمضغ ما تبقّى من شجار أبوَيّ. ومنذ عدة ليالٍ

مضت لم أعد أنشغل بشيء سوى بالإصغاء للغناء الحزين المتقطّر شوقاً ولهفةً والذي يداهمني ليلياً.

في أول ليلة سمعت هذا الصوت المغرّد أصابتني رعشة لذيذة وبدأت تلك الأمنيات المختبئة في صدري تتنفس. كنت أتصور أنه قادم على حصانه الأبيض ليحملني معه، وعندما لم يجدني أخذ يبحث عني بهذه الحرقة الساكنة في ذلك الغناء، وكلما أمعنت في هذا الخاطر ازددت بريقاً ونشوة، فأدمنت الإصغاء - لذاك الغناء - وكلما نمت ظلمة الليل تهيأت لانتظار ذاك الغناء، حتى جاءت ليلة البارحة حين كانت رغبة جريئة في داخلي قد نضجت، وقررت أن أعرف صاحب ذلك الصوت الذي يقف بجوار نافذتي طوال الليل يبثّ الحياة في أوردتي بغنائه. وما إن ارتفع الغناء حتى تحركت وأشرعت نافذتنا التي تطل على الشارع الخلفي، حيث كان الليل يقف فتياً في وجهي ولا أحد سواه، فقلبت بصري هنا وهناك إلا أنني عجزت أن ألمح أحداً، فانتقلت إلى نافذة أخرى تطلّ على شارع آخر، فأحسست بشيء ما ينزوي عن عينَيّ ويزداد الغناء رقّةً وعذوبة، فصعدت إلىً سطح دارنا ومن هناك تدلّى رأسي في كل الاتجاهات ولم ألمح أحداً إلا أن الغناء ظل مورقاً، شجياً، يتصبّب رقّةً وجوى. وحين يئست من معرفة صاحب ذلك الغناء عدت إلى فراشي وأغمضت أجفاني، والغناء لا يزال يمشط أمنيات دفينة في خلائي الموحش... ترى:

- من يغني في هذا الليل؟!

وعندما انتشر حديثها في مجالس النساء تغامزن وأجمعن على أن الفتاة قد أصابها العشق من حيث لا تعلم.

في جهة أخرى من هذا الحي، تسكن سيدة في العقد الرابع من عمرها، ومنذ أمد طويل ظلت تمضغ وحدتها دون تذمّر. فمنذ وفاة أبويها وهجرة أخيها - الذي لا تًعلم له أرضاً - انشغلت بتوفير لقمة تقيها الهلاك بعد أن عجز بعض عجائز الحي عن إيجاد رجلٍ يقترن بها، حيث كان وجهها يقف حائلاً أمام إتمام زواجها. وبالرغم من نفور الرِّجال منها، لقبحٍ واضح يتلبّسها، إلا أنها استطاعت أن تكسب جاراتها بقلبها الأبيض ولسانها الحلْو.

في وحدتها هذه، تجلس، في الليل، تغسل ملابس جيرانها مقابل ما يقيم عودها

ويوفّر لها ملبساً ومأوى. وذات صباح أبدت هذه السيدة مخاوفها لإحدى جاراتها بعد أن تكررت حادثة الغناء الليلي معها، ولم تطق جارتها إخفاء تلك الحكاية فبدأت بسردها على كل من يصلها وتصله، ولم تنسَ أن تقلّد صوتها وهيئة حديثها، وتسرد حكايتها كما جاءت:

- بينما كنت نائمة إذا بي أرى أخي يجري في صحراء واسعة، لاهثاً مقطّع الثياب والشمس تقف على رأسه، فيتدلى لسانه، وكلما بلغ نبع ماء وانكفأ ليشرب يشحّ الماء ويعود تراباً، فينهض راكضاً رافعاً صوته بغناء لم أسمع أعذب وأرقّ منه، من قبل. وعندما لمحني أشار إليّ أن أتبعه، فتبعته وهو لا يزال يغني في تلك الصحراء الواسعة، حتى إذا جاء غراب من أقصى الأرض ووقف على هامته ونقرها ليتطاير دمه على وجهي، استيقظت فزعة. تفقت عن يميني ثلاثاً واستعذت من رجس الشيطان، وقبل أن أعيد رأسي للوسادة سمعت نفس ذلك الغناء الذي كان ينشده أخي. في البدء اختلط عليّ الأمر وظننت أنني ما زلت أحلم، حتى إذا استيقظت تماماً وأضأت نور المصباح وأخذت أبحث عن مصدر ذاك الغناء، ولعدم وجود أجهزة في بيتي تبثّ أغاني أو خلافها، أيقنت أن هذا الغناء قادم من أحد البيوت المجاورة، إلا أنني لم أركن لهذا الخاطر طويلاً، فالغناء ينبثق من مكان قريب، وكلما اقتربت من أي جهة شعرت به ينتقل لمكان آخر. شعرت بالذعر إلا أن ترنيماته الهادئة كانت تجتثّ الخوف من صدري، فأزداد إصغاءً لهذا الغناء الشجي ولا زلت هكذا حتى أدركني النوم.

في صباح اليوم التالي نسيت كل شيء وانهمكت في عدة أعمال متفرقة أنجزتها لبعض الجيران، وعدت إلى البيت بعد أن أكل التعب كل همتي ونشاطي، فأسلمت رأسي للنوم لأرى أخي - كما لمحته ليلة البارحة - أشعثَ يركض في صحراء متّسعة، وكلما بلغ نبعاً شاخ ماؤه وغار حتى بدت تجاعيد الأرض قاحلة متشققة، فيرفع صوته مغنياً لها بغناء يقطّع نياط القلب، حتى إذا ظهر غراب من الأفق يخفق بجناحيه ويقف على هامة أخي الذي يظل ساكناً للحظات ثم يرفع صوته بالغناء، عندها ينقر الغراب رأسه فيتطاير دمه في وجهي لأنهض فزعة مولولة، وينهض معي ذاك الصوت دافئاً حنوناً، ينساب في داخلي فأنتشي... وها أنا على موعد - ليلياً - مع الحلم والغناء، وكلما نهضت تساءلت:

- من يغني في هذا الليل؟!

وما إن تنتهِ تلك الجارة من سرد حكاية السيدة القبيحة حتى تكركر السامعة بضحكة طويلة، وقد تردف:

- مسكينة جارتنا، سوف تجنّ في وحدتها.

وقد تقول أخرى:

- لو منحها الله قليلاً من الجمال لنسيت أن تصغي لهمهمات الليل!

وعندما شاع خبر هذه السيدة في الحي هطل عليها النساء وكلٌّ منهنّ تزوّدها بنصيحة، وقد أجمع بعضهن على أن بيتها مسكون بالعفاريت مما حدا بالسيدة أن تذهب لعدة شيوخ ليقرأوا لها القرآن في زوايا البيت وينشروا أدعيتهم وبخورهم، وعندما مضوا استلقت على فراشها ليرتفع الغناء دافئاً رطباً لتنهض من رقدتها تذرع الأمكنة بحثاً عن صاحب هذا الغناء الشجي... كان غناؤه هذه الليلة أكثر حزناً ولوعةً، حتى أنه حرّك مواجعها فبكت. وعندما علم جيرانها ببقاء الغناء أجزموا أن الرجل الصالح يقوم ليلياً بزيارة تلك السيدة ويقرئها السلام ويظلّ يواسيها حتى مطلع الفجر. من ليلتها آنست لهذا الغناء، ومن يومها تحولت المرأة إلى سيدة مباركة تطبّب الناس بالخور والأدعية.

في شطرٍ آخر من الحي، جلست ثلة شباب يصغون لأحدهم وهو يسرد حكاية غريبة:

- كنت أتململ في فراشي وإذا بغناء شجي يداهمني فجأةً ويحيلني إلى موجة صافية، وكلما اندمجت معه أحسست أنني أصبح يانعاً ويتسامق كل شيء في داخلي... خيل لي، في لحظات خاطفة، أنني قادر على أداء نفس الغناء، فركّزت معه لحفظ الكلمات، إلا أنني سرعان ما أنشغل بحلاوة الصوت، فأُسلم له ذاتي، ليغدق عليّ ذاك الإحساس اللذيذ المفرح. انخفض الغناء قليلاً فمددت أذني ليأتيني الغناء خافتاً ندياً منعشاً، وكأنّ المغني أصابته نوبة اكتئاب عقب نشوة، فتقت لمعرفة صاحب هذا الصوت، فتجاسرت ومددت خطوتي للخارج... كان الشارع قطعةً دهماء، فالظلام يعشعش على الحي بكثافة، وأنوار البلدية الموزعة في الأركان قد لفظت آخر قطرات زيتها وأسلمت الشارع لليل والسكون. أمام هذه الظلمة تراجعت لداخل الدار وأحضرت كشّافاً وجلت في كل أنحاء الشارع فلم ألمح

إلا قططاً تمددت فوق أكوام القمائم باسترخاء، أو جرذان ما إن يفاجئها النور حتى تعود تركض صوب مخابئها العميقة... لا شيء حي في هذه الظلمة إلا ذاك الغناء، وكلما بحثت عن مصدره تمدد في كل مكان، فظللت وقتاً طويلاً أجوب الأزقّة، وعندما أوشكت أن أعود من حيث أتيت أحسست أن الغناء يتصبّب من علٍ، رفعت الكشاف عالياً فلمحت طائراً غريباً ذا ريشٍ متناسق الألوان يقف على أسلاك الكهرباء "الهوائية"... هششته مراراً ليخفق جناحاه بشدة دون أن يغادر مكانه. وعندما دققت النظر تبين لي أن رجل العصفور تلتف حولها الأسلاك، فتناولت عصا طويلة ومددتها إليه في محاولة لتخليصه، وعندما عجزت أخذت أضرب الأسلاك بقوة وكلما اشتدت يدي على الأسلاك زاد الغناء في الشدو، وعندما كلّت يداي جلست بجوار عمود الكهرباء منتظراً بزوغ الفجر علّني أستطيع تخليص هذا العصفور، وقد أضمرت النية على الاحتفاظ به في قفص لكي أستمتع بغنائه في كل لحظة. وبينما أنا في جلستي تلك إذا بإحدى السيارات التي تجوب الحي تتهادى نحوي فتواريت مسرعاً، والخوف يدقّ طبوله في صدري، وعندما عبرتني عدت إلى جلستي أستمع للغناء وأنتظر الصباح. وما إن جاء الغلس حتى خمد الغناء وظننت أن العصفور قد مات، فرفعت بصري في اتجاهه فلم أره في مكانه... وقد حدثت لي نفس الحادثة ليلة البارحة... ترى:

– من يغني في هذا الليل؟!

وما إن أنهى حكايته حتى انقلب أقرانه المصغين إليه باهتمام إلى ساخرين. قال أحدهم:

– يبدو أن ولعك بالحمام سيودي بعقلك... ساعتها سوف ينادونك: مجنون الحمام.

فارتفعت موجة من الضحك، يتداخل معها صوت الشاب:

– أقول لكم "عصفور".

وقبل أن يكمل جملته قاطعه أحدهم:

– أصل العصفور كان يرغب في إيصال الكهرباء إلى بيته.

وقال آخر:

– وربما أرسلته الشركة لمعرفة العطل الذي يصيب كبائنها.

وعندما انهالت عليه نكاتهم نفض جلسته وغادرهم.

تسلل الغناء إلى أرجاء الحي وتناقلته الألسن وأيقن أهل الحي أن الغناء ينبثق ليلياً ويظل يشدو حتى إذا أتى الصباح توقّف عن الغناء. وقد أضمر الجميع على اكتشاف صاحب ذلك الغناء العذب الدافئ... فما إن يدخل نصف الليل حتى يجوس الغناء في تلك القلوب المتعبة لتنهض من تعبها تدندن معه، حتى قيل إن الأحياء البعيدة كانت تسمع دمدمة مهيبة، شجية، تنبثق من ذلك الحي، وأخذت تنتظر ذلك الغناء ليلياً. ولا زال أهل الحي من زمن وهم يصيخون السمع ليلياً ويتفلتون زرافات وأفراداً، ويخرجون بحثاً عن صاحب هذا الغناء، حتى أنهم أقاموا المتاريس في وجه السيارات التي تجوب الحي ليلاً، خوفاً من انقطاع الغناء، وما إن تخطُ عقارب الساعة متجاوزةً منتصف الليل حتى تجدهم يسيحون في الحي ويتساءلون بلهفة:

- من يغني في هذا الليل؟!

١٤٠٩/٩/١٩هـ

البرد

الليلة العاشرة والوجوه هي ذات الوجوه... نجلس بصمت "نحمّس" جلودنا بلهب المدفأة ونتثاءب بتكاسل. وجوهنا المتعددة الأليفة تتقلب على تأوهاته، وعندما تسكننا الزيح الباردة – الهاربة من الفضاء إلى عظامنا – نلتفّ حول المدفأة ونكوّر أيدينا ونغرس أنفاسنا بها ونلملم ارتعاداتنا الفيّاضة بتقمير أيدينا على لهب المدفأة.

لهب وبرد وعيوننا تطارد وجهه المتعب بالحكايات والزمن الهارب فيه...

مطّ شفتيه حتى ظننت أنها ستسقط على وجهي، ونثر في تلك الغرفة الضيقة أنفاسه وعاد يستجمعها بصوته الحزين:

– الزمن غادرنا ونحن نغزل شالاً من الحكايات القديمة، وكلما ألبسناه حكاياتنا وجدناه قد شبّ وتطاول، فنعود نرتق حكاياتنا بآهاتنا المحمومة ونمضي في الغزل وهو يمعن في الفرار حاملاً أجسادنا ووميض عيوننا المنتظرة... أجزم أننا لا نحسن التوقيت!

كانت وجوهنا كالأبواب المواربة "تَصرّ" على أطراف حديثه دون أن ينفرج أي وجه، وجهه يبدو مثخناً بالحزن... ألقى بضوء بصره على النافذة المصلوبة بالريح الباردة، تاركاً وجوهنا الرجراجة تتلمّس الدفء.

للريح أزيزٌ حاد يخترق الأخشاب والأجساد فنرتعد... نتكوّر بشكل جماعي وتظل أسناننا تصطك فتخرج كلماتنا مبعثرة:

– حدثنا، أيها الجد، عن آخر الحكايات.

يصمت حتى نظنّ أن صوته تجمّد، فتتحرك أهدابنا دافعةً النعاس المتساقط فينا ونحثّه بحذرٍ رتيب أن يحدثنا... عيناه متوجستان، تتنقّلان بيننا بلهفة ونحن مازلنا نقلّب أيدينا على لهب المدفأة.

جاء صوته بطيئاً ثقيلاً:

- إن رائحة الغرفة تشي بأن أحدكم مات وأنتم لا تعلمون!

في البدء قهقهنا بصوت مرتفع حتى تلاشت ضحكاتنا ليسكننا التوجّس. تلمّست عيوننا بعضها بعضاً حين ندهت صرخةٌ مكتومة... كان متجمّداً في آخر الصف ما إن لكزناه حتى تكسّر!

فانقبلنا نشوي أيدينا على المدفأة والريح المعبّأة بالقسوة تحمل ندفاً كالقطن المهتم وتذريها بين عظامنا فيزداد التصاقنا بثيابنا الصوفية الثقيلة.

كان صوته يصرخ فينا:

- لا تتكوّروا في ثيابكم... تحركوا قبل أن تتجمّد دماؤكم، قبل أن تصبحوا قبوراً مثلجة.

على صوته كان الباب يقرع، لم يستطع أيٌّ منا أن يغادر مكانه فبقينا نحتزم عظامنا وارتعاداتنا المجلجلة ونزداد التصاقاً بالمدفأة لا نبرحها.

ارتفع صوته ثقيلاً بارداً:

- في الزمن الغابر كنت قادراً على ملء الكون بالحركة. كنت أجلس مجلسكم هذا أمام جدي الكبير، وهو يحكي حكاية فارس الفرسان، ومبدّد الجموع، ومورد الأنفس حياضَ الهلاك... يُنزل سيفه فتتناثر الأجساد وتتدحرج الهمسات... يقف على الجثث ويزأر.

كنا مفتونين بهذا الفارس، نتسابق ليلياً إلى أماكننا لنكمل تلك الحكاية المتخمة بغبار الماضي وزوائد الرواة، وكان في كل ليلة يبدأ جلسته برديد:

- الحياة حركة، فلا تركنوا للموت!

فأهبّ من مقعدي وأقفز أمامه قفزات متتالية وأنا محبور، وقد أرفع صوتي:

- لن أموت الآن!

فينثر ضحكته على عتبات وجهي ويمسّد على شعري برفق:

- الحركة أن تسير عكس اتجاه الموت... وأن لا تسير وحيداً.

بعدها صمت طويلاً، وحين أفاق من صمته أطلق زفرةً حادة ثقبت ركودنا:

- نعم... الموت أن تموت وحيداً!

لم أفهم ما يرمي إليه. ولوجود رغبة داخلية أكيدة في قطع هذا السيل من

الأحاجي استحلفته أن يكمل حكاية فارس الفرسان.

في تلك الليلة بكيت طويلاً واستحلفته أن يغيّر مجرى تلك النهاية المخزية لبطلي الصنديد. فقد حكى أنه أتى على قريته وأغرق السيف فيهم حتى إذا ارتوت الأرض وفار الدم من الحقول. صرخ بأعلى صوته:

– أنا القاهر... أنا كل شيء... فهل من مكذِّب؟

حين كانت ريحٌ موحشة تعبره بلا اكتراث، والكون الساكن إلا من حفيف الأشجار الهرمة التي تذري السكون في واجهات القرية، وعندما سكن فؤاده، تطلّع إلى أنقاض الأجساد واسترحمها أن تنهض وتصفّق له وتحمله عالياً وتردّد أناشيد البطولة على صرخاته. وعندما يئس أشهر سيفه وركض في بلاد الله يبحث عمّن يرفع هامته بالتبجيل، وكلما قطع أرضاً رجموه:

– ابتعد عنّا أيها الغريب!

فيلقي بينهم سيفه ويمضي تاركاً دماً وريحاً موحشةً تعبره بلا اكتراث، وبينما كان يسير وحيداً استقر سهمٌ في مثانته وتركه "يتشمّم" رائحة بوله قبل أن يموت.

– أيقن، الآن، أنّ الموت هو أن تسير وحيداً.

وعندما كبرت ووجدت نفسي أجلس مكان جدي أروي الحكايات، تعلّمت – الآن فقط – أن الزمن يسفك دمه يومياً ويستبدله بدمائنا الطازجة.

مازال الباب يقرع، ومازلنا نتكوّر في أرديتنا الثقيلة والريح الباردة تتحرك فينا فنغدو قوالبَ من ارتعاشات وأكواماً من أجساد محنّطة، نستلهم الحياة من المدفأة بحذر وتثاؤب.

القرع يتمدّد على الباب وفي مسامعنا... كانت عيناه مغروستين بنا جميعاً:

ليقم أحدكم لفتح الباب.

فاشتعلت جنبات الغرفة بالأعذار:

– أنا شيخ أصابني الكبر والبرد.

– قامتي لا تصل إلى المزلاج.

– لقد أكل العمى بصري فلم أعد أرى.

– لن أخاطر بنفسي في هذا الجو المهلك.

– بدل أن تأمر، افتح الباب أنت.

لمحت عين جدي تشير عليّ بفتح الباب، أصابني الفزع، فأنا غير قادر على أن أغادر المدفأة لعدة خطوات فكيف لي أن أتحرك خطوات عدة. وأمام عينيه الصارمتين الملحّتين استجمعت أنفاسي وأطلقتها بين راحتي وتكوّرت بأغلال الصوف ونهضت مرتعداً.

كان مزلاج الباب مغطى بالثلج، أزحته – بعد عناء – فبدا لي رجلٌ يتصبب عرقاً! وبتأففٍ مقيت صرخ محتداً:

– يا لهُ من صيفٍ مهلك! وأنتم كالجرذان تختبئون داخل هذه الغرفة.

دلف حجرتنا وصوته يصبّ ما تبقّى من تذمره:

– إنهم ينتظرونكم خلف الباب، وأنا...

لم يكمل جملته حتى احتضن عظامه وانطلقت أسنانه تصطكّ بعنف وهو يرتعد ويصرخ:

– إنه البرد، غطّوني... غطوني...

وأخذ يسابقني إلى مكاني... بجوار المدفأة.

ألق

- ألم يدقّ الجرس؟

أطلق السؤال بوجه زوجته وتابع ملاحقة زفراته المحمومة. كان وجهها عابساً، مغلقاً، ينبئ بضيقٍ طافح وحسرةٍ مرتوية. عمّقت النظر إليه - بقرف - وأطلقت بدورها زفرةَ ضجرٍ قديم:

- ألا تملّ من هذا السؤال؟

واقتربت منه بتثاقل و"بلعته" أقراصاً مهدئة وأسدلت عليه الغطاء، وتحركت صوب غرفة جانبية.

كانت الأدوية متناثرة من حوله، وهو يرقد على سرير ذي أغطية رثة، وقد بزغت عظام وجنتيه، والتصق زبدٌ متيبّس على شدقيه، وظلت عيناه الغائرتان تتابعان التلفاز الذي استقرّ في مواجهته تماماً، وبين لحظة وأخرى ينادي على زوجته فتجيبه بعد أن تتيبّس حلقه، وإذا رآها سألها بلهفة وتشوّق:

- عندما كنت نائماً، ألم يزرني أحد؟!

فتعود من حيث أتت دون أن تردّ عليه، بينما ظلّ صوته يتبعها بإلحاح:

- أولم يدقّ الجرس؟!

***

صائمٌ بابنا عن الطرق، وكنت في أوقات كثيرة أنهض من فراشي مترنّحاً وأمسك بأكرة الباب منتظراً أن يدقّ... فقط أن يدق، وكانت اللحظات - الطوال - تمضي دون أن تمتد إليه يد. أحياناً كنت أتخيل نغمة الجرس فأنهض وأفتح الباب بفرح، فيجتاحني هواءٌ بارد، لأعود إلى مرقدي أرتعد، وأجمع تلك الأغطية وأقبر جسدي

بداخلها، وأدور في فراغ لا ينتهي.

اليوم لم أعد قادراً علّى النهوض، واكتفيت بتعليق سؤالي الملحّ:

– ألم يدقّ الجرس؟!

ملّت زوجتي هذا السؤال البليد، وأخذت تنزوي عني جانباً وتشغل نفسها بالهمهمات التلفونية.

كان الوقت يمضي وأنا أتململ في مرقدي، و"أهوجس" في أمور عديدة، ولم يكن يشغلني سوى هذه الخواطر البائسة المتدفقة بوحشة طاغية... تغدو الحياة مملةً حينما لا تجد ما يشغلك سوى مضغ الماضي بحسرة... أن تعيش داخل الذكرى تكون حياً بها ميتاً خارجها، ويصبح حاضرك لحظةً منتهية الصلاحية لا يمكن لها أن تمدّك بقليلٍ من حلم تثقب به جهامة الغد... هذا الغد الذي لم يعد قادراً على أن يتجدد؛ لمْ يعد قادرًا على شيء سوى أن ينخر عظامنا ويدنينا من الكفن.

كان التلفاز يهذي بأقوال وأخبار عديدة تعبر مسامعي دون أن تثيرني. فجأةً انجذبت لا شعورياً إلى المذيع الذي كان يتلو نبأ صادراً عن وزارة الداخلية:

– ... أقدم المدعو سعيد بن عائد على قتل صاحبه عطية أحمد في شجار نشب بينهما على قطعة أرض كان كل منهما يدّعي ملكيته لها، ولم يتوانَ المذكور عن قتل صاحبه حيث ضربه بعصا على جمجمته وظلّ يضربه حتى فارق الحياة، وقد نُفِّذ به القصاص اليوم...

غمغمت بحزنٍ عميق:

– أوه، ماذا يحدث لنا؟

وانتابتني موجة بكاء حادة، أحسست بعدها برعشة تعتريني ودوار عنيف يلفّ برأسي، ولم يعد هناك لأي شيء مستقر... كل شيء يهتز ويتحرك من مكانه، فمددت يدي للدواء المقذوف بعيداً عن سريري، وقبل أن أصل إليه كنت قد دخلت في إغماءة طويلة.

***

مضت فترة طويلة وأنا أترقّب زيارة الأصدقاء، أولئك الذين كان بهم القلب جنةً

من أنس... هل يعقل؟... ألم يعلموا بمرضي إلى الآن؟... ألم يفتقدوني؟... لا لا، ليس هذا ممكناً... لا بدّ وأنهم علموا ولكن مشاغل الحياة تسرق لحظاتنا الجميلة... ألم يفتقدوا تغيّبي عن مجالسهم، وأصدقاء العمل ألم يلاحظوا تغيّبي الطويل؟!... كنت أحاول الاتصال بهم عبر الهاتف إلا أن زوجتي أخبرتني بأن هاتفنا لم يعد يعمل لانقطاعي عن تسديد عدة فواتير، وقد أخذته وألقت به في غرفتها... أوه، لماذا لا أذكّرهم بصداقتنا... أذكّرهم بتلك الأيام التي كنا فيها ملتصقين كالكفّ بالمعصم... نعم، لا بدّ... ولكن كيف لي وأنا غير قادر على الاتصال بهم، وغير قادر على الخروج... أوه، لماذا لا أكتب لهم؟... سأكتب لهم، وسأحاول جاهداً أن تكون رسالتي مؤثرة، سأعاتبهم، وسأشتكي لهم بمرارة... لا... لا بدّ وأن يشعروا بي كما عهدوني... نعم كما عهدوني... فلم يعد هناك من يحمل حزن الآخر.

مددت يدي وتناولت ورقة صقيلة منقوشة بالورود، وانتظرت لحظات أستجمع الكلمات، وفي كل مرة أغيّر ما كتبت، وأخيراً استقريت على نصّ الرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأوغاد[١] الأعزاء

تحية من جنوب القلب إلى شمال الحب

أكتب لكم من على سرير المرض - لا أراكم الله مكروهاً. قد كنا فيما مضى وريداً ودماً، وجز المرض ما بيننا، فها أنا أسفح أنفاسي وحيداً بدونكم، فردّوا إليّ سلوتي بكم.

أيها الأوغاد:

قد تقولون: حتى على سرير المرض يحتزم بكلماته المنمّقة، وأقول لكم هي جسري إليكم، وإذا كنتم لا تحبّذونها فسألقيها في جوفي بجوار القمائم العديدة الملقاة هناك شرط أن تكونوا بجواري، وخاصةً في هذا الظرف اللعين... آه لو تعلمون مقدار

---

١ عفواً على هذا اللقب الذي أضفيته عليكم، وإنما أوردته من باب رفع العتب، وأتندّر لأذكركم بأنني ظلكم الخفيف.

حاجتي إليكم.

أيها الأصدقاء الخُلص:

كما أنا مشتاق لكم، وأصارحكم بأنني أحبكم بجميع صوركم... كذبكم... نفاقكم... انتهازيتكم... سخريتكم... بجميع تلوناتكم...

هيا تعالوا... تعالوا فستجدونني في أفضل وضع للسخرية... فقط تعالوا وسوف أساعدكم في استنباط النكات التي تدمع لها العين...

صديقكم المخلص إلى الأبد
يحيى أبو خالد
حُرِّرت في ١٤١٢/٢/٢

قرأت تلك الرسالة مراراً حتى إذا رضيت عنها قمت بنسخها بعدد أصدقائي، وظرفتها، بعد أن كتبت عنوان كل منهم على ظرف مستقل، ورجوت زوجتي أن تدفع بكل تلك الرسائل للبريد، ورقدت على فراشي مطمئناً أنتظرهم.

***

باتت زوجتي تضيق برقدت، وتبدو أكثر ضجراً مما مضى، حتى أنها أصبحت تنام في غرفة أخرى بعيداً عن أنيني وتوجعي. أذكر أمي التي كانت تقف على رأس أبي لو أن وعكةً ما أصابته... كانت تجلس أسفل قدمه ودموعها تتساقط، ودعواتها تتوالى بأن يرفع الله الضرّ عن زوجها، لا تنقطع عنه لحظة، توصل الليل بالنهار.

وها أنا مقذوف في غرفتي أنادي حتى ينتفخ بطني، وإذا أتت تُشقّق وجهي بصراخها:

– هه، ماذا تريد؟ لم يدق الجرس، ألا تفهم؟!

وتعود من حيث أتت، بينما أكون محتاجاً لها في أمر آخر لا علاقة له بدقّ الجرس.

الليلة أصابني الظمأ، وكان صوتي واهناً، متهاوياً. ناديت عليها مراراً فلم تجبني، فتحاملت على نفسي ونهضت مترنّحاً، وعبر الممر المؤدي للمطبخ

كانت همهماتها عبر الهاتف تصلني واضحة:

– أرجوك لا تؤجّل اللقاء!

شربت حتى غدا قلبي فحماً خالصاً.

***

وقفت أمام المرآة تتزيّن: فركت خدّيها فسرت حمرةٌ خفيفة على وجنتيها، ومررت على شفتيها قلم "روج" قاني الاحمرار، وشدّت فساتها الخمري فأبدى صدراً نافراً وخصراً ضيقاً، وقد تطايرت خصلات شعرها بفوضى منسّقة... تبدو في هذه الساعة أكثر جمالاً مما مضى! كنت أودّ أن تجلس بجواري، فجذبتها برفق فاستجابت على كره.

ومضيت أحدثها عن أيام زواجنا الأولى، فكانت تستمع إليّ بصبرٍ نافد، وتعلق عينيها بساعتها الذهبية التي حصلت عليها كهدية من إحدى صديقاتها، كما أخبرتني. وكانت هناك رائحتان تجوبان غرفتنا: رائحتها الدبقة بعطر باريسي فاخر، ورائحة الأدوية التي تفوح من جسدي فتبعث الاشمئزاز في وجهها، لتنهض حاملةً عباءتها وعابرةً لهاثي:

– إلى أين؟!

– سأبعث برسائلك علّ أحدهم يريحنا من سؤالك الممل!

ارتجّ الباب لخروجها، وأصبح البيت خاوياً إلا من أنفاسي التي تتكرر برتابة، وكان الفراغ دوامةً تجذبني للأسفل، وليس هناك ما ألوذ به سوى بكاءٍ صامت.

***

رنينٌ قصير يصل مسامعي فتخضرّ له أعماقي، فزت من مرقدي وألقيت بغطائي بعيداً، وهممت بالتوجّه لفتح الباب، وقبل أن أخطو توقف الرنين وعاد الصمت مطبقاً، فتراجعت وأنا ألوم نفسي:

– سوف تجنّ إذا أنت أمعنت في هذا الوسواس.

فعدت واستلقيت في فراشي.

رنين ممتد...

لا لا... لا بدّ وأنني أتوهم... هل حقاً ما أسمع... نعم إنه جرس الباب يرنّ بإلحاح... هل نسيت شيئاً ما وعادت لحمله، أم أنها لامت نفسها لتركي في مثل هذه الظروف؟! ولكنها تتركني دائماً.. لا ليست هي فمفتاحها معها... آه، ربما أحد الأصدقاء تذكّرني... ترى من منهم؟!

على أي حال سأرحّب به، وسأقبّله كما لم أقبّل أحداً من قبل، وسأشكره شكراً يفوق الوصف.

لقد أمضيت وقتاً في هذه الخواطر، عليّ أن أسرع بفتح الباب قبل أن يملّ الطارق ويمضي... وبينما كنت أحاول النهوض كان ثمة خدرٌ عجيب يهوي في أعماقي. جاهدت كثيراً ونهضت مترنّحاً ومستنداً على الجدران... في عبوري باتجاه الباب لمحت وجهي في المرآة، كان ضامراً، مغبرّاً، وكدت أن أعود لأغسله بالماء والصابون علّه يعود ناصعاً... سأستقبل ضيفي، وبعد ذلك أصلح هيئتي... كانت خطواتي ثقيلة يابسة، والجرس لا يزال يصلني حاداً ومتصلاً... بصعوبة بلغت الباب وأدرت كرته بلهفة وتشوق، وحينما رأيته ذويت وتهاويت... كان الموت يقف على الباب ويأمرني أن أتهيّأ للرحيل!...

١٤١٢/١٢/١٠ هـ

جدة

آها ها...

هذه ليست المرة الأولى. لقد حدث ذلك مراراً، وفي أماكن متفرقة ومتباعدة، والذي يدهشني، أو الأصح يحيل حياتي إلى كابوس مرير، هذا التصرف الأرعن المستهجن... أكان لا بدّ أن أوقف كل شخص وأسأله:

– ما الذي يضحكك؟!

لو حدث ذلك فعليّ أن أوقف كل العابرين، وبالتأكيد لن أخرج بالجواب الشافي. يحدث هذا مع كل من قابلته، فبمجرد أن يراني حتى يستحيل إلى موجة عاتية من الضحك المقزز، وبدون سبب كما يظهر لي. أول مرة حدث لي هذا الموقف حينما كنت في زيارة لأختي، فقد قطعت زيارتها لوقت طويل وانشغلت بأعمالي التي لا تنتهي، وقد ذكّرتني بانقطاعي غبر مهاتفة سكبت فيها الدموع والعتاب الحار، فاعتذرت منها بخجل ووعدتها بزيارة قريبة، ولهذا السبب قطعت مواعيد عديدة كنت مرتبطاً بها، ومررت بالسوق لشراء هدية لابنها الصغير، وقد احترت أمام بائع الملابس في تحديد مقاسه أو عمره، مما حمل البائع على كتم ضحكاته وتوارى خلف "فترينة" كانت تفصلني عنه، فكنت أسمع خشخشة ضحكاته المكتومة مما زادني ارتباكاً، فاعتذرت بارتباك:

– عذراً لعدم معرفتي لمقاسه أو عمره، فأنت تعلم أن الأبناء يكبرون في غفلة منا.

وصلني شهيق متقطع، ولكي لا أدخل في إحراجات إضافية فقد قررت أن أمنح ابن أختي مبلغاً من المال وأعتذر لأختي طالباً منها أن تشتري له هدية نيابةً عني. لذلك أسرعت بالتوجّه إلى شقتها، ودققت الجرس متوقعاً أن تفاجَأ بسرعة تلبيتي لزيارتها، وما إن فتحت الباب حتى استلقت ضاحكةً وهي تمدّ يدها صوب وجهي. وأمام هذا التصرف المفاجئ اعتراني الإرتباك وأخذت أتطلع حولي وأتحسس وجهي براحة يدي علني أتعرف على ما يضحكها، ولكن عبثاً ذهبت كل

محاولاتي، وعندما عجزت عن معرفة سبب ضحكها المفرط حاولت أن أعرف منها السبب وراء ضحكها، لكنها لم تتوقف بل سالت دموعها، وكلما حاولت ابتلاع شهقاتها المرتفعة ومسح دموعها السائلة على خدّها الناعم غلبتها كركرتها فتعاود الضحك المرتفع وإمساك بطنها الذي انفتح من قهقهاتها المتواصلة، فتركتها والدموع تتقافز من عينيها ويدها تحاول كبح ضحكاتها الملاحقة.

كان يمكن أن أتناسى هذه الحادثة بسهولة لولا أن حارس العمارة – وهو رجل عابس على الدوام لا يزكي وجهه بابتسامة أبداً – ما إن رآني هابطاً من المصعد حتى انفرجت أساريره وقذفني بضحكة عميقة مقززة أثارتني كثيراً، فأطبقت على حلقه وهويت بقبضتي على فكه الذي اتّسعت ضحكته، ولم أجد بدّاً من إسقاطه من يدي تاركاً نزيفه وضحكاته تسيل بالممر الطويل.

شيء ما يحرّك هذا الضحك الأرعن، فكلما أطللت بوجهي في أي اتجاه وجدت تلك الضحكات تتّسع وتتمدد... تتمدد وتستحيل إلى أزيز ينخر رأسي، وعبثاً حاولت معرفة سرّ تلك الضحكات.

في كل مكان أقف فيه تقابلني الضحكات؛ تلك الضحكات المستهجنة التي تنخر قحف جمجمتي ولا أجد لها سبباً واضحاً، ولا أستطيع تحملها، فأخلي لها المكان وسيل القهقهات يتبعني بصخب.

وقفت أمام المرآة طويلاً وتفحصت وجهي: كان وجهاً صقيلاً لامعاً تتقافز منه ملاحة لذيذة، فالأنف مستقيم باستقامة رهيفة يطلّ بزهو على شاربٍ كثّ وفم مغلق لا يتّسع للقمتين في آنٍ واحد، وله وجنتان منبسطتان كأرض ممهدة تقف فيَّ أعلاها جمجمة مستوية يهفهف من فوقها شعرٌ ناعم غارق في لونه البني الداكن، وثمة عينان يشعّ منهما ذكاءٌ حادّ يشي أن صاحبه يخترق الحياة بيسر وثقة. فردت قامتي الفارعة ومشيت كسهم لا يعرف الانحناءات... كل ما بي لا يدعو لتلك الضحكات المنثورة في طريقي باستهجان:

– إذاً، لماذا كل هذا الضحك؟!

كان يقف هذا السؤال بذاكرتي كلما عبرت أحد أولئك الضاحكين، فأتطلّع إلى المحيطين بي فأجدهم غارقين في الضحك دون أن يتطلّعوا إليّ مباشرة، فألعنهم جميعاً وأغادر المكان. وبفعل هذه النزوة غير المسؤولة فقدت طعم الحياة وأقلعت

عن الذهاب إلى العمل بعد تلك الحادثة.

حاولت جاهداً أن أقبر نفسي بين تلك الأوراق المتناثرة فوق مكتبي بينما كان الزملاء يقتعدون مكاتبهم وضحكاتهم الطائشة تموج في دهاليز الإدارة. ولم أستطع أن أتمالك أعصابي أكثر مما مضى، فقذفت بأوراقي ولعنتهم واحداً واحداً، إلا أن ثورة غضبي لم تثر أياً منهم ولم يعيروني أدنى اهتمام، فقد كانوا يمسكون ببطونهم ودموعهم تنزّ على وجوههم ويضربون بأيديهم طاولاتهم وكأنهم يستحثون أفواههم على إطلاق المزيد من تلك الضحكات المرتفعة في سباقٍ مميت. ولم أجد بدّاً من كتابة "عرض حال" لمدير الإدرة أتضرر فيه مما لحقني من أذى نفسي بسبب تلك الضحكات المتواصلة، فكتبت معروضي شارحاً لسعادته كل ما أجده من ضيق وراجياً منه إنصافي ومساءلة زملائي عن سر تلك الضحكات المستهجنة، وقد أقسمت له أنني لا أثير الضحك أبداً، ولا أمقت شيئاً كمقتي للضحك، وذكّرته بالعام المنصرم حينما منحتني الإدارة "علاوة" استثنائية نظير عملي المخلص الدؤوب. وظرفت "معروضي" بعناية واتجهت إلى مكتبه، بينما زملائي كانوا يواصلون ضحكهم المخزي. وقبل أن أدخل عليه تعاركت مع سكرتيره الذي ما إن رآني حتى استلقى على مكتبه ضاحكاً بمرارة، وفكرت بإلحاقه بأسماء من تأذيت منهم لكنني تراجعت خشية أن يظن بي المدير العام الظنون لمعرفته أن لا علاقة تربطني بسكرتيره، إضافةً لقرابته المتينة منه، لذلك دفعت الباب على عجل ودخلت عليه مبدياً تذمري، بينما كان وجهي يطفح بعبوس طاغ، ومددت خطواتي بتلك الغرفة العريضة. وعندما وجدني أقف على رأسه، مادّاً بمعروضي، رفع رأسه من بين الأوراق التي كان يتطلع إليها ونهض على غير العادة، ولأول مرة أراه يتخلّى عن وقاره وينخرط في ضحكة مجلجلة هزّت أعماقي، فلم أتمالك نفسي حيال ضحكاته، فقفزت عالياً وألصقت يدي – بكل قوة – بوجنته اليمنى أحسست معها أن فكّه سيسقط على الأرض، لكنه لم يوقف ضحكاته العميقة أو يثأر لنفسه، فانكببت أكتب استقالتي وخرجت راكضاً بينما كانت الضحكات تتبعني كالسيل المنهمر.

ما الذي طرأ على هيئتي حتى أصبحت مثاراً لكل هذه الضحكات المتعالية؟ أأكون أحدثت شيئاً تذكّرهم طلعتي به؟ أو أن في ملابسي شيئاً يدعو لكل هذا الصخب؟! لا بد وأن ثمة شيئاً حدث دون أن أتنبّه له... فما هو هذا الشيء؟!

لم يعد أمامي إلا أسئلة أُنشئها وأنقضها، فأغلقت كل المنافذ التي توصلني بالخارج. فبعد متابعتي التلفاز أيقنت أن ثمة مؤامرة تُحاك ضدي، فقد كان فم المذيع يفتر عن ضحكة صامتة كلما تلاقت أعيننا، بالرغم من أنه كان يتلو فاجعةً حلّت بإحدى العواصم... ساعتها أيقنت أنني دخلت مرحلةً خطيرة وأن ثمة عناكب تغزل هواجس وتشرعها أمام بصري، وأيقنت أنني مقدم على انهيار عصبي سيؤدي بما تبقّى لدي من جلد.

في بادئ الأمر كذّبت عينَيّ وأخذت أتربّص بالمذيع بين فترة وأخرى، فلمحته يمدّ لسانه ويرفع يديه إلى أذنيه ويهزّهما كجناحي عصفور يهمّ بالتحليق، فأسرعت بإغلاق التلفاز وكدت أن أجهش بالبكاء، ولكنني تمالكت نفسي وأخذت أتحدث بصوتٍ مرتفع لإقناعها بأن ما يحدث مجرد أوهام عشعشت وشاخت بمخيلتي. ولكيً لا يتجدد يقيني فقد امتنعت عن مشاهدة التلفاز وأصبحت حبيس جدران غرفتي، وإن امتدت قدماي للشارع فإنهما يتوصلانني إلى أقرب مكتبة لأختطف جريدة وأقذف بثمنها قبل أن تمتد ضحكة صاحب المكتبة، وأعود مسرعاً على غرفتي لأتصفح صفحاتها، فأرى أولئك الضاحكين يتابعونني بصمت عبر تلك المفارقات العظيمة بين سطورهم، فأقذف بالجريدة وأوقن تماماً أن ثمة مؤامرة تحاك ضدي. وبدون هدى ركضت صوب طبيب نفسي لأودعه وساوسي ورعبي، ولم يكن أفضل حالاً ممّن قابلتهم، فما إن رآني حتى سال فمه بضحكة طويلة لم تمهلني لأن أقتعد كرسيه، فغادرته قبل أن يسترجع أنفاسه.

وجالست الصمت... صمت أقتاته ويقتاتني، أصل إلى أبعد نقطة فيه ويصل إلى عقلي ينغشه ويعبث به، يجزئه ويسحقه وينثره في الهواء، وأمضي الليل أجمعه، وفي النهار أبسطه مرةً أخرى.

ذات صباح اشتقت لرؤية لشارع؛ اشتقت لسماع كلمة، أي كلمة إلا ذاك الضحك، فمددت يدي إلى دولاب أمي وعبثت بمحتوياته فوجدت عباءة مهترئة – لأمي التي تركتها وتلحفت بالتراب – وعلى عجل ارتديتها وعبرت الشوارع بثقة، وكم كانت مفاجأتي عظيمة حينما وجدت أن الكل لا يزال يهرب ضحكاته الجافة في وجه كل من يراه، فقذفت بالعباءة جانباً وانطلقت أوزّع ضحكاتي في وجه كل من أراه.

محرم ١٤١١ هـ

مسامير بحر سلمى

البحر يمتد كطلاء زيتيٍّ لامع، والأمواج تتثاءب باسترخاء مملّ، وثمة قوارب متناثرة تلوح كمسامير فضية دُقّت بعرض حائطٍ أملس، وموّالٌ بارد باهت يأتي ممتطياً ريحاً ثقيلة ويطرق الآذان بتقطّعٍ رتيب:

ليه يا سلمى

والسحابة تعدت من هنا

حاملة الما

واستحلت "دماها" عندنا

بينما كانت العيون على الشاطئ معلقة بتلك القوارب المتناثرة، تحرق بشوق ولهفة، وأصواتها تتلقّف ذاك الموال المتقطع بأهازيج الترحيب، وتمضغ الانتظار بالتهيؤ لملاقاة الأحبة.

فجأةً تخلّت الأمواج عن تثاؤبها واستلقت كحلمٍ صغير، وتوقّف الموّال في الحناجر، وغدا الأفق شراعاً من دم.

وتلك القامات الناحلة ذبلت، وثمة جرحٌ انبثق للتو، فسالت الحناجر تدمدم بهمّة:

هيه يا بحر

هيه والله

يا ملح يا سكر

هيه والله

هيه يا بحر

خرجنا مع بزوغ الشمس نلتحف شوقنا وفرحتنا بالقادمين، وتفرّقنا على امتداد الشاطئ ننتظر قدوم تلك المراكب التي أبحرت منذ شهورٍ عتيقة، وكان كلٌّ منا

ينتظر شيئاً ما... شيء له رائحة الفرح واخضرار المواويل الشجية.

رفعت أمي يدها وأشارت للبعيد:

- انظر... هناك... ذاك هو مركب أبيك.

فلوّحت بكلتا يديّ، وفرحةٌ غامرة تتقافز من داخلي، وأنامل أمي الخشنة تعبر رأسي برفق، وصوتها ينداح محروقاً:

- خرج من أجل أن يأتي لك بالبحر، أو علّه يجد لك عشبةً بحرية تجذب قامتك للأعلى.

كانت أحاديث كثيرة تقف على شفتي... تلك الأحاديث التي تبدأ بالشوق وتنتهي بأن أطأ البحر.

عيناي تتابعان ذلك القارب الرابض في عرض البحر، وأمنية حثيثة تقطع القلب، وغمغمة أمي الحزينة تعبرني:

- مغرم، هو، بالبحر. ناداه في ليلة عرسه، فتركني ورحل... ذاك الرحيل الذي لم ينته بعد، فكلما عنّ للبحر أن يغني، أو يزمجر، نهض أبوك من مخدعه ورافقه، وأنا أَجلس هنا، أمشّط خوفي بالدعوات... كنت أقول له: "البحر مقبرة، دعه وابحث عن رزقك في مكان آخر"، فيضمّني بابتسامة عتيقة مالحة.

عند عودته من كل إبحار يكون البحر قد أكل جزءاً منه. الشيء الوحيد الذي لم يستطع البحر أن يقرضه - منه - هو عناده... فإياك والبحر... إياك يا بني.

كنت غير عابئ بغمغماتها، فعيناي ترقبان ذاك القارب النائي، ولهفة أن أرتقي ذراع أبي تستطيل بالفؤاد.

كان المستقبلون يتزاحمون، ويرفعون أصواتهم بالأهازيج المثقلة بالشوق، والمراكب على مدّ البصر... وظلوا يستعجلون الموج بصوتٍ حزينٍ داوٍ:

هيه يا بحر

هيه والله

مدنا بالسكر

أيه والله... أيه والله

الموج قطعة زبد جامدة، والوقت يمضي، والمراكب لا تبرح أماكنها، ولهفتنا تشيخ وتشبّ على عتبات العيون وبين مفارق الشفاه.

ذابلٌ هو الأفق، وهذا المساء تتقطّر من جبينه ليلةٌ موحشةٌ بائسة أخذت تتهيّأ لأن تبسط أطرافها على المدينة، والمترقّبون دلقوا أغانيهم الأخيرة وجلسوا منتظرين أن يزفّ الموج تلك القوارب الساكنة.

في هذا اليأس الصارم انبثقت صرخةٌ عاتية، لتنهض لها تلك الأجساد المنتظرة بهمهمة عارمة:

– علّهم في محنة، فمدّوا خطاكم إليهم.

واندفعنا جميعاً صوب البحر، وركضنا... وركضنا... وركضنا... فجأةً صرخ أحدنا بفزع:

– يا الله، لقد استحال الماء أرضاً يابسة.

ساعتها كانت أجسادنا متناثرة كمسامير دُقّت بعرض حائطٍ أملس، وارتفع من بيننا موالٌ حزين:

ليه يا سلمى

والسحابة تعدت من هنا

حاملة الما

واستحلت "دماها"[١] عندنا

٨ من رجب عام ١٤٠٩هـ

---

١ مقطع خبيتي، وأصل الكلمة في الأغنية بماها وليست دماها.

الحافلة

- أكاد أن أنفجر.

همست لمساعدي بهذه العبارة، فازداد خوفه وارتبك وبدا أكثر اصفراراً ممّا مضى، حتى أنه كان يهذي طوال الوقت بكلمات سريعة مبهمة تاركاً على وجهه تذمّراً عنيداً، فقد كان يخشى أن يجد نفسه كالبهيمة هائماً في الطرقات، لذلك كان يطلق لعناته أسفل ذقنه دون أن يجرؤ على إطلاق تذمّره بعيداً.

على مدار عشر سنوات وأنا أدير وظيفتي كسائق لهذه الحافلة بكل أمانة وتفان، دون أن أنتظر جزاءً أو شكوراً، إلا أنني أشعر أن كل هذا العمر يُمضغ على ذلكّ الفكّ العريض ومن خلف تلك النظارتين الغامقتين.

- ها نحن نعبر المحطة الأخيرة، وهو لا يزال مسمّراً في مقعده مثبتاً عينيه باتجاهنا.

قالها مساعدي، وهو يجمع أجرة الركاب دون أن يجرؤ على الاقتراب منه طالباً أجر محطات عديدة قطعناها، حيث ظل قابعاً في كرسيه كأحد المسامير اللامعة الحادة.

يبدو أن الشركة بدأت تستشعر الخوف من السائقين فبثّت عيونها في كل الحافلات، ولكن ماذا يعني كل هذا؟!... هل طرأ شيء ما يستوجب كل هذا التربص؟! وما عساه أن يكون؟!... كادت هذه الأسئلة أن تشغلني وتجعلني أرتكب مخالفات تسيء لسمعة الشركة وتعرّضني للمساءلة. ركّزت على أن أكون متيقظاً في كل شيء، وأكّدت على مساعدي أن يكون ليّناً حدّ الخضوع مع الركاب وأن يعاملهم بلطف، حتى أولئك الذين تتطاير من جيوبهم روائح العرق الممزوجة بالغبار والإسمنت، وأن يحرص - كل الحرص - على أن يرى صاحب ذلك الفك العريض كيف يتقاضى من الركاب الأجرة مع قطع تذكرة بذلك. ولم

أنسَ دوري، فقد كنت أقف عند كل صرخة تطالبني بالوقوف أو أي راكب يشير لي في كل الطرقات التي قطعناها... أظن أننا أمضينا أربع ساعات وهو لا يزال يشاركنا نفس الخط.

كنت أقول سوف تتغير وجهته مع بلوغ المحطة القادمة، إلا أننا قطعنا جميع المحطات بشكل دائري، وها نحن على وشك أن نعود إلى نقطة البداية، وهو لا يحرّك ساكناً، اللهم يرفع يده بين لحظة وأخرى، ويثبت نظارته، ويمعن النظر باتجاهي، فكنت أبتسم له من خلال المرآة فلا تتغير ملامحه بل تظل راكدة ركود الأموات تثير الريبة والفزع... حاولت جاهداً أن أتذكّر متى صعد إلى الحافلة إلا أنني عجزت تماماً، وقد استغلّيت اقتراب مساعدي وسألته، فأجاب:

– منذ أن انطلقنا وقد كان يجاوره شاب يمسك بأوراق ويميل عليه بين لحظة وأخرى، ولا أدري ماذا كان يكتب – ذلك الشاب – ولم أعرهم اهتماماً.

وحينما نبّهني لوجوده كان الشاب قد غادر مكانه دون أن ألمحه. عندها فقط تأكدت ظنوني وجزمت أنه أحد تلك العيون التي بثّتها الشركة لتراقب السائقين، فلعنت مساعدي وأوشكت أن أصرخ فيه، خاصةً وأنه افتعل شجاراً مع أحد الركاب قبل أن نتنبه لوجود هذا المراقب الجامد كالأموات.

– لا شك أن تقريره سوف يأتي غامقاً كنظارته.

نفضت هذا الخاطر لمعرفتي أن العيون الحسيرة هي التي تكتب التقارير السريعة المرتبكة، بينما تكون العين المحيطة متأنية وأكثر حكمةً واتزاناً في إصدار الأحكام، ويبدو أن صاحبنا رجل جمّ الأناة، ولكي لا يتسرّع في إصدار حكمه ظلّ معنا كل هذا الوقت، وأتمنى أن يكون تقريره صادقاً حتى ينقل لرؤسائنا صورةً صادقة لما نبذله من خدمات لكل الركاب دون تمييز. فعملنا ليس رديئاً، حتى أن أحد الركاب أقسم أنه لأول مرة يشعر أنه لا يُهان داخل حافلة مما جعلني أجذبه للحديث بصوت مرتفع. إلا أن صاحب ذلك الفك العريض فاض وجهه جموداً ولم يكتفِ بذلك بل سحب أذنه للداخل ولم يعد يمدّها للأحاديث المتطايرة داخل الحافلة.

ها نحن نقف في آخر محطة ولم يعد معنا أحد سواه. شعرت بالحيرة: ماذا يتوجب عليّ أن أفعل؟! لا بدّ أن اختبارنا – أنا ومساعدي – يكمن هنا... فماذا

عساك تقول لراكب درت به كل المحطات وظل معك إلى النهاية؟!... حتماً سوف تنفجر غضباً وتطرده بعد أن تشبعه لعناً، إن لم تتجرأ وتمدّ يدك إلى ذاك الصدغ العريض لتُحرِّك ركوده.

كان مساعدي يرى أن نتركه في مكانه ونواصل الدورة - الثانية - دون أن نشعره بتذمّرنا منه، لكنني رفضت هذه الفكرة لأنها سوف تقودنا للمساءلة حيث إننا أشغلنا كرسياً دون وجه حق، حتى وإن دفع تذكرةً أخرى فقد يتساءل المراقب:

- ولماذا لم تبلغا بالراكب نهاية المطاف، فقد يكون مريضاً أو أعمى أو نائماً؟

ها هو الوقت يمضي وراكبنا على حاله لا يتحرك، والحافلات تقف وتحمل ركاباً وتمضي، وأنا حائر فيما أصنع، بينما كانت يده ترتفع بين لحظة وأخرى لتثبّت نظارته الغامقة.

من الخير أن أقف أمامه بأدبٍ جمّ وأخبره بلوغنا نهاية المطاف. لا شك أنه سيضحك بملء فمه من غباء تصرفي... وبدون شعور صرخت في مساعدي:

- أكاد أن أنفجر.

فيما واصل ذاك الفك العريض جموده باسترخاءٍ قاتل.

أنفاس الموت

- سيموت.

هكذا هتفت في داخلي بينما كان الليل يهطل غزيراً بظلمته، والأقدام تبتلعها الشوارع الضيقة، فينأى طرقها، وأبواق السيارات تخفت مفسحةً لسكونٍ موحش أن ينبثق من ثنايا هذا البيت الراكد.

جلست أمام جثمانه أجمع كل التفاصيل الآتية كي لا تباغتني فجأةً، وقبل أن تأتي اللحظة الحاسمة تشاغلت بتقليب صفحات كتاب حملته داخل حقيبتي الطبية، وبين لحظة وأخرى أراقب عينيه الهاربتين للأعلى.

لا شيء يبقى في الوجود ثابتاً، كل شيء يغور ويضمحل ويتلاشى ويغدو أثراً باهتاً في ذاكرتنا التي لا تنجو - هي أيضاً - من التشقق والصدأ.

لم يعد بإمكاني إلا إحصاء أنفاسه الأخيرة، فحمّى جسده تفوح في فضاء الغرفة، لأشعر أنني أصبحت موجة ارتعاد تصفق في هذه الجدران الحائلة، وتعود على عروشها خابيةً متهالكة... ثمة عطبٌ يجوس في المكان... بنظرةٍ ذابلة اعتقلني، وأنا أقلّب صفحات الكتاب، فاخترقني شعورٌ بالمهانة... نهضتُ من جلستي ومررت يدي على جسده بلا اكتراث، فعادت عيناه تطارد أنفاسه اللاهثة، المتعجلة، في محاولة بائسة لإعادتها أو تهدئتها.

تحركت وأشرعت باب الغرفة ليتسلل هواءٌ رطب دفين انبثق من ممرٍ طويل انتهى بصالون حقير الأثاث والأصباغ، وامرأة جلست تحت لوحة زيتية تكفكف دموعها وتجهش بصوتٍ منخفض... كانت تنتظر خروجي لأقلل من جزعها. كنت متردداً بين الجلوسِ والنهوض، ففي كل وقفة أستعد فيها للخروج ألمح عينيها تحتويانني حتى تطبقان عليّ وتعيدانني لذاك الكرسي المتهالك، فأعاود وضع السماعة على صدره فلا يصلني إلا زفير محروق يجتثّ ما تبقّى من أمل،

فأقذف بالسماعة جانباً وأظلّ أدلك ذاك الصدر العريض جداً، فأشعر أنني أدفعه لمنزلق النهاية، فأتوقف وأقرر الخروج، وقبل أن أخطو باب الغرفة تنهض تلك المرأة، وهي معلقة عينيها بوجهي المنحدر بأسى، وقبل أن أصلها أكون قد قررت العودة، فأمنحها ظهري وأعود مسرعاً أقلّب ذاك الجسد، باحثاً عن قطرات من حياة، وعبثاً تمضي كل المحاولات.

الآن هدأ كل شيء، ولم تتبقَّ إلا عينان جاحظتان بازغتان صوب سقف الغرفة. انحدرت أدلّك صدره العريض جداً وأجسّ نبضه... لم يعد ثمة عرقٌ ينبض.

أعدت أدواتي إلى حقيبتي الأنيقة وتهيّأت لمغادرة الغرفة، فراعني منظرها البائس.

كانت تجلس في مكانها وتجهش ببكاءٍ مكتوم، وقد أطلقت لسانها بدعوات الضراعة، وشكت وحدتها إلا منه... وقفتُ على غمغمتها:

- لو أصابك مكروه فسأموت يا أعزّ الناس.

فأغلقت الباب دونها وعدت أدلّك ذاك الجسد الفارغ!

في الخارج بردٌ ومطر. فتحت النافذة وتهيأت لأن أسرب جسدي من خلالها قاذفاً بنفسي للخارج، هارباً من حزن هذه السيدة!

كان الهواء بارداً ثقيلاً، فتكومت داخل ملابسي وهممت بالقفز حين فُتح الباب وأطلت بعينيها الدامعين:

-ممَّ يشكو يا دكتور؟!

شعرت بالخجل والخزي، فحاولت جاهداً أن أنفضهما عن لساني كي أجيبها، إلا أنها مدت خطوتها للداخل وأغلقت النافذة بغضب:

- ألا تخشى على المريض من هذا الجو البارد؟!

أوشكت أن أصرخ بها: "لقد مات... مات هذا الجسد الفارغ فلا فائدة"، لكن صوتها الحزين المنكسر عاد رطباً مهيباً:

- المعذرة يا دكتور، فخوفي عليه يضاهي خوفي على حياتي.

وأغلقت الباب الخارجي للغرفة وتركتني أتنفّس الموت... ما زالت تلك العينان جاحظتين صوب سقف الغرفة، وغدا لونهما ناصع البياض، وقد ازرقّت عروقه، ونثرت لونها الغامق بذاك الجسد الأصفر الممتلئ.

الليل يسير دون تباطؤ، ومازلت أقف حائراً أمام هذا الجثمان، فما عسى أن أقدّم لميت سوى أن أصدّق على شهادة الوفاة بعد أن أواسي هذه المسكينة بكلمتين رطبتين وأمضي.

أشعر أنني أكثر تخاذلاً من أن أتّخذ هذا القرار، فعيناها تجبرانني على أن أعود، وأبحث في هذا الجثمان عن خيط حياة، وكلما عدت أيقنت أن الموت جرفه للنهاية، ولم يعد بإمكاني إلا الرحيل.

أعدت أدواتي إلى الحقيبة وأغلقتها بإحكام، وتنحنحت بافتعال. أصلحت هندامي أمام تلك المرآة المشروخة التي مكّنتني من رؤية جثمانه الملقى على السرير بفتور واستسلام. تطلعت في وجهي بعمق:

"نعم، لا فائدة من بقائك، لا بدّ أن تخبرها. قل لها لقد كان الموت أسرع من أدواتي وأدويتي... ماذا يعني مات؟!... مات وانتهى، وهل باستطاعتي أن أقف أمام هذا الطوفان؟!".

كنت أشجّع النفس على مواجهة تلك المرأة الدامعة، البائسة، فيما كنت لا أزال في مواجهة المرآة. نبّهني صرير الباب بمقدمها، ولم تمكّني من الالتفات كاملاً نحوها، فصرخت بحدة:

– أيها الدكتور، زوجي يموت وأنت تتزين!

أحسست بالخجل، فعدت راكضاً، وفتحت حقيبتي، وأخرجت أدواتي، وقلبت جسده، وزرعت السماعة بصدره، وأمسكت بوريده أجس النبض:

"من الحمق أن أواصل جسّ نبضه في كل لحظة، وما الذي يحملني على فعل كل هذا؟!... أوه، يا لهذه السيدة المسكينة، كيف أخبرها بأنه قد مات؟... لا بدّ أن أخبرها وكفى... حتماً ستنظر إليّ بدونية وهي تنتحب، ساعتها لن أقوى على إسكاتها، أو مغادرة هذا البيت الرث، ولن تجدي كل الكلمات – التي تعلمتها لمثل هذه المناسبات – من التخفيف عنها".

كانت ترمقني وأنا أجسّ نبضه بلا اكتراث، وبتأفف وضجر واضحين، فقطبت حاجبيها وغرست يدها بكتفي:

– هيه، أيها الدكتور... أعلم أن الأطباء يضعون سماعاتهم في الجانب الأيسر من المريض!

صرخت في داخلي:

"لن يجدي أي شيء، فقد مات... افهمي وأريحيني من هذا القلق".

غادرتني بعد أن وضعت بجانبي كأساً من الليمون الدافئ، وما إن أغلقت الباب حتى أعدت أدواتي إلى الحقيبة واسترخيت على ذاك الكرسي المتهالك مشعلاً سيجارتي ومرتشفاً كأس الليمون بلذة، وفي ذاكرتي أغنيةٌ قديمة تتقافز، أوشكت أن أدندن بها لولا أن تذكرت هذا الميت الذي يشاركني المكان، فأحجمت. وقبل أن أنهي سيجارتي، فتحت الباب ونظرت إليّ بغضب:

- إنني لأرى منك العجب... أتدخن ومريضك على وشك الموت؟!

اعتراني ذاك الخجل القاتل، فقفزت صوب حقيبتي، وأخرجت إبرة، وغمستها بمحلول لا أدري كنهه، وغرستها بجسده البارد.

"ما الذي يدفعني لكل هذا؟ ولماذا كل هذا العنت؟... لقد مات... لأقل الحقيقة وأمضِ خيرٌ من أن أبقى تحت رحمة عينيها الناريتين اللتين تتحولان فجأةً إلى بئرٍ من الجزع والخوف... أوه، كيف الخروج من هذا الليل الفاتر؟!".

عقارب الساعة توشك أن تغادر ميناءها الرابع، وأنا ما زلت عاجزاً على أن أفاتحها بخبره. تشجّعت وناديتها، وحينما وقفت أمامي استحثتني بصوتٍ متهاوٍ:

- هه يا دكتور، طمئني... قل إنه بخير.

- نعم، نعم، إنه بخير.

- هل تريدني أن أجلس بجواره؟

ارتبكت، وبتلعثم رددت:

- لا... أردت دورة المياه!

قادتني من خلال ممر ضيق، وانعطفت يميناً، وفتحت لي الباب.

"لم تكن بي حاجة لذلك ولكني، أمام جزعها، واصلت حماقاتي... سأخرج، وأخبرها الحقيقة، وليكن ما يكون..."

سحبت "السيفون" استكمالاً لما تبقّى من حماقات، بالرغم من أنني لم أقم بما يستوجب فعل ذلك، وكل ما قمت به أنني بحلقت في تلك الحيطان الباهتة وخرجت أمدّ خطواتي صوب تلك المقبرة. وجدتها تجاور رأسه وتضع عليه الكمادات بحنان ولطف:

- كيف تجدينه؟!
- الحمد لله على أي حال.
"يا للمسكينة... لا لن أُفجعها، سأتركها تنعم بقليلٍ من الاطمئنان".
جلست على الكرسي أتأملها من طرفٍ خفي، وهيَ تضغط على يده وتكاد تذوب لهفة.
"إذاً جاءت اللحظة المناسبة لكي أغادرها، وهي على هذه الحال، خير من أن أزعجها".
توجّهت إلى الباب الخارجي حاملاً حقيبتي الطبية، وهممت بالخروج، حين تعلّقت بي:
- أرجوك يا دكتور لا تتركه الآن!
بلغ الضيق مني مبلغه، وحاولت جاهداً أن أضبط انفعالي ليباغتني لساني بخروجه المفاجئ:
- سيدتي، عليك أن تحتزمي بالصبر... لقد مات زوجك.
فتحت فمها بدهشة، وارتفع صوت ذاك الجسد الميت:
- ألا تخجل يا دكتور من أن تميت مريضك؟!
لسعني صوته فارتبكت وأصابني الذعر، تفرّست فيه، فأخذ بالاستواء، وقبل أن يكمل استواءه كانت يد زوجته تفتح الباب وهي تزدريني وتعلق بصرها في وجهي باستخفاف، وقبل أن يستلم خطواتي ذاك الشارع المظلم البارد سمعتهما يودّعانني بضحكةٍ مستهجنة.

القبر

حول قبر مطموس تناثرت الأشواك والأعشاب البرية، وتمزقت راية بيضاء ظلت ترفرف من عارضة خشبية متآكلة ارتكزت – منذ أمدٍ بعيد – في طرف القبر لتحدد وضع الميت.

قبرٌ وحيد رُمي في الفلاة وظل متمسكاً بحدبته إزاء الرياح التي تعبث بكل شيء في هذه الرقعة المسكونة بالوحشة والفراغ.

من هنا، من عمق الخلاء، بزغ ظلاّن كانا يحثّان الخطى – من جهتين مختلفتين – صوب هذا القبر حتى إذا بلغاه تطاير شجارهما وامتقع وجهاهما بأقذع الشتائم، ولم يكن يجاورهما إلا صراخهما المتعالي في هذا الخلاء الممتد حتى الأفق، وحينما رغا وفاض غضبهما تماسكت أيديهما في عراك غير متكافئ.

أحدهما ضخم له أنف تجلس القرفصاء، وعينان متسعتان لاحتواء ما يصادفهما، يده الضخمة أطبقت على هامة ذاك الرفيع ذي الأطراف المتناهية الدقة، فلم يعد باقياً منه إلا صوته اللاهث الخارج من نفس ضيق... كان يزفر بألم في محاولة يائسة للفرار من تلك القبضة الحديدية التي أوشكت أن تفصل رأسه عن باقي جسده.

وعندما خارت قواه، استسلم لدفعة قوية أوقعته أرضاً، فجمع أوصاله المتضعضعة بانكسار ونهض نافضاً آلامه المبرّحة، وتبقت عيناه الحسيرتان تراقبان خصمه الجالس بمحاذاته القبر، والذي انشغل برفع يده تاركاً لشفتيه حرية التمتمة بأدعية غير مسموعة، وقد لبس وجهه خشوعٌ طاغٍ... ورمقه ملياً، وتقدم نحوه بصوتٍ متهالك:

– سيدي، هذا قبر أبي. لقد واريه بيدي هاتين، ونصبت هذه الراية للاستدلال عليه في هذا الخلاء الفسيح، ولا أريد أن نتعارك، فربما كان قبر أبيك قريباً من هنا إلا أن هذا ليس قبر أبيك، وأؤكد لك ذلك، بل أقسم على هذا.

استدار نحوه نصف التفاتة من عينيه الواسعتين، تاركاً أدعيته غير المسموعة معلقة في الهواء، وبصوت مشبع ممعنٍ في الثقة:

– وأنا أؤكد لك أنه قبر أبيٍّ، فقدْ دفنته بيدي هاتين، وإذا لم تغادر المكان سأجعلك تجاوره، خاصةً وأنا أعلم أن أبي لا يحب الوحدة!

وعندما استيقن أنه غير قادر على مقارعة خصمه، وبدت له منازلته محسومة الخاتمة، تحرك غير ذي بعيد حتى أنس له خصمه وانشغل بأدعيته غير المسموعة، فدسّ يده في جيبه الداخلي، وقفز عدة قفزات متتالية حذرة، وانتصب واضعاً مسدساً صغيراً على هامة خصمه، وبصوتٍ منتشٍ جعل رأس خصمه يترجرج تحت فوهة المسدس:

– والآن ماذا تقول؟

ارتبك ذو الجثة الضخمة والعينين المتسعتين لاحتواء ما يصادفهما، واشتعل فيه الخوف، إلا أنه تدارك هلعه بابتلاع ريقه الجاف مراراً حتى إذا انطلق لسانه وجفّ خوفه قليلاً قليلاً نهض صوته متعثراً:

– أقسم لك أن هذا قبر أبي، فقد كنا عائدين من رحلة شاقة ومضنية، فأصابته الحمى، وظللت أتنقل به لأيام طوال حتى إذا بلغنا هذا المكان كانت الحمى قد أتت عليه، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير أخرج من "كمره"[١] ورقةً صغيرة طويت بعناية ودفعها إليّ وهو يقول: "إن وافاني الأجل فلأُدفن أينما قُبضت، وهذه وصيتي إليك، لا تفتحها إلا حين أكون نسياً منسياً"، وأطبق عينيه دوني ورحل، فجلست على جثمانه ليلتين علّ الحياة تحنّ لجسده فتعود، حتى إذا نزّت رائحته قمت وواريت ذاك الطود، ووضعت هذه الشارة، واحتفظت بوصيته، وسحت في الحياة، حتى إذا ذُكر، ولم يترحّم عليه أحد، فتحت وصيته فوجدته قد كتب:

يا بني،

افتح صدرك، فصوتي قادم إليك.

اليوم أغدو تراباً، ويغدو دمي موزعاً في أوردة الطير، وعظمي فتات الأرض... وأنت تجري، وتتفرع فيك الحياة، وتفور فيك .

---

١ كمره: حزامه.

الرغبات، فلا تجعل النزوات تميت الأنهار فيك، وتذكّر أنك هالك، فادفع رأسك للأعلى قبل أن يجاور قدميك، فالسماء والأرض تلتقيان بالمطر، فلا تجمع رأسك بقدميك إلا بشرف.

يا بني،

إياك أن تجعل عينيك بوابةً لقلبك، فمن اتّخذها فقد عمي... فثابر، وثابر، ففي الغيب متّسعٌ من النبوءات.

يا بني،

لا تقل مات أبي ظمآن... حسيراً... وحيداً، واعلم أن لكلّ نفس مصباً.

يا بني،

أطلّ لداخلك دائماً، وذد عن مائك تتسامق فيك النهارات والأحلام الطليقة.

انظر... فالماء ينساب بيننا، فهناك من "يدلدل" رجليه، وهناك من يشرب، وهناك من يتبول، فلا تدنّس ماءك... وشدّ الرحال، وتزوّد بالماضي، ومدّ خطوتك لعلك تراني.

أبوك

الفقير لرحمة الله تعالى

أمام هذه الكلمات، وقفت عاجزاً عن استيعابها، أو إدراكها، فطويت وصيته وأعدتها إلى مخبئها، فطاردني أبي في المنامات يتلو عليّ وصيته، وظلّ صوته ينخر قحف جمجمتي لا يبرحني حتى قيل لي:

- إن نفسه تتوق لأن تمد خطوتك إليه.

فقطعت جميع أعمالي وخببت السير في الصحاري والقفاز، حتى إذا بلغت قبره وجدتك ها هنا تدعي أنه قبر أبيك.

تمايل خصمه فوق رأسه وغرس المسدس للعمق:

- هذا ليس ادّعاءً، ولكن هي الحقيقة، فأبي كان له أعداء كثر يتربّصون به في كل مكان، وقد تناهى إلى مسامعه - وهو على فراش الموت - أن أعداءه لن يتركوه،

وسيتبعونه إلى قبره، إن سبقهم إليه الموت، وسيعبثون بجثته. وقبل أن يموت قرّبني إليه، ودفع إلي كيساً من الذهب - دون إخوتي - وأوصاني إن جاءته المنية أن أدفنه على بعد شدتين شمال قريتنا في أرض عجوز لا ماء يجري في وجهها ولا شجر. وعندما لفظ أنفاسه الأخيرة، وانشغل إخوتي بتجهيز غسله، سرقت جثته وخبأتها في شقتي، وعندما جاء إخوتي لغسله ولم يجدوه، خرجوا في طلب أعدائه، وخرجت أحمله على عاتقي، وإذا تعبت سحبت جثته، حتى إذا بلغت هذا المكان حفرت هذا القبر وألقيته به ودفنت معه كيس الذهب خوفاً من أن يدخل نصيبي هذا في الميراث، أو أن يكتشفوه عندي، وعندما سكن كل شيء جئت لاسترداد مالي.

- إذاً تودّ نبش القبر.

- نعم.

- لن أمكّنك من هذا أبداً.

- أنا لن أنبش القبر. أنت ستقوم بالمهمة صاغراً، وستستخرج لي كيس الذهب، وإذا لم تفعل ما آمرك به سأفرغ حبات هذا المسدس في رأسك.

- لن تستطيع.

شدّ قامته وغرس قدميه في الأرض، رافعاً الزناد وواضعاً إصبعه على لسان المسدس:

- سأعدّ لثلاثة، وإذا لم تبدأ العمل فسيكون آخر عهدك بالحياة صوتي هذا...

وبدأ العدّ ببطء، ولم يكن أمام صاحب الجثة الضخمة خيار إزاء إصرار خصمه، فجذب عارضة القبر الخشبية فانكشفت فجوة عميقة بدأ منها في إزاحة التراب وتعميق الحفر، وكلما تباطأ سمع صراخ خصمه يدوي:

- أسرع... لا تتباطأ.

لا زال التراب مجدولاً على شطرين، وذو الجثة الضخمة يعمّق الحفر، حتى إذا بلغ قاع القبر اتّسعت عيناهما وقفز من محاجرهما فزعٌ طارئ أشعل بهما الخوف، لينطلقا راكضين لا يلويان على شيء...

حين ظلّ قاع القبر كاشفاً عن بقايا جمجمةٍ ضخمة، وعظامٍ لسيقان طوال، انتهت بحوافر متآكلة.

١٤٠٩/١٠/٢ هـ

في انتظار سيدة الماضي

إلى ثلة العشاق بشارعنا الوحيد.

هذا الشارع الممتد كلسان عجوزٍ خرفة كل يوم يستطيل ويقذف حكاياته للخارج، وربما يدفعها لداخله دون أن يعي كم من حلم فرّط فيه.

كان ذات يوم محطّ قلوبٍ صغيرة ترفرفُ بين جنباته وهي تتأبّط أحلامها وشغبها وعشقها البضّ، وتكتبُ تأريخها على جدرانه الحائلة. كان شارعاً مراهقاً يضجّ بالفتيات الصغيرات اللاتي يتحفّزن للقفز فوق أعمارهن مقابل ابتسامة يطلقها أحد الشباب في فضاء وجوههن. وكان الشباب يعرفون ذلك جيداً فتراهم يتسابقون صوبهن لكي يعلق كل واحد منهم حلمه على تلك الجدائل المجدولة على هيئة "ذيل الحصان" والممسوكة بشرائط "الستان".

لقد امتد هذا الشارع في أعمارنا حتى إذا أردنا استذكار فرحتنا عدنا إليه لنجدها ضامرة كضمور بيوته المنكبّة على أصحابها بتقاعسٍ مريب.

آه كم استملح هذا الشارع من طفولة، حتى إذا نثرت به ضحكاتها وأحلامها ربا وتقوّس كقبرٍ قديم، وبسط أطرافه من ناحية أخرى ليلتهم طفولةً أخرى، حتى إذا تقبقب بالأحلام تسبح ولم يعد قادراً على ابتلاع أي شيء فغدا مستنقعاً للمياه الفائضة من مياه الخزانات والغسالات والمكيفات.. لقد غدا شارعاً رطباً كبحيرةٍ ليس فيها حياة.

هذا الشارع كان، ذات يوم، فتياً ينبض بالشباب والأماني... ها هو اليوم راقد بملل وقد ترك مساحته لبائعات اللوز و"الحبحبوه"، تلمحه شاحباً كئيباً ولم يعد ليله يضجّ بهمسات أولئك العشاق الذين يتناوبون في الخروج لرؤية فتياتهم. أصبح ليله ساكناً إلا من أزيز المكيفات اللاهثة أو ركض أقدام بعض المترنّحين هرباً من

ضوء سيارة قادمة. أما جدرانه – التي كنا نظن أنها عالية – فقد أناخت وتخللها الهرم من شقوق ظهرت بكل صلف وتبجح... حينما تعبره تشعر به شيخاً خارت فرحته فغدا هزيلاً يستقبل الحياة استقبال المحتضر.

***

ثلة من الشباب كان يجمعنا ذلك الحنين فتجدنا نتقاطر من جنبات "جدة" صوب ذلك الشارع المدفون بوسط تلك الحارة التي غدت غامقة ولها رائحة كئيبة تثير التقزز والاشمئزاز.

كنا نجلس على هامة ذلك الشارع نستذكر ذكرياتنا بصخب وضحكات مجلجلة... إنها لحظات نجدّد فيها خفقات صدورنا ونعود إلى بيوتنا المتكلسة أو أعمالنا التي يسكنها السأم بإفراطٍ متناهٍ... وبين الخانتين نفرط أيامنا، وفي الليل نجلس لنحصي كم يوماً مضى!

ما زلت أركض في حياتي ذاوي القلب، وثمة حنينٌ يجتاحني ويعطّل الفرحة في داخلي، فأركن للأغاني القديمة علّها تنثر عليَّ قليلاً من أنس الأمس، حتى إذا لم أعد قادراً على الصمود قطعت المسافات البعيدة لأقف بذلك الشارع أحاول استرجاع تلك الومضات السحيقة، وكلما عبرته أيقنت أن الحياة تمتص رحيقنا، حتى إذا نضب تماماً كان الموت خاتمةً لموت سابع!

– كيف لنا أن نتحرر من الماضي دون ألمٍ؟!

كنت أعلم أنها ما زالت مغروسةً في هذا الحي، وأعلم أن بيتها يقع في آخر الشارع بجوار عمود نور خرب، ولم أكن راغباً في الوقوف عليه مباشرةً، لذلك اكتفيت بتلك المعلومة البسيطة، وكنت كلما جئت إلى هنا علقت بصري في أوله وآخره علّني أراها من بعيد. وكنتُ أعود يومياً دون أن ألمحها، وأحرص كثيراً على أن لا تراني. هذا الهروب منها خوفٌ إضافي يقلقني، وفي أحيان كثيرة أتمنى أن لا أراها.

هذان الشعوران المتناقضان يتعبانني كثيراً، ومع ذلك أعقد معهما هدنةً وأعيش معهما أزوّد كلاً منهما بما يذكيه.

أظل الليالي أحلم برؤيتها وبمشيتها التي تشبه قفز الحمامة، حتى إذا لمحتها

من بعيد هربت لا ألوي على شيء سوى الهروب من عينيها. كنت أخاف أن ألمح رماداً في تلك العينين أو طللاً قديماً درس عليه الدهر ولم يبقِ إلا محاجر تحمل عينين باردتين كحجرين أكلهما الريح فأبان سوأتهما. كنت - وما زلت - حريصاً على أن أبقيها في داخلي كما كانت... لا أريد أن استبدل بها صورةً هشّة لا ألمح منها سوى عباءةٍ عابرة.

***

أكل الشوق جبل الصبر الذي أقمته في داخلي، فقررت أن أراها وأروي هذا العطش الدائم إليها. وقد أمضيت أياماً أدوام على الحضور لهذا الشارع علّني أراها، وقد أمضيت أياماً طوالاً أعود خلالها حسيراً وثمة حنينٌ جارف يندلق بداخلي ويفوح من حنجرتي بمرارةٍ لا أعرف كيف أداريها.

اليوم أقبلت تتهادى فانتفض شارعنا ودبّت به الحياة... جاءت بفستانها المطعّم بلون السماء، واختلست نظرةً لوجهي الملقى على قامتي دون ترتيبٍ مسبق... كنت أختلق الضحك مع قلوبٍ شابة تجمّعت على رأس ذلك الشارع.

صاح أحدهم وهو مقبل علينا:

- يا أسود، متى تذهب إلى الجريدة؟

أتت قادمةً تجرّ معها طيب الماضي، وكنت لا أزال أستنشق عبيره من خلال ذلك الشارع الرطب... استقبلها وجهي... كم هي جميلة! وكم تعذبني رؤيتها!

لم يجفّ السؤال من حلق سائلي فأردفت:

- هلا... هلا عيني.

لمحت شبح ابتسامة تمرق من بين شفتيها... هل كانت تسخر؟... هل تأكدت بأنني ما زلت طفلاً لم أغادر يديها؟... كانت تسير مع عباءةٍ أخرى، وكل من كان بجواري أصبح هي!

صديقي خبيث جداً، كان يستعجل كلماته لتسمع:

- أما زلت تكتب؟

إنها بجواري الآن... تشدّني إليها وترحل:

- ما زلت أكتب يا محمد...

أقول له لتسمع أن مدادي ما زال بحراً يانعاً بها!

إنها تغادرني الآن... أريدها أن تتأكد بأنني ما زلت طفلاً لم يغادر يديها.

– هلا عيني.

أكررها وابتسامتها تتمطّى في مخيلتي.

قيل لي: أصبحت جاموسة تدرّ اللبن والأبناء.

سكبت أحاديثهم بعيداً عن قلبي، وكنت أسمع صوتي يتردّد مرتفعاً:

– هلا عيني.

الشباب يتضاحكون لنكتة أطلقها أحدهم، وعندما طالت جزمتُ أنهم يلاحقون تشتتي وهذياني، ولم أكن عابئاً بهم حيث ازداد صرير صوتي ارتفاعاً.

– هلا عيني.

غادرني محمد إلى داخل البقالة بعد أن غمز لي بطرف عينه، ولم أعرف مقصده فأهملته وقذفت ببصري خلفها. كانت لا تزال تتهادى في عيني تعبر طريقاً ضيقاً، وعيناي تفتحان منافذ القلب وتشيران له صوبها:

– إنها هي!

انحناءة الشارع تبتلعها وتغيّبها عن بصري، فتسمّرت في مكاني منتظراً بزوغها مرةً أخرى.

تك... تك... تك... تك... تك... تك...

– هلا عيني.

ما أعني بها؟... وهل تستطيع هذه الجملة المبتورة الغبية أن تؤدّي الغرض؟!

وهل تستطيع أن تحمل أوجاع القلب... فرحة القلب... آهات القلب المسكوبة في إناء العمر؟... إن الكلمات تموت في أحيان كثيرة قبل أن تصل إلى سامعها، فالكلمات أشبه بالروح التي تخرج من الجسد تطير وتتلاشى قبل أن تلمح منها شيئاً... عندما تأتي سأختار كلمةً أخرى؛ كلمةً خترق مفاصلها وتعذّبها... آه ليتني أقوى على تعذيبها!

وإذا جاءت هل يأتي أحد مثل محمد ليسألني عن حالي... لأقول له:

– ما زلت مثل الأمس.

وهل ستتفهّم ماذا أعني بالأمس؟... عهدي بها أنها تفهم خبايا كلماتي دون

أن أحتاج للشرح... كان ذلك في الماضي... كم مضى على فراقنا؟... تسكن بيننا عشر سنين عجاف جعلتني غصناً يابساً، وجعلتها أرضاً قاحلة من الهوى.

يا إلهي، كم هي جميلة هذه الجاموسة!... هذه هي التي تركتني نائماً في حلمها ومضت بعيداً عني لأستيقظ أجمع أيامي من خلفها.

- هلا عيني.

تك... تك... تك... تك... تك... تك...

لا شك أنها ما زالت تجاري النساء في أحاديثهن السمجة، ولا أظنها تحسبني أنتظرها.

مضى وقتٌ طويل وأنا ما زلت مسمّراً في مكاني، وصحبي تناثروا، ولم يكن يقلقني سوى مجيء عبد المحسن الذي تواعدت معه للذهاب سوياً لمقر الجريدة... حتماً سيأتي الآن فقد أزف الوقت. أعلم سلفاً أنه لن يمكنني من الانتظار وسوف يدلق التحية بسرعة ثم يصعد للسيارة دافعاً إياي للمضي صوب الجريدة دون إبطاء... أوه، من ذا الذي يثني عبد المحسن دون أن يغضبه؟

ها هو الوقت يقترب من مجيئه وهي لا تزال غائبة بداخل تلك البيوت المفروشة بالفصفص والأحاديث الميتة... ربما تأتي الآن، وليس هناك أحد يجاذبني الحديث لكي أغمزها بكلمة أو كلمتين مما يعترك بداخلي. كنت أفكر في طريقة تمكّنني من بثّ شوقي دون أن أحتقر نفسي أو أن أمكّنها من الاستخفاف بي... كيف لي ذلك وقد انقطعت كل الجسور فيما بيننا؟... أجهدت نفسي بالتفكير في تلك الوسيلة وكلما مضى الوقت شعرت بالضيق مما أنا فيه، ولكي لا تفوت الفرصة أدخلت سيارتي بذاك الشارع الضيق، وأدرت صوت فيروز، وعدت إلى مكاني أنتظر عطرها... يا لعطرها القبيح!... أصبحت تضع رائحة ذلك الثور الطيب!

لو جاءت الآن ربما استطعت أن أحدثها بما يعتلج به القلب... لا أحد هنا سوى أنا وذكرياتي وصبية صغار أخذوا يتقافزون هنا وهناك... ليتها تأتي الآن... هل فعلاً سأقوى على أن أحدثها؟!... وهل أقوى على أن أنكث العهد الذي أخذته على نفسي بأن لا أذكرها ما حييت؟!... يا للغباء!... كيف لا أذكرها وأنا أبحث عن لحظة لنسيانها؟!... إنها تلتصق بدمي كأفيون فاخر... إنها تقف بيني وبين أنفاسي، تقف في ذاكرتي وتفوح من كل مسامات جلدي... إنها تحيا في داخلي

وأحيا من أجل البكاء بين يديها!... لا أريد أن أنكأ جرح تلك الأيام... ربما... ربما فقط تجاسرت وقذفت لها كلمة... كلمة واحدة فقط.

كانت تمضي الشهور الطوال دون أن ألمحها أو أن أسمع بها، وعندما تشحّ الأيام بتلك اللحظات القصيرة أعود إلى صورها - التي مازلت أحتفظ بها إلى اليوم - وأقف أمامها عاشقاً متيّماً ينثر الدموع واللوعة، حتى إذا أدركت عجزي نهضت مصمماً على أن لا أعود لهذا الضعف، وأظل ألوم نفسي لساعات طوال، وأصمم بداخلي أن لا أعود لهذا الخور أبداً، ولكي يكون تصميمي حاسماً أطلق الأيمان المشددة على ذلك وأنكث أيماني بمجرد أن تقفز ذاكرتي للخلف... هذه الذاكرة البليدة في كل شيء لكنها نشطة في تذكر تفاصيلها... حكاياتها... ضحكاتها، وإذا عطلت سريان إفرازها لتلك الذكريات بالعمل أو الإنشغال بأي شيء آخر، أتت بها إلى منامي مكللةً بالوجوم، تجلسها بجواري لتوقد حياتي بشوق دفين قلّما أرجو البرء منه.

في المنام، نادراً يجري بيننا الحديث، فغالباً أراها متجهمة، وقد دأبت في زيارتها أن تجلس خلف ظهري ووجهانا في اتجاهين متنافرين. كنت ألمح ملامحها مشوشةً مائية لا تثبت على حال، وعندما أنهض من نومي أستبشر خيراً وأجزم أنني سأراها، فأنطلق في ذلك اليوم إلى شارعنا فأراها كما كانت في الحلم... هذه الظاهرة لم أستطع أن أفسّرها إلى الآن، فلم يحدث أن حلمت بها ولم أرها.

وفي إحدى المرات رأيتها تقفل باب منزلهم على يدي، وكنت أصرخ من الألم، وهي تضحك وتحمل يدي المقطوعة وتسير مزغردة، وقطرات دمي تتكوّر وتستحيل قلباً تخرج منه حاملةً وردةً تضعها في عروة قميص رجل غائم.

كنت خائفاً من هذا الحلم ولم يكن أمامي إلا الذهاب إلى هناك علّني أراها. كانت قادمة مع زوجها ممسكةً بيد ابنتها التي كانت تخطّ بقدميها خطّاً عريضاً في ذلك الشارع، وكأنها تسرّ له بحكاية قادمة. رأيتها قبل أن تتمكّن من النزول من السيارة، فاقتربت منها، وأنا أجمع فرحي بارتباك، واختلست النظر إليها، وعندما رأتني لوت بعنقها بعيداً، وأغلقت باب السيارة بعنف، ورفعت صوتها:

- وجع!

فأحسست بقلبي ينكسر، وعدت راكضاً صوب حزني القديم، وأنا أكثر

تصميماً على ألاّ أراها ما حييت. كان هذا في آخر مرة رأيتها، أما اليوم فقد نسيت ذلك التصميم وأغريت نفسي برؤيتها فقط.

– هلا عيني.

هل أردّد هذه الجملة الغبية مرة أخرى؟!

تك... تك... تك... تك... تك... تك... تك... تك... تك... تك...

لم تأتِ بعد، وقد حان وقت ذهابي إلى الجريدة. جاء من خلف الشارع يتقافز بثوبه الناصع وابتسامته المترددة، فتصافحنا ومدّ يده إلى بطنه الرخو:

– إنني جائع جداً.

أسعدني بهذه المقدمة، فدفعته إلى داخل البقالة.

– كل ما شاء وسأنتظرك.

– لا لا، بل يكفيني بسكويت على الطاير.

فأقسمت عليه أن يأكل، وأبديت كثيراً من التذمر لإهماله وجبة الغداء، فجلس بداخل البقالة، وخرجت لإكمال انتظاري. ليته يعرف أنني لم ألمحها منذ ثمانية أشهر... هل أخبره لينتظرني ريثما أراها؟ ولماذا؟... سوف أستطيع أن أماطله حتى تأتي، وسأقول لها كلمةً واحدة وأمضي. نعم، لا بدّ أن أقول لها تلك الكلمة التي مازالت تعذّبني إلى اليوم، سأقولها وليحدث ما يحدث... كان صوت فيروز يأتي من السيارة ناعماً حارقاً:

سني عن سني
سني عن سني
عم تغلى ع قلبي
يا عهد الولدنه
يا حلو يا حبيبي
ما بيعك بالدني
وكل سني بحبك
أكثر من سني

اطمأننت، وتمنيتها أن تأتي عند هذا المقطع، لذلك اتجهت إلى السيارة وأدرت مفتاح الصوت عالياً وعدت إلى مكاني، وكلما انتهى ذلك المقطع ركضت لإعادته

من جديد... كان لون فستانها السماوي يمدّني بالفرح؛ ذلك اللون الذي كانت تختاره من بين جميع الألوان لكي تلقاني به... أما زالت محتفظة بذكرياتنا، أم أن الأشياء استحالت إلى لون هذا التراب الذي يمضغنا دون هوادة؟!

تك... تك... تك... تك... تك... تك...

النساء المقعّرات خرجن في صفٍّ طويل يستكملن زينة أفواههن في الطرقات، وهي لمّا تأتِ بعد. صببتُ غضبي عليها، ونعتُّها بما شئت، وتمنيت ألاّ تعود وتجدني مازلَت مسمراً في مكاني، حتماً ستعرف كم أنا ضعيف، وستحتقرني... نعم، لا بدّ أن أمضي، فماذا يعني أن أراها أو أن أكلمها، لم تعد ثمة جدوى من هذا التصرف الصبياني.

كدت أتحرك وأنادي عبد المحسن لكي نذهب، لكن هذه النفس الضعيفة أبت إلا أن تواصل خنوعها، فتريثتُ وسكبت بصري في ذاك الطريق الذي يتوالد نساءَ فاترات.

عبد المحسن يمضغ آخر لقمة من "السندويتش" وفيروز تقلّب جمرات الشوق بصوتها الشلاّلي الحزين:

يا عاقد الحاجبين
على الجبين اللجين
إن كنت تقصد قتلي
قتلتني مرتين
تمر قفز غزال
بين الرصيف وبيني

وعقارب الساعة غادرت ميناءها المؤقتة، وهي لمّا تأتِ بعد.

جاء زميلي يمسح فمه بمنديلٍ ورقي، ودفعني بيده وهو يضحك:

– الجوع كافر.

– أليس العشق أكثر ضراوة؟

ربما لم يسمعني، فقد صعد السيارة بعجلة وأغلق على صوت فيروز، وأخذ يدير مؤشر الراديو بحثاً عن أي إذاعة تبثّ السواد لأعماقنا. تركته يصعد وبي من التذمّر ما يجعلني أختلق معه الشجار... ذلك الشجار الذي لا يمتد طويلاً، فأنا

لا أقدر على إغضابه، وكانت خير وسيلة لتجنّب مثل هذا الشجار أن أهمله بعض الوقت، فانشغلت عنه بمدّ بصري في كل الاتجاهات... ولا أثر لسيدة الماضي.

أخرج عنقه من نافذة السيارة واحتدّ صوته بعصبيةٍ مفاجئة:

- لقد تأخرنا كثيراً.

رددت عليه بفتورٍ وملل:

- لا عليك، فاليوم إجازة الدكتور.

- أريد أن أعرف، ماذا تريد من هنا؟

فركت جبهتي، وخشيت أن يتساقط مني حديث طفولتي، وعجزي الدائم... لم أكن أخشى إلاّ من حكمه المتعجّل، فهو يكره العواطف المتخاذلة، ولو أخبرته عمّا أنتظر لتمطّى الغضب على جبينه المستوي ولثار كعادته وسفّه حلماً قديماً أحيا به.

ثماني سنوات وأنا أشاركه حكمه المتعجّل، وأسفّه أولئك العاشقين الذين يقفون أمام النوافذ أو في مداخل الطرقات انتظاراً لرؤية حبيبة، وعندما أراها أعود شيخ الأغبياء... ليتها تعرف أنني مازلت أنتظرها، أو ليت عبد المحسن يعفيني من هذا المشوار. أجزم أني لو صارحته بهذا لتعكّر دمه لثلاثة أيام، إن دمه يغلي دائماً في قعر رأسه ومن ثم يتوزع لباقي أطرافه. أعلم أنني سأغضبه الآن، فليغضب ليوم أو يومين، أما هي فلن أراها قبل عامٍ آخر في تمنّي مثل هذه الرؤية العابرة.

خرج من السيارة ورجاني بضيقٍ أن نغادر هذا الشارع المختنق بالصبية، وعاود نكتته الباردة اليومية:

- إن النساء هنا يمتهنّ التفريخ اليومي.

استغللت هذا الانفراج البسيط في غضبه ورجوته أن ينتظرني ريثما أعود من المكتبة.

تك... تك... تك... تك... تك... تك... تك... تك... تك...

الشارع يلد أفواجاً من النساء المحنّطات بالجمال الفاتر، وتلك الجاموسة الجميلة ليس لها أثر. لعنت امرأةً كانت ترتدي فستاناً بنفس اللون، حيث كانت تتعامل مع هذا اللون بغباء.

كان ذهابي إلى المكتبة عذراً سخيفاً لكنه الأخير كما أكدت لنفسي، وحينما دلفت إلى المكتبة لم أكن أريد شيئاً محدداً فكانت عيناي تركضان في محتوياتها

الفقيرة، وأمام نظرات صاحبها المستفسرة بادرته بالسؤال:

– ألا توجد مجلة اللوموند؟

كان هذا السؤال لأكسر عينيه المفتوحتين تجاهي، ولم أكترث لإجابته، وأخذت أقلّب تلك المجلات على عجل حين وقع بصري على مجلة تحمل صورة "مديحة كامل"؛ هذا الوجه الذي أحبّه ويذكرني بها، فهل أحمله معي وأزين به مكتبي كما أفعل دائماً. فكّرت في شراء المجلة، وبينما كنت أهمّ بذلك قفز إلى ذاكرتي تنبيه:

– أيها الغبي، أنت هنا تشتري الورق... قد تخرج الآن!

قذفت بالمجلة وقفزت راكضاً، تاركاً صوت صاحب المكتبة يلعلع. كنت ألوم نفسي لهذا المشوار الغبي، وعندما بلغت مكاني كان عبد المحسن يهمّ بالمغادرة، عائداً للبيت، وقد خلع غترته وحشا بها إبطه، فوضعته في حضني وقبّلته واعتذرت له على عجل... له قلب طفل وعناده، فقد أقسم على أنه لن يذهب، وكانت فرصة أخرى تبقيني بعض الوقت علّها تأتي، فظللت ممسكاً به متمنياً أن يطول عناده لكنه أغاظني وعدل عن رأيه وهو يقسم على أن نتحرك من حيّنا. ركبت السيارة وأدرت محركها وبدأت أحرّكها للأمام والخلف مصطنعاً صعوبة إخراجها من ذلك الشارع الضيق مما زاد في حنق عبد المحسن وتمنّى لو أنه ذهب مع حيدر.

تك... تك... تك... تك... تك... تك...

لم تأت، ومنذ ثمانية أشهر لم ألمحها، وعندما لمحتها غادرتني وشبح ابتسامة تركض على شفتيها، فتبعتها عيناي ولساني:

– هلا عيني.

تك... تك... تك... تك... تك...

فعلاً لقد أكل الذباب الزمن وانتهى كل شيء. أخرجت السيارة واتجهت عمودياً صوب الجريدة، وأنا أردد طوال الطريق:

– هلا عيني.

وتلك الابتسامة المستعجلة على شفتيها تؤجّج الماضي بذاكرتي، فيما كان عبد المحسن ينثر كلمات لا أسمعها.

١٤١٠/٩/٩ هـ

أيها القبيح... ابتعد!

نبتت الشمس على جدران ضاحية مصر الجديدة. كانت تترقّب ذلك الهدوء اليومي، تتحسس بجدائلها الأمكنة حين داهمها صوت انفجارٍ مرعب... في تلك الليلة كان هناك رجل يجوس داخل شقته يحمل حزنه المعافى ويجوب ما تبقّى من المستحيل... يصفّف ملامحه أمام المرآة...

المرآة تلد وجوهاً لها ألسنة منشارية كلها تصرخ:

– أيها القبيح... ابتعد!

يصفع المرآة بظنه... يقف قليلاً، يُخرج قلبه، يتزيّن به ويعود للمرآة، يحدّق جيداً، يلمح تلك الوجوه تنمو كالبقع السوداء وتفترش قلبه... تصرخ به:

– لا يكفي قلبك أيها القبيح!

يتراجع... يتمدد ويتسلل من أحزانه إلى بوابة النوم بقلق، تاركاً قبحه معلّقاً على وجهه كليلٍ عسعس، ويذرع جزر الأحلام بأمنيات المزن وأغنيات السواحل الطرية. تترادفُ موجات من الوجوه الهلامية لها هيئة الغربان، تقف على حافة رأسه، تنقره، فيهطل الكابوس... يحاول الهروب من أمنياته وجسده عبر الحلم، حين تصرخ به الأصوات:

– أيها القبيح، لن تهرب!

يستيقظ مسكوناً بالآخرين، يعاود التطلع في المرآة... تبزغ تلك الوجوه من شرق المرايا... تزحف... تسدّ الجهات، وتفرق وجهاً وقلباً... يصرخ بيأس:

– أنا أحبكم...

تنهال عليه لعناتهم:

– ونحن لا نحبك أيها القبيح!

ينكفئ يلملم بكاءه المدرار ويهذي:

– لا يوجد من يستر هذا الوجه بقلبه؟!

تأتيه الأصوات مجتمعة:

– لن نحبك ولو كان قلبك الماء!

انكسر طويلاً، ونهض صوته متعثراً مثقلاً بالمرارة:

– من الصعب أن ترغم الآخرين على حبك وإن كنت تحبهم!

وجد نفسه – هكذا – منبوذاً كالحزن، يسير وحيداً دبقاً، تطوح به الأعين والألسن كبقايا روثٍ لزج مقزز، فلم تكن هناك امرأة تدثّره بقلبها أو أبناء يجترّون آهاته فيخضر بهم... لا يؤنس وحدته أحد. يجلس وحيداً إلاّ من حزنه، حتى الجدران كانت تميل – عنه – نحو الغروب، وصورته على الحائط الرابع تكاد أن تسقط... تناولها... تهجّأ وجهه جيداً حين قالت الصورة:

"المشكلة الوحيدة في حياتي هي القبح... يمكنك أن تتخيل أغرب رجل في العالم؛ أقبح وجه يمكن أن تصادفه في أي مكان على الأرض؛ لتتأكد أنك تراني أمامك... الأضحوكة الدائمة... الغرابة... دائماً أنا الأغرب... الأفظع... الأقبح... القبح هو الفكرة المسيطرة تماماً على حياتي ومشاعري... أبدأ منه وأنتهي إليه... فهو محطّ البدء والوصول بالنسبة لي... القبح هو ذلك الرماد الأسود المتراكم فوق ذرات وجماليات حياتي... يصبغها بلونه القاتم الرمادي... إنه الضوء الأسود الذي يشعّ في كل اتجاهات حياتي، فيمنع عن الرؤية الشفافة الواضحة للأشياء والناس".

أعاد صورته على الجدار الغارب حين كان الأفق يلد شمساً صغيرة والآخرون ما زالوا يتطلعون إليه من شرفات المرايا. وعندما همّ أن يحرق صدره بسيجارة متخشبة، صرخوا به جميعاً:

– أحرق نفسك أيها القبيح!

في البدء كانت صرخة سيل العرم اجتاحه فيضان اليأس، فانطلق صوب "أنابيب الغاز" وأخرج مارد النار وأشعله بعود ثقاب، وتسلل خارج دائرة الحريق، تاركاً تلك الوجوه البازغة من جنبات المرايا تصليها النار.

كان يسمعهم وهم يتصايحون:

– لن نموت أيها القبيح... مت أنت!

فأسلم قدميه للريح، ومن خلفه ارتفع لهب المكان. في ركضه تذكّر:
"انظر خلفك بغضب".
أمعن النظر وبكى... ضرب جبهته بعنف:
- النار لا تحرق الأصوات... والجهات كلها خلف!
"جمّت" أعماقه بتلك الأصوات... أخذت تنمو ببطء:
- أ ي هـ ا / الـ ق ب ي ح / ن ح ن / م ع ك.
أغلق أذنيه، فنمت الأصوات في داخلة. ركض صوب سيارته، أدار مفتاحها، تطلع إلى الأمام - استعداداً للهرب -، لمح وجهه في المرآة وبصمات عديدة تحتل تضاريس وجهه... حطم بيده تلك المرآة... أحس بهم ينهضون من داخله ويصرخون:
- أنت تحملنا كما تحمل بذرة الموت!
انهار... قذف برأسه على مقود السيارة... كانت شظايا المرآة تحمل وجهه وتفاتحه بقبحه. أمسك بإحداها وخاطبها بلين:
"الغريب أن الناس يعاتبون الإنسان على قبحه... الجمال في نظر هؤلاء الحمقى هو التناسق الخارجي".
لمح ابتسامةً خبيثة على وجهه، فسارع يطبق حذاءه على تلك الابتسامة! تحركت أنامله ببطء... سحبت من درج السيارة مسدساً... رفعه في اتجاه وجهه... التقط جزءاً من بقايا المرآة المحطّمة... واجه نفسه:
- سوف أفنيك!
أحس برعبٍ يزلزله، فأمسك وحنّ أن يقبل عينيه المشبعة بالذبول، حين لمح كل الوجوه تتباسق وتتطلع إليه بفرحٍ وتحدٍّ، وتهمس:
- لن تستطيع!
أغمض عينيه دونهم حين كانت سبابته تركض على الزناد ووجهه يبتسم بحزن!...

ليس هناك ما يبهج

إلى أبي
ذكرى
وحزن
ولهفة متأخرة...

رشيد الحيدري

بعد تلك الحادثة غاب رشيد الأعمى من الحارة ولم يعد أحد يعرف مكانه.

تلك الحادثة التي ظلت أياماً غارقةً في أفواه أهل الحي، يحكيها الجميع للجميع ويتبادلون الضحك حتى تهتز كروشهم أو تدمع عيونهم، وبعد أن نضبت ضحكاتهم، وضمرت تلك الحادثة لكثرة ترديدها، اشتاقوا الرشيد وتمنوا لو أنه لم يغادر الحي حيث كان يملأ الطرقات بنكاته وأغانيه التي طالما سمعوها في الليالي المظلمة تنبعث من الراديو المحمول على عاتقه.

كانت الحارة تشعر أن لياليها انطفأت، وأن ثمة مللاً أقعد ذلك الركن الذي كان يقتعده رشيد.

ذلك المكان الذي أقسم الجميع بأنه ما زال ينزّ بعرف المسك، ذلك الطيب الذي كان يتطيب به رشيد دون سواه من العطور.

وقد بكته أخته كثيراً، ونذرت إن هو عاد لتذبحنّ عجلاً وتوزّعه على كل عابر سبيل. وتقولت نساء الحي إن هذا النذر لم يكن صادراً من قلبها بنية صادقة ولكن من أجل أن لا يأكل الناس وجهها ويتهموها بأنها تركت أخاها للضياع دون أن تكلّف نفسها بالبحث عنه أو إظهار الالتياع لغيابه، وتهامست الجارات بأنها في السر كانت تحمد الله الذي خلّصها من إعالته التي ابتليت بها منذ أن فقد بصره.

وتراجعن عن مقولاتهن حين شعرن أن نساء الحارة افتقدن من كان يسقي بدواخلهن ثمارهن الذابلة.

وفي جلسة جمعت رجال الحارة بمركاز العمدة قال ياسين الدقل:

- الله لا يرجع البعيد. لم يترك امرأة إلا ولاحقها بلسانه.

فعقّب العريفه محسن أبو الليل قائلاً:

- الحق يقال. نصف بنات الحارة تزوجن بفضل رشيد، ومن المفترض ألاّ

نغضب منه فقد عذره في كتابه حين قال "وليس على الأعمى حرج".

فقاطعه الدقل غاضباً:

– ذلك في الحرب وليس في نسائنا.

فتدخل في الحديث حسين العماري محاولاً تلطيف جو:

– الرجل يرى بلسانه أكثر مما نرى بعيوننا، ولم يكن ما يقوم به إلا ليعلمنا بأنه لا ينقصه الإبصار.

فردّ الدقل:

– ولو تقوّل على زوجتك أكنت تقول هذا القول؟!

فصمت العماري بعد أن تذكر حرقة الدقل حين ادّعى رشيد أن زوجة الدقل جاءته وراودته عن نفسه فردّها قائلاً:

– أنت لا يُقبل عليك إلا الجيف أمثال الدقل.

لكن محسن أبو الليل لم يسكت فقال:

– نعلم جميعاً أن رشيد لم يكن صادقاً في كل ما يقوله، لكنه لم يكن ينظر إلى النساء بعينيه المنطفئتين بل كان يعرفهن من خلال أصواتهن ومن سيرهن على الأرض، ولم يتحدث عن واحدة إلا غدت مهوى الأفئدة. وأذكر أنني كنت أمازحه في إحدى المرات وطلبت منه أن يصف لي بعض النساء اللاتين كن يعبرن الطريق، فكان يصفهن بدقة لدرجة أنك تظن أن هذا العمى لم يكن إلا ستاراً يختفي خلفه.

وأمّن الجميع على هذه المقولة واستشهدوا بأن كثيراً من بنات الحي لم يكنّ محل اهتمام الرجال إلا بعد أن تشبّب بهن رشيد.

فقاطعه الدقل غاضباً:

– أنتم تثنون على هذا الماجن لأنه حلّى نساءكم في أفئدتكم وتنسون أنه كان خلف كثير ممن تطلّقن من أزواجهن حين ينعتهن بالجيف التي لا يقبل عليها إلا الكلاب.

وتركهم وهم يتصايحون به ليرجع، لكنه مضى يزمجر بين تلك المنحنيات التي غيبته عن أبصارهم.

أصبح غياب رشيد الشغل الشاغل لأهل الحي، فبعد أن روت إحدى السيدات المسنّات، التي لا تخطئ رؤيتها أبداً، أنها رأته في المنام يلبس رداءً أخضر ويغنّي

بصوت أنثوي، وفجأةً يمسك بالطار ويرقص في أرض خراب حتى يستحيل نسراً ضخماً يحلّق في الفضاء فارداً جناحيه وحاجباً قطرات الماء من أن تهطل على الحي، ثم يهبط على أسطح المنازل ويصيح بصوت كالرعد:

- سأجعلها خراباً... سأجعلها خراباً.

وانتشر هذا الحلم بين أهالي الحي، فصدقه الكثيرون حتى أن مؤذن المسجد محمد اليوسفي صاح بالمصلين عقب صلاة الظهر:

- ألا ترون! انظروا إلى السماء، فالغمام يعبرنا دون أن تحطّ قطرة واحدة على هاماتنا!!

وبعد ثلاثين يوماً من غياب رشيد خرجت الحارة تبحث عنه، وأقسموا أنهم كانوا يجدون رائحته أينما اتجهوا دون أن يعثروا عليه.

وظلوا لا يُمطَرون سنة كاملة، وفي إحدى الليالي أنزلت عليهم السماء ماءً فجاجاً حتى ظنوا أنهم غارقون، فقالت تلك السيدة المسنّة التي تناقلوا حلمها:

- ما هذا الغيث إلا لكي يروي قبر رشيد.

وتيقّن أهل الحي من موته، فأقيمت سرادق العزاء وأقبلوا يعزّون بعضهم بعضاً، وأقسمت أخته على ألاّ ترى النور بعد فراقه، فربطت على عينيها عصابة سوداء، وأوصدت بابها، وركنت في بيتها تندب أخاها في كل حين.

ومات رشيد في ذاكرة الكبار، وتناسوا حادثته كما يتناسون موتاهم. وبعد سنين طوال عادت ميمونة تذكّرهم به.

في البدء قيل إنها أصيبت بمسّ، فلم تكن لتتحدث أبداً وعافت زوجها وأبناءها، فطرقوا بها أبواب الشيوخ والسادة فلم يزدها ذلك إلا نفوراً، وتحول صمتها إلى هذيان مستمر:

- انتظرني يا رشيد.

وانتكست حالتها، وأصبحت تخرج في الليالي المظلمة لتجلس في مكانه وتناجيه بحرقة، حتى إذا انتصف الليل أخذت تدور في أزقة الحي بنحيبٍ فاجع:

- لماذا تهرب مني يا رشيد... انتظرني!

ويقال إن زوجها كان يربطها بالسلاسل لكنه يفاجَأ في الليل أن قيودها مقذوفة في مكانها، وصوتها من الخارج ينتحب:

– انتظرني يا رشيد!!

ولم يتوقف ذلك النحيب الليلي إلا بنقلها إلى شهار[1] لتعاود الحارة مضغ سيرتها بكثيرٍ من اللوعة والحسرة.

كان رشيد الحيدري فاكهة الحي.

ولم يكن العمى يعيق توثّبه ومقدرته الفذة في حبك الأقاويل والحكايات، ومازالت الحارة تذكر له تلك الحادثة التي جعلت المصلين يتضاحكون متناسين حرمة المكان الذي هم فيه. ففي إحدى الجمع تأخر الخطيب، وكان المصلون يتهامسون بذلك، ولم يشعر الناس إلا ورشيد يتلمّس طريقه نحو المنبر، وقد ألجمتهم المفاجأة ولم يشعروا به إلا وهو يقف فيهم خطيباً. كانت خطبته مزيجاً من النكات ومن المواعظ السيّارة على أفواه العامة، ولم يعرف كيف ينهي خطبته فاستطالت حتى دخل عليهم وقت صلاة العصر، ولم ينتبه لفوات الوقت إلا اليوسفي الذي كان يتحرك في مكانه متململاً، ثم تهامس مع جيرانه في الصف فتحركوا وأنزلوه وهو لا يزال يخطب مما حمل المصلين على الضحك بصوت مرتفع... وأصبحت تاريخاً من تواريخ أهل الحي حيث يقولون: ولد فلان بعد خطبة رشيد، أو يقولون: مات فلان قبل خطبة رشيد بأيام.

وقد اشتهر منذ طفولته المبكرة بالشغب، ذلك الشغب الذي أودى ببصره. وقد روت أخته عائشة الحيدري هذه الرواية:

لم يسلم أحد من أذى رشيد، فقد كان صبياً معجوناً بماء الأبالسة كما وصفته أمي التي روت لها مولّدتها أن وليدها سيكون نقمة ما لم تحجبه خلال الأربعين يوماً من عمره، وأكدت مقولتها تلك بأن الوليد يحمل شارة في جبينه لا تأتي إلا مع الصبية الذين يمسّهم الشيطان أثناء ولادتهم. لذلك ادّعت أمي أنّ وليدها "سباعي"، وسط استنكار النساء العارفات بموعد ولادتها، ووضعته بلفّة قطن وغطّت وجهه بطرحة سوداء. وقبل أن تنتهي مدة الحجابة رأته إحدى المسنات، وكان مغمضاً عينيه وفاتحاً فمه، فاقتربت من أمي وأسرّت إليها:

– المكتوب مكتوب، فابنك هذا سيرى بلسانه، وأنصحك أن تقطري في فمه سكر نبات.

---

١ شهار: مستشفى للمجانين يقع في مدينة الطائف.

ولم تكتفِ بتلك النصيحة بل تحرّكت صوب الوليد وأزاحت عنه تلك الطرحة السوداء، وبللت إصبعها بريقها وحنّكته ووشوشت له في أذنه بكلمات لم يسمعها أحد. وكانت أمي دائماً تقول:

- رشيد ملسن كالتي حنّكته.

وقد بدأ لسانه يطول قبل أن يكمل السنتين. كان ذا لسان زفر، وكأنه بلل في بيارات الحي، فكانت شتائمه تتطاير دون أن تجد لها رادعاً. وعندما نهض من طفولته الأولى وخرج إلى الشارع، كان هناك من يشتكي من رشيد يومياً، ولم يكن ليهدأ أبداً حيث تجده متشاجراً أو محرّضاً على شجار... كان أبي عاجزاً فيما يصنع مع رشيد، فقد ابتكر أنواعاً شتى من التعذيب ليثنيه عن شغبه فلم يزده ذلك إلا تصميماً في الانغماس في إيذاء الآخرين.

وقد تطور أذاه وأصبح يصعد أسطح المنازل ويتربّص بالنساء مع أزواجهن. ففي إحدى الليالي جاءنا جارنا "حتيمش" يغلي غضباً، وكاد يخلع بابنا من شدة الطرق، وعندما سمع أبي شكوته غاص في خجله ووعده أن يؤدّب رشيد بما يليق بفعلته. وأمضى رشيد خمسة عشر يوماً يتلقى فيها السياط حتى شفع له "حتيمش" نفسه.

وفي إحدى الليالي المقمرة انفرد أبواه بنفسيهما في غرفة منعزلة من الدار، ولم يكن يدور في خلدهما أن عين رشيد تتربّص بهما من خلال النافذة المفتوحة، وعندما أناخ أبي بلذّته سريعاً سمع صوت ابنه يصيح به من خارج الغرفة:

- أفا على الرجال. ظننتك فحلاً فإذا بقذفك أسرع من حتيمش!

وقد كلفته تلك الجملة بصره، حيث خرج أبي غاضباً ومقسماً على أن يطفئ له ضوء عينيه، ولم تفلح توسلات أمي و"وجاهة" الجيران في ثنيه عن تنفيذ قسمه، فسحق عدة قرون من الفلفل الأخضر وذراها بعيني رشيد، ليعيش ما تبقى له من عمر كفيف البصر.

وقد ندم أبي على فعلته تلك حينما كان يشاهد ابنه الوحيد يصطدم بالجدران وهو يبحث عن طريقه، وأصبح يقوده إلى أي مكان يريد وهو يذرف دموعه ويستسمحه في كل حين، وظلّ نادماً حتى وافته المنية، وكان على فراش الموت وهو يلهج باسم رشيد طالباً منه السماح فلا يسمع منه سوى:

– لقد أظلمت عليَّ دنيتي ولا بد أن أظلم عليك آخرتك.

***

اكتسب رشيد ثقافةً هائلة من خلال المذياع، وكان شغوفاً بمتابعة الأخبار، فلم يكن يستقر مؤشر "راديه" السوفييتي إلا على الأخبار أو التحليلات السياسية. وقد بلغ به الهوس أن طلب من جاره يوسف بن أحمد كاتب المعاريض أن يكتب له رسالة إلى جمال عبد الناصر، وقد ارتاب منه يوسف وامتنع عن الكتابة مذكّراً إياه من هو جمال عبد الناصر:

– أنسيت ماذا فعل بنا جمال؟

فأخذ يسوسه ويتطلف معه في الحديث شارحاً له أن العرب كلهم الآن في خندق واحد، فاقتنع يوسف بن أحمد وانفتحت شهيته للكتابة، وأخذ دواته وقلمه الخشبي وجلس مع رشيد يدبّج خطاباً للرئيس جمال عبد الناصر، وبعد أن أكمله أخذ يقرأه بحبور على مسامع رشيد الذي اشتاط غضباً ونهض منفعلاً زاجراً جاره بكلمات نابية أتبعها بتحسّف:

– حرام أن تدلق كل هذا الحبر وأنت لا تعرف شيئاً من أمور الدنيا.

وأمره أن ينصرف بعد أن أوصاه:

– قل لزوجتك أن تعلّمك قليلاً من حلاوة حديثها.

كانت هذه الجملة كفيلة بجعل يوسف بن أحمد يثور ويمسك بحلق رشيد ملقياً به على الأرض وصاعداً على صدره وموجّهاً لكمات ساحقة إلى وجه رشيد الذي أخذ يهيل له الشتائم كيفما اتفق. ولولا أن المارة تدخّلوا وعابوا على يوسف بن أحمد أن يضرب كفيفاً لانتهت تلك "المضاربة" بما لا يُحمد عقباه بالنسبة لرشيد. وكان من نتائجها أن انقطع السلام فيما بينهما، وإن ظل لسان رشيد يصيب ذلك الجار بأذى كلما سمع صوته.

كانت نافذته الوحيدة على العالم الراديو حيث كان يتنقل بمؤشره خلف الأخبار، وإذا مر به المارة يتندرون به:

– ما آخر الأخبار يا رشيد؟

فيردّ بفرح:

- تجمع كل الإذاعات العربية بأننا طوّقنا إسرائيل، وأننا على أبواب فلسطين.

فيتركونه يواصل سرد تفاصيل الأخبار، وما تقوله كل إذاعة على حدة، حتى إذا شعر بأن ليس أحد بجواره غصّ بالحديث حتى يتوقف تماماً.

وكان يتلمس شيئاً إضافياً ممن يجالسهم، أو يذهب إلى مجالسهم، وعندما يجدهم يتحدثون في أمور أخرى يبادر بالحديث عمّا يدور على جبهات القتال، فيسكتونه بضيق:

- مالنا ومال ما يحدث خارج بلادنا يا رشيد.

فيتركهم بعد أن يشبعهم لعناً، ويشبعوه سخرية.

وفي ذات مساء أخذ يجوب الأزقة بصوت باك:

- أيها النائمون، اتركوا مراقدكم فلن تقوم لنا قائمة بعد اليوم.

في تلك الليلة أصيب بجروح عديدة في أجزاء متفرقة من جسمه، كان أخبثها شجّ اعتلى جبهته قليلاً حينما اصطدم بمصباح البلدية المعلّق بزاوية الشارع. كان صوته محروقاً حفّز الكثيرين على القفز من مخادعهم والخروج لمعرفة ما حدث، كان قد استقرّ ركضه ببرحة السكري وإن لم يهدأ تهيجه حيث كان لا يزال يلهث والزبد يتطاير من بين أشداقه، وذراعاه منفتحتان كمن يبحث عن أي شيء ليمسك به وينوشه حتى إذا شعر بهم يلتفون والكل يجذبه باتجاهه:

- ماذا حدث يا رشيد؟!

صاح مولولاً:

- لقد خدعونا.

- من هم؟!

فجثا على ركبتيه وصاح بأعلى صوته:

- لقد قصفوا الطائرات وهي رابضة في مدرجاتها.

- أي طائرات؟!

- ألم تسمعوا جمال... لقد أعلن الهزيمة.

فاغتاظ أحد الحاضرين وصاح به:

- "يلعن أبوك على أبو جمال" توقظنا من منامنا من أجل كلام فارغ كهذا.

وتصايحوا به زاجرينه من التمادي في صراخه، فانحنى على الأرض وحثاهم بالتراب وهو يصيح:

– إسرائيل ستتنفس هواءنا يا أولاد الكلب.

فتركوه يهذي وهم يلعنونه في كل كتاب، وعادوا إلى مخادعهم بينما ظل يجوب الأزقة صائحاً بصوت محروق:

– لن تقوم لنا قائمة بعد اليوم.

بعدها انقلب تماماً ولم يعد يستمع إلى الأخبار البتة، وأصبح مولعاً بسماع الأغاني النسائية.

***

كان يجلس تحت عمارة الجوهري بثوبه الأنيق وطاقيته المشغولة بإتقان بخيوط القطن والمزينة بصواري ذات أعلام مثلثة الشكل، وثمة جملة كُتبت بشكل دائري على طاقيته "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين"، وإذا سئل عن تلك الجملة تضاحك وأردف:

– لكي أوهم من لا يعرفني بأنني أرى.

كان يجلس في مكانه وقد تخلّص من وساوسه القديمة ولم يعد من همٍّ لديه سوى سماع الأغاني وإطلاق النكات الماجنة كيفما اتفق.

وقد لاحظ أهل الحي ذلك التغير المفاجئ الذي أصاب رشيد حيث أصبح يعتني بهندامه كثيراً، ويطلق الغزل المكشوف بدروب النساء العابرات بمجلسه، واستعاض عن الراديو بجهاز التسجيل التي وصفها بأنها خير من الراديو والتي تبثّ ما تشتهي، وقد تدرّب على وضع بكرات التسجيل بعناية وكان يذهب يومياً إلى سوق الخاسكية لمعرفة آخر ما غنّت ليلى نظمي ليقتنيه، وقد تسرب خرب هيامه بها حين أسرّ لأحد جلسائه الخلص أن صوتها وحده لكفيل بجعله ينتصب حتى يريق على نفسه ماءه الدافق، لذلك يظل طوال يومه وهو يحرك مؤشر الراديو بحثاً عنها في أي إذاعة، وعندما أعياه التعب والبحث أقدم على شراء جهاز التسجيل بمبلغ باهظ كلّفه أن تنازل لأخته عن ميراثه في البيت الذي كان يشاركها السكن فيه، وقد بدا أن هيامه بليلى نظمي بلغ حدّاً جعل رجال الحي وصبيانه يطاردونه بأصواتهم كلما لمحوه:

- ادلّع يا رشيد على وش الميّا.

وكان يقابل تلك الأصوات بنثر الحجارة في أي اتجاه حتى أنه أصاب الكثيرين من المارة دون أن يكون لهم يد في تلك التحرّشات التي دائماً ما تأتي لإثارته والاستمتاع بأذيته كانتقام من لسانه الذي لم يسلم منه أحد في الحي.

وتعود إطلاق تلك الأغنية على مسامعه حتى غدت عبرته بين أهل الحي لما روي عنه من أنه بعد أن تغلغل بأحشائه هواها لم يجد بدّاً من مراسلتها، فقام بتسجيل شريط ضمّنه أجمل قصائده وحكى لها فيه عن هيامه ولوعته بها وبعث به إليها، ومازال ينتظر ردّها حتى سمعها في آخر أغانيها تردّ عليه بأغنية: "ادلّع يا رشيد على وش الميّا"، وظل يستمع إلى هذه الأغنية بانشراح ودندنة مترنمة إلى آخر لحظة من مغادرته للحي.

***

كان رشيد رجلاً طويلاً ذا ملامح بارزة، يعتني كثيراً بهيئته، ويجبر أخته العانس على تشذيب ذقنه وشاربه، وإشباع عينيه المفتوحتين بالكحل، ورشّ قارورة عطر المسك على بدنه حتى إذا ارتدى ملابسه نزّ المسك من إبطه وصدره. ويزداد حرصه على الاهتمام بأناقته واستكمالها إذا كان ثمة زائرات يتواجدن عند أخته، وكانت نساء الحي يتباسطن معه في الحديث ويستحملن ظرفه لدرجة أنهن يطلبنه لمشاركتهن حديثهن.

وتحدث رجال الحي عن أن رشيد قد فسد بعد مجالسة الحريم، فلم يعد ذلك الإنسان المهتم بما يحدث خارج محيط النساء حتى أنه أصبح خبيراً بشؤونهن وعالماً بخبايا أسرارهن، وأنه أصبح يستمع إلى شكواهن من أزواجهن ويبدي لهن النصح في ما أشكل عليهن، ويدللون على فساده بصوته الذي لان وتموّج حتى غدا كصوت أنثى محترفة البغاء.

وتحدثت نساء الحي عن أن رشيد أصبح رقيقاً كالماء، وأن حديثه يذهب الكرب ويزيل أكوام الحجارة التي يلقيها أزواجهن بدواخلهن حتى أصبحت كل أنثى بالحي تتمنى أن يحدّثها رشيد لبعض الوقت، أو أن ينشد فيها كلاماً مما يقوله فيمن يرقّ قلبه لها.

انغمس رشيد في عالم النساء، ولم يعد هناك متسع من الوقت لأن يعمل شيئاً سوى متابعة أخبارهن والسؤال عن أحوالهن. وكان في عالمه هذا يميز بين كل واحدة، فهناك المرأة الأثيرة لديه، وهناك المرأة المشفق عليها، وهناك امرأة لا يطيق سماع صوتها وإن قيل له إن جمالها يسقط الطائر من عليائه، وكان ميزانه في قرب المرأة أو بعدها من قلبه نعمة وتموجات صوتها ورنّة ضحكتها، وكان دائماً يردد:

– إذا لم تكن المرأة قادرة على أن تحركك بصوتها فهي أشبه بالطبل المثقوب الذي ينفّرك ويؤذي سمعك.

ومع كثرة مجالسة النساء أصبح يميّز كل واحدة من صوتها ويرسم لها صورة بخياله، وكان دؤوباً على معرفة خبايا هذا العالم الذي وصفه بأنه عالم الأحياء.

من هذه المجالسة نبتت لديه هواية غريبة حيث كان يجمع عطور النساء في غرفته، ولكل عطر اسم امرأة وصورة ما في خياله عن صاحبته. وقد تولّدت هذه الهواية حينما عاتبته إحدى السيدات من كونها لا تراه بالرغم من تواجدها المستمر في بيت أخته في كل ظهيرة، فاعتذر إليها بأنه في مثل هذا الوقت يخرج من البيت هرباً من الحر والضيق إلى الالتجاء بظل عمارة الجوهري حيث الهواء الذي يبدد تلك الرطوبة التي تفسد رائحته، لكنها انساقت في عتابها ولم ترضِها حجّته، وسرعان ما لمعت في مخيلته تلك الفكرة فاقترح عليها أن تمنحه عيّنة من عطرها حتى إذا عبرته عرفها من رائحتها، فاستجابت لطلبه ومنحته زجاجة صغيرة من عطرها، فكانت إذا عبرته رفع صوته بالأغاني والترحيب وحمل "راديه" على عاتقه وعاد إلى البيت ليجدها في انتظاره، فيبادلها الأحاديث والنكات.

وسرعان ما سلك هذا المسلك مع بقية النساء حيث طلب من كل واحدة أن تزوّده بعيّنة من عطرها حتى أصبحت غرفته ممتلئة بأنواع شتى من العطور. وكان إذا وجد أن اثنتين اجتمعتا في عطر واحد طالب واحدة منهما بتغيير عطرها بحجة أنه لا يليق بجمالها وأنوثتها الطاغية، وقد استجبن لطلباته مسرورات، فأصبح لكل امرأة عطرها الخاص يعرفها من خلاله. أما اللاتي يصفهن بالطبول المثقوبة فقد حرص أيضاً على معرفة عطورهن كي لا يقع مع واحدة منهن في موقف لا يحب لنفسه أن يقع فيه، وعندما وجد أن عطور بعضهن تتشابه مع من يحب عمد على توحيد عطرهن، فكان يحرّضهن على شراء عطر ذي رائحة نفاذة ويجلب الدوار

ويتم تجميعه محلياً من مجموعة عطور، ذلك العطر الذي أصبح فيما بعد يضرب به المثل في قبح الرائحة فيقال: أقبح من رائحة طبول رشيد!

وأصبح رشيد يحمل في جيبه عدة زجاجات لعطور متنوعة يتباهى بها بين جلسائه حيث يخرج كل زجاجة ويسمي صاحبتها أو يرمز إليها. وبعد أن يمرر تلك الرائحة على أنوفهم يبدأ في سرد حكاية كل عطر، فلكل عطر امرأة ومغامرة يرويها بتدفق.

كانت عائشة امرأة عانساً تستظل بأخيها الأعمى وتحرص على أن تكون محبوبة من قبل الجارات، وقد امتازت بطيبة متناهية جعلت بيتها سمراً لكثير من نساء الحي. وكانت تنهى أخاها من أن يغشى مجلسها إلا أن زائراتها كن يستمتعن بحديثه ولا يمانعن من وجوده بينهن حتى وإن استطال لسانه في ما يخجلن من التحدث فيه. وكان رشيد يتبرع بإيصال أي امرأة تتأخر ليلاً عند أخته، ويستغل عماه ليمسك بيد من يوصلها طوال الطريق، وفي هذه الأثناء يترك أنامله تعبث برائحة من يوصلها حتى إذا أحس بنفورها اعتذر بأنها عادة سخيفة تعود عليها، ومن صمتت فإنه يتجرأ لأن يمسك الساعد والأكتاف وما تحتهما ولا يصل إلى بيته إلا غارقاً في مائه المتدفق دوماً بسبب أو من غير سبب.

وروت إحدى جليسات أخته أن "رشيد" غادره الحياء وأصبح يظن أن كل امرأة متيمة بهواه، وقد حملت على أخته وتشاجرت معها لوقت طويل، ووصفت أخاها بالتيس المخصي الذي يظن أن به من الفحولة ما يمكنه من الركض خلف أغنام الحي بينما هو لا يقدر على التبول بشكل مستقيم. وقد أغاظت هذه الشتيمة "رشيد" الذي كان يسمع تلك المرأة وهي تتشاجر مع أخته، فخرج من غرفته حتى وقف في وسطهما، وحلّ مئزره ليظهر عضوه المنتصب بتوتر وصاح بتلك المرأة:

– هل تقسمين أن هذا لتيس مخصي.

فولولت المرأة وخرجت وهي تشتم آباءه وجميع رجالات الحي الساكتين عن هذا الأعمى الذي تلسّن على كل النساء دون أن يردعه أحد.

***

لم تكن تروق له سوى ميمونة التي وصفها بأنها ريحانة الحي. فقد كان شغوفاً

بها لدرجة أنه انتقل من مكانه المعتاد ليصبح مكان جلسته مجاوراً لبيتها بالتمام، وزاد تيهاً بها حين أقسم على أخته أن تصفها له.

كان عشق ميمونة قد نخر عظامه فلم يعد يكترث بأحد ويجاهر بعشقه لها على الملأ حتى تحول إلى مراهق صغير، فنظم فيها القصائد الركيكة التي ما إن يشمّ رائحتها أو يسمعها تنادي على أحد أبنائها الصغار حتى يسيل بتلك الأشعار الساذجة على مسامعها.

وقد حاول أحد الجيران أن يثنيه عمّا هو عليه، مذكّراً إياه بحبيبته ليلى نظمي التي قد يسوؤها تصرفه هذا، فردّ عليه بإيجاز:

– لقد أجاز الشرع أن أتزوج بأربع، وأنا لا زلت أعشق اثنتين!

وأقسم لو أن زوجها يطلقها ليبيت بها بعد اكتمال العدة مباشرةً. لم تكن كل المحاولات التي بُذلت كفيلة بجعله يرتدع عن مضايقة ميمونة، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به زوج ميمونة. ففي ذات ليلة خرج إليه مستغلاً فراغ الشارع من المارة وأمسك به وأشبعه ضرباً ولم يتركه إلا جثة هامدة يتقطر منها الدم من كل مكان، وعلى العكس كانت هذه المحاولة هي الشرارة التي أحرقت الهيام في صدر رشيد، وقد ادّعى أن ميمونة متيمة به وقد أخبرت زوجها بذلك وطلبت الطلاق منه لترتبط به، ولأنه ليس رجلاً لديه كرامة فقد أصرّ على أن يبقي ببيته امرأة لا تحبه. وقد زاد هذا اليقين عند رشيد حينما تغيرت معاملة ميمونة له وأصبحت تناغيه إذا كان الشارع مقفراً، وتخرج لسماع أحاديثه في أنصاف الليالي. تمادى رشيد في طلباته، فقد كان كل يوم يطلب شيئاً فتمنّيه بالغد إلى أن طلب أن يجالسها، فماطلته كثيراً وأخيراً رضخت لطلبه ومنحته وعداً.

***

كان الموعد عصراً حيث تكون الحارة في أوج صخبها، فالباعة المتجولون يملأون الشوارع بنداءاتهم وصيحاتهم، ورجال الحي متناثرون في ساحات متقاربة للعب الضومنة أو لتبادل الأحاديث، والأطفال يمرحون بألعابهم المختلفة... كان وهو يسير إلى الموعد يسمع كل هذا الضجيج وثمة طائر يحلق في داخله فيغطي على كل هذا الصخب. كانت الإشارة فيما بينهما أن تخرج ميمونة وتنادي على أحد

أبنائها ليتحرك رشيد في الحال ويدخل إلى داخل البيت. عندما بلغ المكان سمع الترحيب من مجموعة كبيرة من الناس، وكان هذا محل ضيق شديد بقلبه، ووجد أنه لو صاح بهم أن يبتعدوا لبقوا مدى الدهر. كان همه أن يبعدهم عن هذه الناحية بأي صورة كانت، وبينما هو يفكر إذا برجل من آخر الشارع يعرف صوته تماماً يصيح منادياً:

- امسكوا حرامي.

فتقافز الرجال والأطفال ملبّين تلك الصيحة، وفي تلك اللحظة سمع صوت ميمونة وهي تنادي على أحد أبنائها فتحرك على عجل حتى كاد يقع... كان يشعر بدقات قلبه تتعالى حتى تتحول إلى دق طبول مخيفة، ولم يهدأ إلا عندما أحسّ بيد ميمونة وهي تسحبه بجوار الباب ووقفت بجواره وقالت له:

- ها أنا أمامك، ماذا تريد مني؟

فتخلى عن ارتباكه وأخذ يبثّها أشواقه. كان ينتظر منها أن تبادله اللوعة وتتصبب بشوقها، ويحلم بأن يضع رأسه على صدرها وتسرح بأناملها بين خصلات شعره الناعمة، لكن هذا الحلم انطفأ وشعر بالاشمئزاز حين قالت له:

- أريد أن أرى فحولتك.

انتفض وانتابه الضيق وأحس بقلقٍ يعتريه، لكنه تجاسر على خوفه واقترب منها وحمل وجهها بين راحتيه وظل لوقت يمرر أنامله على تضاريس وجهها، وبصوتٍ متهدج حمل كل شوقه إليها:

- اعلمي يا ميمونة أنني اشتريك بالدنيا، وأنني سأنتظرك لآخر لحظة من عمري.

فاجأه صوتها الصارم:

- دع هذا جانباً، فأنا أريد أن أرى فحولتك!

وعندما تباطأ انساقت في غنج بكر تطالبه بذلك، فضمّها إلى صدره وسكب تأوهات عميقة، فتملصت من بين يديه وأخذت تخلع له ملابسه قطعةً قطعة. كانت كل قبلاته تطرقع في الهواء، فكلّما شمّ رائحتها وحاول الإمساك بها طالبته بالتمهل حتى أصبح غير قادر على شيء سوى التلذذ بما يمكن أن يحدث له لأول مرة فجأةً جاء الطرق عنيفاً على الباب، وصوت زوج ميمونة يلعلع من خارج البيت:

- افتحوا الباب.

ارتبك رشيد وتمتم لميمونة:

- إنني أشم رائحة هذا الثور منذ أن قدمت.

فبادرته ببرود:

- لا تكترث.

كانت ثابتة تتصرّف بآلية وخبث، وبهدوء قادته في دورة دائرية وهي توصيه:

- اسمع، سأتركك في الحوش المجاور فلا تحدث صوتاً حتى يذهب، فأنا مازلت راغبة في رؤية فحولتك.

وقادته من يده وطالبته أن يعبر عتبة الباب المؤدي للحوش ودفعت به للأمام فشعر بالهواء يلفح جسده العاري، وقبل أن يستوي في وقفته كان أهل الحارة يقفون عليه ويتصايحون:

- رشيد، ما الذي أخرجك عارياً؟

فأحسّ بهم يحيطون به من كل جانب، فأخذ يستر بيديه عورته، إلاّ أن عصا كانت تنخس مؤخرته وصوت زوج ميمونة يرتفع:

- ألم أصح بكم: أمسكوا الحرامي! ها هو من يتسلل يومياً إلى بيوتنا، والحمد لله لقد استطاعت زوجتي أن تمسك به عارياً.

كان رشيد في وضع يرثى له وهو يسير محاولاً ستر عوْرته بيده، وثمة قضيب ينخس مؤخرته، وأهل الحي يسيرون من خلفه يزفّونه بالضحكات المستهجنة.

١٤/١٢/١٤١٤هـ

أناشيد الرجل المطارد

دفعني حتى كدت أن أقع على وجهي. كان صوته ثقيلاً كجزمته:
- يا لص!

عندما تجاوزت طفولتي الأولى دخلت إلى "صندقة" للدجاج، حيث كان الكون يجمع أشياءه ويدلف لبوابة الظلام بحذر.

في محاولاتي للإمساك بالدجاج كانت تتقافز من أماكنها مصدرةً أصواتاً حادة، ولكي لا يُكتشف أمري فقد اكتفيت بما قبضته يدي، كنت أمسك بخمس دجاجات كيفما اتفق، وهممت بالخروج من "الصندقة" قبل افتضاح أمري، لكن بابها أُغلق من الخلف بمزلاج بينما كان ثمة وجه ناري يتربّص بي من خلف الشيش ويصيح بحنق: "يا لص!" وغادرني وهو يمعن في شتم آبائي ومن هم على شاكلتي.

كنت ملصقاً وجهي بذلك الشيش وعيناي تبحثان عن أي عابر سبيل كي أتوسّل إليه أن يفتح لي باب تلك "الصندقة"، لكن تلك الأزقة كانت خالية من المارة، فأخذت أبحث عن منفذ أهرّب من خلاله جسدي النحيل. في أعلى "الصندقة" استقرّت فجوة نفرت من أطرافها مسامير صدئة، وقد غُطّيت بصفيح رقيق لم يُثبّت بأي شيء وإنما قُذف من الأعلى ليغطّي هذه الفرجة. تلفّتُّ حولي فأبصرت "بلوكتين" وضعتا في زوايا "الصندقة"، فحملت كل واحدة على حدة ووضعتهما فوق بعضهما وصعدت عليهما لأصل لتلك الفجوة. دفعت الصفيح فبانت فرجة ضيقة زاد من ضيقها تلك المسامير، ثم أخرجت يدي اليمنى وألحقتها بالأخرى ودفعت جسدي لأعلى فانغرست المسامير في صدري. كنت أصرخ مستغيثاً فلا أجد من يستجيب لهذه الاستغاثة الواهنة، وأصبحت مشكلتي كيف أعود إلى داخل "الصندقة" بعد أن أصبح من الاستحالة أن أمرر جسدي من خلال تلك الفرجة الضيقة، وكلما ضغطت قامتي نحو الأسفل شعرت بالمسامير تحكّ عظامي

وأحسست بدمائي تجري دافئة لزجة وتتقطر على ما تبقّى من جسدي المعلق. وبعد محاولات سفكت فيها دمي وصرخاتي أحسست بقدمي تلامسان تلك "البلوكتين" اللتين وضعتهما من أجل الارتقاء.

تلمّست صدري وظهري وجنبي فأحسست بينابيع تفور بالدم، فمددت يدي أخمش من تراب الأرض الذي اختلط بـ"بصو" الدجاج وأردم تلك الفتحات التي امتدت على هيئة خطوط متوازية. جلست متحفزاً وكلما مضى الوقت اتّسعت دوائر الخوف في داخلي، فأقفز من جلستي وأعاود المحاولة ومع كل محاولة جروح جديدة أو إيعاز للجروح السابقة، وعندما يئست تكومت بجوار الدجاج الذي هدأ حين وجدني أشاركه محبسه، وعزمت أن أتملص بأي طريقة كانت وقد رسمت في مخيلتي طريقة تمكّنني من الهرب بمجرد أن يفتح هذا الباب المغلق.

اطمأننت لفكرتي، وتكوّرتُ بجوار الدجاج، ودندنت بأغنية كنت أسمعها من أبي حين يعود ليلياً من تعبه:

زموج بو لبانة ما هدبلك تهامة؟!

هديت أتخضر حطيت في ملزامة

غالباً ما تكون أمي ساخطة تلعن حظها العاثر الذي أوقعها عند زوج لا تكاد تراه حتى يعود من حيث أتى. كنت أفتقده كثيراً، وعندما أسأل أمي عنه تثور وتشقّق وجهي بصوتها الغاضب:

- أبوك كالأفعى تخرج لتلدغ وتعود إلى جحرها؟!

كنت ألمحه - عندما يكون بيننا - مكسوراً يتدلى رأسه بين يديه وتأوهاته تخرج محروقة، فأقترب منه وأقبّل يده، وحين تلمحني تصرخ بي:

- ستكون مثله!

فتتقطّر عيناه، ويضمّني بقوة، ويجهش بصوتٍ مرتفع.

في ذات صباح استيقظت فوجدته يجلس بيننا دامع العين، يمسك بيده اليمنى المدفونة بكيس أبيض ويبكي بصوتٍ محروق؛ تلك اليد التي غادرتها كفّها من المعصم، وعجز ذلك الكيس الأبيضُ عن أن يستر فضيحتها. اقتربت منه، فلم تقوَ يده على أن تدني رأسي من فمه ليمرّر شفتيه على خدي، كالعادة، فبكيت ودفنت رأسي في حجره. كان نشيجي محموماً وأنا أسكبه بين جوانحه، فأسمع لصدره

خشخشة مكبوتة. سألته عن كفه المبتورة، فضمّني إليه بقوة وتساقط نشيجه، وكلما أعدت عليه السؤال التصق بي واستسلم لتلك الموجة العارمة من البكاء المتهدج. كان ينتحب ولم يكن بوسعي سوى أن أشاركه البكاء والاحتضان، وبعد أن أفرغ لوعته مسح رأسي بيده وأخذ يتطلع إلى عيني بحب يخالطه انكسارٌ مرير. أمسك بوجهي، وعيناه لا تزالان غائمتين خلف دموعهما، وتحدث بصوت عميق:

- عندما تكبر وتجد أفواهاً تنتظرك ستتنازل عن كل شيء... كل شيءٍ!

ووقف أمامي كمن يرجوني - بانحناءة طويلة - أن أغفر له زلّته حينما أكبر. تلك الانحناءة لم تمهلها أمي وقتاً كافياً كي تستعيد استواءها، فقد اقتربت منه ووضعت في يده "بقجة" صغيرة فيها أشياؤه البسيطة، ودفعته بيدها للأمام... بعدها لم يعد يقبّلني أبداً وضاع في دهاليز الحياة.

في الطرقات كنت أسمع أقراني يقولون عني إنني ابن لرجلٍ سارق، ويتندرون عليّ ويروون أن أبي عندما لم يجد ما يسرقه بحث طويلاً وعاد يحمل يده التي قطعت، وحين أخذت والدتي في إعداد وجبة الغداء لنا داهمتنا الشرطة تطالب بكفّها المسروقة، وعندما وجدوها قد طُبخت ونزّ مرقها طالبوه بكفّه الأخرى عوضاً عن الكفّ المسروقة، وعندما عجز عن السداد نفوه إلى جزر بعيدة.

مضى زمن طويل والأفواه تلوكنا، فحين غرب ذلك الوجه الكالح السمرة لم نعد نتزود إلا بالأقاويل الساخرة حتى إذا أفرغوا ما لديهم من همز ولمز نسونا، ولم يعد يذكرنا إلا الجوع والتعب.

وقد ظلت تلك المسكينة ردحاً من الزمن تغمس حياتها في كل الطرقات كي يستقيم عودنا وننهض لمواجهة الشمس بدلاً عنها. سقطت فجأةً ولم تعد قادرة على أن تمدّ عنقها خارج المنزل، وذات مساء دفعتني بأنين متقطع:

- ابحث لك عن عمل... أي عمل. المهم أن لا تعود فارغ اليدين.

وحين خرجت كانت أبواب الرزق مغلقة في تلك الظلمة، مددت خطوتي بعيداً وأصوات إخوتي تموء في مخيلتي، وكقط متوحش اندفعت إلى "صندوقة" الدجاج، وقبل أن أخرج كانت عيناه تتربصان بي. غاب طويلاً وحين عاد كان يرافقه رجل شرطة بدين، وما إن حشر جسده بتلك "الصندوقة" لإخراجي حتى انغمس بلحمه مسمار صدئ، فاستشاط غضباً وجذبني من ياقة ثوبي - ذلك الثوب

المضمخ بالدم والممزق بفعل المسامير التي انغرست بوسطي - وصفعني عدة صفعات أسقطت من داخلي ذلك الخوف الكثيف. وفي المنطقة الرابعة وقفت متلعثماً حائراً أمام أحد الضباط القساة، وبطفولة ساذجة انفرطت أحدّثه عن أبي وأمي وإخوتي ناثراً دموعي لاستدراج عطفه. كنت أتوقف عن بكائي وحكاياتنا المتعبة، وأرجوه أن يعيد إلينا أبانا، وحين ألمح وجهه جامداً أخبره عن أمي التي أصبحت مأدبة للحمّى والحزن. اقترب مني كثيراً، ويده تهمّ بصفعي، فغطّيت وجهي بكلتا يديّ، وأنا أواصل سرد حكاياتنا التي لا تنتهي. رفسني ببسطاره بين مفترق رجلَيّ لأسقط كخرقة بالية.

في أول ليلة أقف فيها خلف القضبان كانت غصّة مرّة تعبر حنجرتي ذهاباً وإياباً، لأمسح دموعي وأتصبّر. مضت أيام وأنا ملقى في هذه الغرفة، وعندما أوشك العطب أن يصيبني قذفوا بي للخارج، فعدت أجرّ قدمَيّ صوب منزلنا، لتستقبلني أمي برجاء:

- علّك عدت بشيء لإخوتك؟

فأقفلت راجعاً، وبسرعة متناهية قفزت سور المنطقة الرابعة وتسللت إلى غرفة "النبتشية" وسرقت نجمات الضابط النحاسية وعرضتها على بائع الخردوات الذي أعادني للسجن لأتعلم - من يومها - كيف أخبّئ ما سرقت.

كانت جبهة أبي المحنية بانكسارها الدائم تقف في مخيلتي كلما هممت بالسرقة، وقبل أن أقدم على أي عملية سطو أقبّل يدي وأودّعها الوداع الأخير، وعندما أعود محتفظاً بها أجد أبنائي يقبّلون نفس اليد التي قبّلتها منذ لحظات، ويضعونها على صدورهم. كنت أخشى أن تتلوث قلوبهم بها، فأبعدها عنهم بوحشية وأتركهم يسكبون دموعهم وأخرج مسرعاً، أضمّها إلى صدري وأجهش بالبكاء.

كنت زبوناً دائماً للمقهى الذي يقابل المنطقة الرابعة. كنت أجلس بجوار ذلك المذياع الذي ما زال يمارس دوره القديم، ذلك الدور الذي كان ينتشي له أبي ويدير رأسه بفرح، وقد يتمادى في فرحه ويرفع طاقيته عالياً ويرقص... لمحته عقب انفصال معصمه يشغّله بيده اليسرى ويغرق في إصغائه الدائم وقد بدت عيناه تفيض بالدمع. فجأةً صرخ عالياً وأغلقه بعنف، وقذف به بعيداً، وظلّ ينتحب.

المذياع بجواري لا يزال يهدر... مللت الاستماع وملّ النادل توسّلاتي لإغلاق هذا المذياع. وضعت كأس الشاي - الخامس - على الطاولة بتذمّر وغادرت المقهى؛ هذا المقهى الذي أدمنت زيارته. فبعد انكشاف سرقة النجوم النحاسية تعلمت كيف "أنوّم الأفعى". كنت أسرق أي شيء أجده أمامي، وأخبّئ مسروقاتي خلف المنطقة الرابعة وأظل أسامر حارس المخفر أو أجلس في المقهى في مواجهته تماماً، وأحرص على ألاّ تغادرني عيناه، وعندما ينشغل عني بشيء ما أظل أحدثه بحديث مختلق، وبصوت مرتفع أحاول جاهداً أن أغطّي على صوت المذياع الذي لا يملّ من الحديث المتواصل. وقبل أن يتنفس الصبح أمرّ به محيياً ومودّعاً وأحمل مسروقاتي وأمضي.

ذات صباح رائق كنت عائداً أحمل مسروقاتي بنشوة غامرة ليستقبلني صوت أول مولود ليٍ؛ عندها قررت أن أكفّ عن هذه المهنة وأن أحتفظ له بيدي سليمة، فدخلت على زوجتي وقبّلتها بلهفة وأقسمت لها أنني غسلت يدي من هذه المهنة، فاتّسعت ابتسامتها، ساعتها شدّت على يدي بقوة وضمّتها بحب؛ هذه اليد التي قرعت أبواباً عدة حين كانت كل الأبواب تدفعها للخارج:

- أنت نبتة نهضت من منبع الرذيلة "وذيل الكلب ما ينعدل...".

فأعود أجوب أبواباً أخرى، فتُغلق دوني:

- السوابق تملأ حياتك.

عندها أوشك طفلي على الهلاك، فعدت أزاول مهنتي بهمّة، وقد مضى عليّ زمن طويل وأنا أمارس هذه المهنة التي لم أعرف سواها.

يبدو أنني هذه المرة سأفقد معصمي نهائياً. تملّصت من يده وهو يدفعني بشدة حتى كدت أقع على وجهي. كان صوته ثقيلاً كجزمته:

- يا لص!

وقفت أمام القاضي مطأطئ الرأس، وبيدي المذياع الذي سرقته:

- ما الذي حملك على السرقة؟!

- كل يوم أجلس في المقهى وهذا المذياع يمارس الكذب بصوت مرتفع منذ عهد طويل، فقررت أن أريح نزلاء المقهى من كذبه فسرقته.

- إذاً أنت تعترف.

لم أتمالك غضبي فصرخت بانفعال:

- وهل توافقه - أنت - على كذبه... هذا الكذب المتواصل؟!

زجرني بحدة وأشار للعسكري بأن يغيّبني عن وجهه. ساعتها دفعني العسكري أمامه وهو يردّد بغلظة:

- يا لص!

٨ أبريل ٨٩

عرعر

برحة العنبري

توقف العمال عن البناء فجأةً، وسُوِّرت الأرض بإحكام بواسطة زِنك لم تترك فيه فرجة واحدة تمكن العين المتطفلة من التأكد من الخبر الذي أُشيع في ممرات الحي، وغدت الألسن لا تتحدث إلا عن تلك البرحة المسوّرة التي يقف على بوابتها رجلان غليظان استعان بهما العنبري مقابل دخلٍ يومي كبير يوازي دخل عمدة الحي لشهر كامل. كان من المتوقع أن تُشيّد علىً هذه الأرض بناية شاهقة تميز هذه الحارة الغارقة بين المنعطفات الملتوية والأحلام البائسة، وقد أمل الكثيرون بإيجاد فرص عمل حين الشروع في بنائها، إلا أن هذا المشروع توقف فجأةً وسُوِّرت الأرض وانطلق العنبري يبثّ مكاتباته إلى جهات رسمية عديدة، ولم يكن أحد ليعرف سر تلك المكاتبات التي استنزفت مجهود العنبري وجعلته يبدو أكثر ضيقاً مما مضى. وقد تقوّل أهل الحي أن سبب توقف البناء يعود لظهور مُلاّك الأرض الحقيقيين الذين أثبتوا ملكيتهم لتلك البرحة مما حمل العنبري على التوجه بالمكاتبات إلى الجهات الرسمية في محاولة يائسة لإثبات ملكيته لتلك الأرض. ولم تكتفِ الحارة بتلك المقولة بل أضافوا أن العنبري عمد إلى بيع جميع ممتلكاته لكي ينافح عن هذه البرحة الواسعة التي يمكن أن تصبح مع الأيام مشروعاً استثمارياً يقفز بالعنبري إلى مصاف وجهاء البلد. ولم يكن العنبري ليحفل بتلك الأحاديث بل زادته حرصاً على التكتم وعدم البوح بسر ركضه اليومي بين دهاليز الدوائر الحكومية. وبلغ تكتمه حدّ الادّعاء بأنه يعاني من أمراض مستعصية ويرغب في الحصول على إذن للعلاج بالخارج، إلا أن كل ذلك الادّعاء والحرص في التكتم على مشروعه جعل أهل الحي يتابعونه بالأسئلة التي لا تنتهي. وكان يلعن كل من يحاول دسّ أنفه في أموره الخاصة ويزداد شططه إذا صادفه أحدهم وسأله عن وجهته الصباحية. كان خلال تلك الأيام يخرج من الصباح الباكر ولا يعود إلا

في آخر النهار وقد أكل التعب ما تبقّى له من نشاط، فيجلس بجوار دكان عليثة مستظلاً بظلّ "طربال" وُضع ليقي الزبائن من أشعة الشمس والأمطار الموسمية النادرة، حيث يجلس هناك ليشرب قارورة "ميرندا" بلهفة وكأنه يطفئ لهيباً شبّ بجوفه، ولم يكن ليوقف لهاثه وعرقه المتصبب إلا إطلاق اللعنات التي لا تنتهي عند حدّ، ويغمغم بشتائم مواربة، وقبل أن يصل إلى بيته يعرج صوب الحارسين الموكلين بحراسة الأرض المسوّرة بسياج الزنك مؤكداً عليهما عدم السماح لأي كائن بالاقتراب من السور، ويدلف إلى بيته ولا يغادره إلا في صبيحة اليوم التالي ليبدأ ركضه المحموم في اتجاهات متباعدة، حيث يقف على باب كل دائرة لكتابة المعاريض، ولم يكن يرضى بصيغة كاتب المعاريض بل يحثّه على تدبيج معروضه بألقاب ونعوت فخمة، وكان يملي على الكاتب صفات عجيبة يستنبطها بعشوائية كـ"سيّد المحترمين"، و"أول وطني حر"، و"الساهر على راحة المخلوقات من إنس وجان"، وعندما يشعر أن "معروضه" حمل كل الصفات التي إلصاقها بمن يخاطبه يُسكنه الرضا يترك ضحكته الحلوة تنساب، ويدغدغ الكاتب بجمل أو نكات متوددة، ويحمل معروضه ويركض ليقف في صف طويل منتظراً دوره الذي ينتهي غالباً بما لا يحب.

في الماضي لم يكلّفه الحصول على هذه الأرض الكبيرة أي تعب، ولم يصغّر نفسه لكبير أو صغير، بل لم يغادر بيته بتاتاً واكتفى بالمطالبة بهذه البرحة – التي تطبق عليها البيوت من كل جانب – مع من كان يتنازع عليها، وعندما قرضهم الموت واحداً واحداً ولم يتبقَّ أحد منهم آلت إليه بالأقدمية، وسُمِّيت باسمه لسبب غير معروف، وإن كان أكبر المعمرين بالحي يُرجع ذلك لكون العنبري تربطه علاقات وثيقة بكبراء البلد، ويضيف بأن العنبري كان الرجل الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة من بين أقرانه، وهذه الميزة مكّنته من معرفة أمور كثيرة لم يقف على خباياها سواه، حيث كان يقرأ الرسائل التي تصل إلى عمدة الحيّ، وغالباً ما كان يخبّئ الأسرار العميقة ولا يقرأها للعمدة، كما كان يكتب لأهل الحارة رسائلهم التي يبعثونها لذويهم المنتشرين في أرض الله، ويقوم بقراءة الخطابات التي تصلهم، لذلك كان يجمع كل الأسرار ويسخّرها لمصالحه الشخصية. ولكونه امتاز بهذه الميزة فقد ذاع صيته وأصبح الجميع يرددون اسمه وعُرف داخل وخارج الحي،

فأصبح الناس يعرفون الآخرين بقربهم أو بعدهم من العنبري، كأن يقال "فلان بيته خلف بيت العنبري" أو "فلان يقطن بحي العنبري". وقد سُئل العنبري عن سبب تسمية الحي باسمه فذكر أن أول من قطن هذه البقعة من الأرض جده الكبير حين لم يكن بها إلا الريح والشمس الحارقة. ولم يقل ذلك إلا ليحصد مكاسب إضافية في دعواه بامتلاك كثير من البيوت المتنازع عليها وكان من ضمنها تلك البرحة الواسعة التي ظل يجادل على ملكيتها حتى نفق جميع خصومه بالموت ليصبح هو المالك الوحيد لها. وقد آثر الكثيرون التسليم له بملكيتها على الدخول معه في قضايا يعرف كيف يحرّكها لصالحه، وحين أيقن أن لا أحد يجرؤ على منازعته في ملكيتها قرر أن يشيِّد على أرضها الواسعة عمارة شاهقة يركن إلى دخلها في ما تبقّى له من عمر، فاقترض من البنك العقاري مبلغاً ضخماً. وقد روى أبو ياسين العربجي أنه حمل المبلغ في خيشتين كبيرتين، فقد لمح العنبري ينوء بهما ويسير حيناً ويسقط حيناً، وعندما لمحه ينوء بحمولته عرض عليه خدماته، فاستأجره لنقل الخيشتين اللتين انبثتا وتناثرت منهما أوراق نقدية في الشوارع التي سلكوها، ولم يفطن أبو ياسين لتراكض الناس خلفهما إلا بعدما وصلا إلى دار العنبري الذي كان يجلس بجواره وباله شارد في ملكوت الله. وقد أبدى أبو ياسين ندماً لم ينضب إلى الآن فكلما تذكر تلك الواقعة تنهد بعمق وخرجت الكلمات دون أن يشعر بها، وأصبحت لازمته المشهورة حيث ظل يكرّر:

– لو أنني نزلت وجمعت ما تساقط لأصبحت إنساناً محترماً.

وغالباً ما يضرب فخذه بكفّه متحسّراً:

– دنيا ليس لها صاحب.

وعندما شرع العنبري في البناء توقف فجأةً عند الحفر مما مكّن الألسن من حبك الأقاويل وخلق الأسباب التي أدت لهذا التوقف. وقد تقوّلت النسوة نقلاً عن زوجته التي رأت في ما يرى النائم أن النبي الخضر طوّق عنق زوجها بقلادة صيغت من الذهب الأحمر الخالص وأُحيطت دائرتها بأحجار الياقوت والفيروز، وقال له:

– يا عنبري، إن بباطن أرضك رزقاً لا ينفد فاجعل فيه حقاً للسائل والمحروم.

ولما أحدثته هذه الشائعة من صدى واسع في مجالس النساء جزم الكثيرون أن توقف العنبري عن البناء يعود إلى تلك الوصية التي نقلتها إليه زوجته من العالم

الآخر، وقد تزامن ذلك مع حضور بعض الموظفين الحكوميين لمعاينة الأرض وتمتيرها وغرس مثقب طويل بتلك البرحة الواسعة، مما حمل الكثيرين على القول:

- لقد نوى العنبري بناء رباط يجمع فيه المحتاجين والضعفاء تحقيقاً لحلم زوجته.

ففي ظهيرة أحد الأيام ظهر العنبري ومن خلفه مجموعة من المهندسين والشخصيات الكبيرة، وكان يتقدمهم مبدياً بشاشة غير عادية وذلاً لم نعهده فيه، فقد كان ينحني ليزيل ما يعترض سبيلهم من قاذورات، ويبالغ في تبجيلهم بحيث يوقفهم عند مرورهم بالماء المندلق من تلك الأزقة الملتوية ويُحضر ألواحاً خشبية ليسيروا عليها، مبدياً تذمّراً أقرب للسباب.

- لقد ابتلانا الله بحثالة من البشر فهم يتبولون ويتغوطون في الأزقة.

ويطلق سرباً من الاعتذارات والتي لا يعرف لمن يوجهها بالتحديد، وكان مسايروه أكثر تذمراً وحنقاً حيث بدت سحناتهم تضيق بكل ما حولها وأولهم العنبري نفسه، وبعد ثلاثة أيام من ترددهم لم نعد نلمح إلا العنبري وهو يصيح بأهل حارته:

- إن أرضي بها نفط ولا أحد يريد أن يصدقني.

وكانت جملته هذه كفيلة بإسقاط كل تلك التوقعات التي غزلها أهل الحي عن الخير الذي سيأتي من بين يديه، وغدا وقوف العنبري على أرضه صائحاً بجملته تلك مجلبة للتعليقات من كل الأفواه التي كانت تجاوره، وكان أوطأُها نعته بالجنون، وذهب البعض إلى القول:

- من يدّعِ ملكيته لما لا يملك يفقد ما يملك.

وسخر منه الكثيرون، وأمّنوا على أن ما أصاب العنبري إنما جاء من دعوة المظلومين الذين انتزع منهم أراضيهم بالباطل، فكان العنبري لا يدفع عن نفسه أي تهمة تلتصق به أو تعبر أذنيه المفتوحتين على اتّساعهما علّه يسمع كلمة تصديق لما يقول، ولم يكن ليهتم بتلك السخريات الطائرة فقد حصر اهتمامه في جعل أهل الحي يؤمنون بمقولته، لذلك طرد الحارسين ووقف على الباب منادياً العابرين لمشاهدة ذلك السبخ الذي يطفو على سطح الأرض، وكان يبلل يده به ويشمّم الحضور، وهو في أوج انفعاله ويطلق صراخات منفعلة بأعلى صوت:

– أليست هذه رائحة قاز؟

ويعود مرة أخرى ويخمش من الأرض، ويغرس أنفه المستقيم بتلك الرائحة، ويعقّب بقسم غليظ:

– وربّ الكعبة الذي أخرج الماء من سبع أرضين إن هذه الأرض تحمل كنزاً يسدّ المشرقين والمغربين.

كانت رائحة نفاثة تنبعث من تلك البقعة أشبه بتجشّع البحر مخلوطة برائحة ديزل محروق، لذلك كان يوصي من أراد الشمّ أن لا يكترث لرائحة العفن التي تنبعث لأول وهلة، ويحرّض المقتربين بمقولة أقرب للتحقير منها للتحفيز:

– إن ما تخرجه بطونكم كان شهياً في أنفسكم، ورائحة النفط كريهة في البدء ولكنها تستحيل شهوةً يسيل لها لعابكم المشدود الآن بسبب تقززكم. أقبلوا وشمّوا رائحة النعيم.

وعندما يقبل إليه قلة من المتجمهرين ينبطح على الموقع الذي يقف عليه ويخرج صرخات أقرب إلى البكاء:

– ما حلمت به زوجتي هو الحق وسترون.

فيصفّق الحاضرون أكفّهم أسفاً ويحاولون جذبه إلى خارج تلك الأرض وهم يدعون أن يمنّ الله عليهم بسلامة العقل.

مات العنبري، وتساقط السور الزنكي الذي كان يحيط بتلك الأرض، ورُدمت تلك الفجوات العميقة التي أحدثها المشروع الأهلي في التنقيب عن النفط، وإن ظلت بقايا أنقاض البيوت التي هُدمت، وعادت البرحة متنفساً لأهل الحارة يقيمون ولائمهم فيها ويسمرون الليالي الطوال على أرضها السبخة التي لم تفلح كل الردميات في إخفاء تلك الطبقة المترشّحة التي تستحيل في الأيام الحارقة إلى مساحات كبيرة من الملح. مضى العنبري وظل اسمه ملتصقاً بهذه البقعة من الأرض، وغدت حكاية النفط التي مات بسببها العنبري حكايةً تروى:

فبعد أن تشكلت لجنة لاستقصاء فحوى معاريضه المتعددة ومعاينة الموقع أصدرت لجنة المهندسين تكذيباً لدعوته وأوصت بعدة توصيات لم يستطع العنبري قراءتها فأيقن أن تلك التوصيات تهدف إلى حرمانه من الكنز الذي تمور به أرضه. لذلك لم يقتنع بمقولاتهم التي تؤكد أن لا نفط في أرضه، ووصمهم في

آخر يوم للمعاينة بالخونة، ولم يمدّ لهم ألواح الخشب كجسر يعبرون من خلاله من فوق تلك الأوحال التي تسيل بين منعطفات الحي، وقد استشاط غضباً وصعّد شكواه إلى أكبر مسؤول بالدولة، وقد تكونت لجان عديدة مع كل شكوى يرفعها. وفي إحدى المرات سيق إلى السجن بحجة إزعاج السلطات، ولم ينجُ من السجن إلا بعد أن كتب على نفسه تعهداً يقضي بعدم رفع شكوى إلى أي جهة مهما كانت الأسباب التي يزعمها. وقبل أن يكتب التعهد تمنّى على الضابط أن يخبره بفحوى التوصيات التي كانت تُكتب مع كل لجنة تصل إلى أرضه، فزجره الضابط بحدة:

- هذا ليس من اختصاصك.

خرج يجرّ أقدامه من المخفر وكله يقين بأن أرضه تكتنز ذهباً سيتسرّب من بين يديه إن لم يسارع إلى استخراجه بنفسه، وكان في سيره يوسوس بصوت مسموع:

- إنهم يتآمرون على سرقتي في وضح النهار.

ويرفع صوته محتداً:

- لن أمكّنهم من ذلك حتى لو قُطع رأسي.

وعندما وجد أنه لا يقدر على الشكوى فتح بوابة البرحة وأخذ ينادي على أهل الحارة ويقسم لهم أن أرضه بها نفط، ويتودد إليهم بمساعدته في مطالبة الدولة بمعاينة الأرض من قبل مهندسين وطنيين، وكان يحمل معروضاً أملاه على أحد الكتبة بنفسه، وقد وضع في ذلك المعروض كل الكلمات التي من شأنها أن تجعل قارئها يتعاطف مع ما جاء بها. كان يحمل ذلك المعروض ويطالب أهل الحي بالتوقيع الجماعي على ما جاء فيه آملاً أن يوكل به أحد الرجال الذين يثق في مقدرتهم على تحريك الموتى... وقد هيأ له مدخلاً ليعاود مطالبة الجهات الرسمية بالتأكد من وجود نفط بأرضه.

في بادئ الأمر أقبلت الحارة برجالها ونسائها للسخرية والتطلع إلى تلك الأوحال التي نزّ من باطن الأرض، وأيديهم ممسكة بأنوفهم كلما شمّوا يد العنبري الملوثة بتراب أرضه السبخة، إلا أن رائحة الديزل المنبعثة مع ذلك النتن كانت بداية لدخول الشك في أنفسهم والميل إلى التصديق. وقد عمل العنبري على تعميق هذا التصديق المشوب بالشك، ولذلك عمد إلى جذب التنوري لصفّه (ذلك الرجل الذي يمتاز بصفات ليست عند سواه، فهو رجل قادر على إقناع الآخرين بأن النهار

عتمة، فقد منحه الله حجة تجعل الشيطان يرتاد المساجد)... هكذا هجس العنبري لنفسه وهو يسير إلى التنوري وكان يفكر بكيفية جعل التنوري يصدق دعواه. ولمعرفته الأكيدة بنفسية التنوري فقد اطمأن قليلاً حين أمسك برزمة الأوراق النقدية المحشوة بجيبه الأسفل، وقال مطمئناً نفسه:

– إنه ينافح أباه وأمه من أجل المال.

وتخاذلت خطواته حينما خطر له أن التنوري لن يقف معه، خاصةً وأنه أول من سفّه مقولاته واتّهمه بالجنون، فوقف على بابه متردداً حائراً، وبعد تردد أقنع نفسه بأنه لن يخسر شيئاً وليعرض مطلبه على التنوري فإن وافق كان الخير عاماً وإن امتنع فما عليه إلا أن يقوم بحيلة لملء الأرض بالغاز والديزل حتى يكسب المؤيدين للتوقيع الجماعي على معروضه. شعر بالإرتياح لهذا القرار، وطرق الباب بثقة، وعندما التقت عيناهما عرف كل منهما مقصد الآخر، ولم يمهله العنبري لأن يفكر فقذف إليه برزمة النقود، ففغر التنوري فمه وانكبّ يملأ يده بتلك الأوراق الزرقاء، وكانت دهشه عظيمة حينما تصنّم للحظات قبل أن ينكبّ لجمع تلك الأوراق البنكنوتية وهو يصيح بانفعال:

– ماذا تريد يا عنبري كي يصبح حقيقة؟

كان يجمع تلك الأوراق المتساقطة بتلذذ وبعد أن أنهى جمعها قال للعنبري بثقة:

– كل ما تريده سيتحقق.

ولأول مرة يضحك العنبري بارتياح فانبسط وجهه وزالت تجعداته التي كانت تعتم على ملاحته، وخبط التنوري برفق:

– وسيكون لك ملء هذه الغرفة ذهباً.

وأمام هذا الإغراء الفاحش نهض التنوري بالمهمة كاملة، بعد أن أقنع العنبري بعدم جدوى إبلاغ السلطات والاكتفاء بمؤازرة أهل الحي. وقد حمل بكل الطرق لترويج استخراج النفط المتغلغل بين طيّات أرض العنبري. وما هي إلا أيام حتى أصبح النفط حقيقة لا جدال فيها والويل لمن يكذّب هذا الحلم الذي سينتشل الحارة من بؤسها... كان هذا شعور أهل الحي أجمعين، وقد انتقلوا من مرحلة التصديق إلى اليقين والعمل على استخراج هذه الثروة المطمورة في باطن الأرض،

وقام التنوري بجمع مبالغ من المال ليتمكنوا من شراء معدات ضخمة، وكان شعاره الذي أطلقه:

– لتنعم بالحياة ادفع ما تقدر عليه.

وأخذ يؤكّد للأهالي أن الأرباح النفطية سوف توزَّع على أساس المدفوعات، فمن يدفع أكثر يحصل على نسبة توازي مدفوعاته. وفي ليلة وضحاها انقلبت الحارة رأساً على عقب، فالكل يريد المساهمة في مشروع العنبري، وقد تكونت مجموعة لجمع التبرعات، ووجد الكثيرون أنفسهم منقادين إلى المساهمة في هذا المشروع الذي حرّك في دواخلهم شهوة الغنى، وجلس الكثيرون يحسبون أرباحهم ويرتّبون احتياجاتهم ويحلمون بصوتٍ مرتفع. ووجد بعض أهل الحي أنفسهم بعيدين عن هذه المساهمة لفقرهم المدقع، وقد عرف التنوري كيف يحرّك ركودهم مما جعلهم يقومون ببيع ما يمتلكون في سوق الخردوات ودفع حصصهم الضئيلة إلى تلك اللجنة المكلفة بجمع التبرعات، التي بادرت على الفور بإحصاء التبرعات وإعلان أسماء المتبرعين الجدد. وقد لجأت اللجنة إلى الإعلان عن رأسمالها والمنضمين إليها بين الحين والآخر لتحفيز الخامل لأن يلحق بقطار الأغنياء. وكم كانت خيبة العنبري والتنوري كبيرة حينما وجدا أن المبلغ لا يكفي لشراء "تراكتور" واحد، ولذلك عادت المطالبة بجمع الأموال، وتحريض أهل الحارة لبيع الغالي والنفيس من أجل إتمام المشروع، فقام بعض الرجال ببيع مجوهرات نسائهم، وقام البعض الآخر برهن حجج أراضيهم، وبيعت المواشي والأثاث، ولجأ الكثيرون إلى الاقتراض طويل الأجل من الأقرباء والأصدقاء البعيدين، ووجدت الحارة نفسها منقادة إلى المساهمة في جمع المال، وقد انتدب لهذه المهمة رجال طويلو الألسن، خفيفو الظل، يعرفون كيف يجعلون المرء يصدّق بمقولاتهم دون أن يجرؤ على التفكير، وقد نتج عن ذلك استقطاب عمدة الحي لكي يكون أكثر المساهمين دعماً والمتستّر على مشروعهم حتى يرى النور، وقد وعدوه أن يمنحوه باخرةً مليئةً بالقاز، ولفرط فرحته أخرج مبلغاً محترماً كان يحتفظ به تحت البلاط وقدّمه إليهم يرجوهم قبول مساعدته البسيطة لاستكمال مشروعهم الذي وصفه بأنه صفقة العمر و"الدينمو" الذي سيحوّل الجميع إلى أغنياء.

وانتشرت شائعة بأن إمام المسجد رأى في إحدى ليالي رمضان أن السماء تُفتح ويتساقط منها ريالات ذهبية حمراء، فكان يملأ يده ويقذف بها في كل اتجاهات الحارة وهو يصيح:

- اللهم أغنِ جيراني كما أغنيتني.

وكانت كل الجنيهات المقذوفة تنحرف عن مسارها وتسقط في بيت العنبري، فناداه:

- يا عنبري، امنح المستضعفين مما منحك الله.

وروى أنه لمحه يخرج من داره حاملاً برميلاً مليئاً بالذهب واللؤلؤ، وله طلعة ملك حيث استحال لونه إلى اللون الفضي ونبت له جناحان كأجنحة الحمام المكّي أخذ يحلّق بهما على أسطح المنازل وينثر جنيهات الذهب على الناس.

ومع انتشار هذه الشائعة تصادف أنّ بشرة العنبري انجلت وغمر وجهه توهّجٌ خفيف حتى أن البعض أخذ يرفع ذراعيه علّه يلمح منبت الجناحين، وقد أقسم البعض أنه رأى يديه تنفرجان عن خاصرته وتتقوسّان على هيئة جناح في بداية نموه واستدارته. وعملت النساء على إذكاء هذه الشائعة بزوائد عجيبة، حيث روت إحداهن أنها شمّت رائحة مسك يخرج من بول العنبري حين كانت تجالس زوجته وهو في (بيت الما) يتهيأ للوضوء.

توافد المساهمون من كل صوب، حتى أن بعض الحواري الأخرى رغبت في المساهمة إلا أن القانون المتّبع كان يقضي بأن تُحصر الثروة في أهالي الحارة نفسها، مما جعل هؤلاء يلجأون إلى طريق منحنٍ بحيث يمنحون أهل الحارة مساهماتهم بعد مكاتبة فيما بينهم على إعطائهم نسبة تقلّ عن المفترض الحصول عليها. وقد أوصاهم العمدة بالتكتم على الأمر خشية أن تتدخل الدولة وتمنع استكمال المشروع، ولذلك سارعت اللجنة المكلّفة بالمشروع إلى ترسيخ شائعة أن العنبري عزم على إقامة عمارة ضخمة ستكون رباطاً للمحتاجين والفقراء والتأكيد على أن حفر أساس العمارة سيستغرق أياماً طوالاً. وكان لهذه الشائعة صدى واسع حمل الكثيرين إلى التكدّس بجوار بيت العنبري للاستفسار عن صحة تلك الشائعة التي أحبطت أحلامهم. ولم يجد العنبري مفرّاً من إخبارهم بأنها مجرد غطاء لاستمرار مشروعهم وخوفاً على ثروتهم من أن تمتد إليها أيادٍ أخرى، فأكبروا

بعد نظره وعادوا يحلمون بالجاه.

وبعد شراء بعض المعدات البسيطة من فؤوس ومجارف وعربات لنقل الرمل الذي خُصِّص له مكان محدد، حيث تمّ هدم بيت أبي عيسى وسُوِّرت البرحة تسويراً إضافياً محكماً، وانهمك الكل في الحفر، فقد كان الحفر لا يتوقف، حيث تمّ توزيع مجموعات تتناوب على الحفر طوال الليل والنهار. وبعد حفر دام أربعة أيام لم يكن يخرج لهم إلا ماء موحل تفوح منه روائح منتنة تضيق بها النفس مما حمل العمال على تكميم أفواههم وأنوفهم بقطع الشاش المرشوشة بطيب العود... غدت تلك البرحة فجوة كبيرة بداخل الأرض، وتخلل اليأس إلى النفوس، وكلما همّ العمال بالتوقف حفّزهم العنبري على مواصلة الحفر مذكّراً إياهم بالنعيم الذي سيتمرّغون فيه قريباً، ولم يكن يكتفي بهذا بل كان ينزل إلى تلك الحفرة الواسعة العميقة ويمسك بمعول أحدهم معمّقاً الحفر ومدندناً بأغنية شجية يستجيب لها بقية العمال ويضربون بفؤوسهم تلك الأرض الرخوة.

تعمّق الحفر بعيداً وأصبح التراب جبالاً كبيرة استدعى الأمر لإخفائها هدم بيتين آخرين. ولم يكفّوا عن هذا الحفر إلا بعد أن تأكّدوا أن الأمر لا يعدو كونه جنوناً صدّقه المعتوهون. وعند هذه النهاية قامت قيامتهم وثاروا ضد العنبري ورجاله وأخذوا يطالبون بأموالهم، فكان العنبري يصفهم بالجهل ويؤكّد لهم أن النفط لا يوجد إلا في أعماق الأرض وأن عليهم أن يحفروا لشهور قادمة. ولكي يؤكّد كلامه فقد أحضر تلميذاً متفوقاً وطالبه بقراءة درس استخراج النفط من المنهج الدراسي الذي يدرسه بالمدرسة، فأخذ التلميذ يقرأ وهم يستمعون إليه دون أن يفهموا ما يقول. وبعد ان انتهى طالبوه بالقراءة مرةً أخرى وشرح ما يقرأه ففعل، وكان العنبري يتدخّل شارحاً ما يقرأه ذلك الصبي، فهدأوا قليلاً إلا أن الكثيرين ظلوا عند مطالبتهم باسترجاع أموالهم مما حمل العنبري على سداد مستحقاتهم من الأموال المدّخرة لاستكمال المشروع. وفطن التنوري للتراجع الذي حدث من قبل أهل الحي فسرّب خبراً بين الناس من أن الدولة ستساهم في استخراج النفط من برحة العنبري، واقتضى الأمر أن يرسل بأناس من طرفه يمثّلون دور المنتدبين لمعاينة الموقع، وأوصاهم أن يصرّحوا بصوتٍ مسموع بأن النفط سيتدفق خلال أيام قلائل، وأن يعتذروا للعنبري، فتراجعوا عن مواقفهم وطالبوه باسترجاع ما

أخذوه، إلا أن العنبري رفض طلبهم فظلوا لأيام يسترضونه ويرسلون إليه بالوسطاء و"الجاهة"[١] كي يغفر لهم استعجالهم، فغفر لمن غفر وتوعّد البقية بأن يجعلهم يعضّون أصابع الندم.

وفي أحد الصباحات استيقظت الحارة على جثته المنكّسة فوق فوهة إحدى الحفر العميقة وثمة أوحال غطّت ملامح وجهه، وقد روى أحد العاملين في المشروع أن الحفر بلغ عميقاً بعيداً فاحت معه رائحة القاز فلم يتمالك العنبري نفسه من الفرح وطلب من العمال بأن يمدّوه بسطل من قاع تلك الحفرة، فغسل وجهه بتلك الأوحال، وطلّق زوجته ثلاثاً إن لم يبت الليل بطوله وهو يستنشق هذه الرائحة التي وصفها بأنها رائحة النعيم.

لم يمض على موت العنبري سوى خمسة أيام، كان لا يُذكر فيها اسمه إلا وتبعته اللعنات والشتائم الفاحشة، ولم يكن يترحّم عليه أحد. ففي إحدى المرات، وبينما كان رجال الحين يتسامرون، ذُكر العنبري عرضاً فزلّ لسان أحدهم بالترحّم عليه، فثارت ثائرة الحضور وأنهالوا عليه بالضرب وقذفوه من مجلسهم كما تُقذف البهيمة النافقة، وأصبح الترحّم على العنبري من المحرّمات التي توجب القصاص وفق أمزجة من سمع ذلك الترحّم. وقد حمّلت الحارة وزرها بأعناق ثلاثة أشخاص هم: العنبري، والتنوري، وعمدة الحي الذي مات في إحدى جولاته الليلية دون أن يُعرف قاتله، ولم ينجُ من الموت سوى التنوري الذي رحل صبيحة موت العنبري ولا أحد يعرف إلى أين اتجه، وإن تناقل الناس بأنه توجّه صوب الحبشة واستوطنها.

كانت الحارة لا تزال تعيش صدمة النفط وقد تحول معظم سكانها إلى متسولين أو لصوص ليل، إلا أن المهنة الأخيرة لم تكن ذات جدوى فليس هناك ما يُسرق في كل بيوت الحي.

لم يكن باليسير تناسي الصدمة، ففي أول يوم من موت العنبري خرجت الحارة تبكي آمالها وتناسوا جثة العنبري على صراخ أحد العاملين بالمشروع:

– لقد كان العنبري يمنينا بنعيم الدنيا فإذا بنا ننتهي بقاذورات الدنيا.

وتمّ إخراج عينات من قاع الحفر العديدة التي أخذت تمور منذرةً بتدفق تلك الأوحال على سطح الأرض، فسارعوا إلى طمرها لدرجة أن تلك الأتربة لم تكفِ

---

١ الجاهة: هي ترضية عينية سواء كانت نقوداً أو أنعاماً أو غذاء.

لردم الحفر المفتوحة مما حمل البعض إلى الذهاب للحواري الأخرى لاجتثاث أتربة وجلب الحجارة لردم فوران تلك الحفر. وبينما هم يطمرون إحداها لمحوا جثة العنبري طافيةً وقد انتفخت وأوحلت فلم يعد يُعرف وجهه من قفاه، وعندما حاول أحدهم انتشالها نهروه وصاحوا به:

- عاش قذراً فدعه ينعم بقاذورات الآخرة.

وأهالوا عليه التراب، واستعاضوا الله فيما خسروه.

خلال تلك الأعوام الخمسة كانت تزورهم تلك الرائحة التي تذكّرهم بحلمهم وخيبتهم في آن واحد وتظل ماكثةً تعكّر أنفاسهم لليالٍ عدة، دون أن يتمكنوا من معرفة مصدرها. وانتشرت شائعة أن العنبري كان صّادقاً في دعواه، ولأنه دُفن دون أن يُصلّى عليه فقد استجاب الله لدعوة زوجته التي رفعت يدها يوم طمروه في تلك الحفرة العميقة وأهالوا عليه الأتربة والحجارة أن يسلّط الله على الحي عذاباً لم يُعذّبه أحد.

لذلك تراجع الكثيرون عن لعنه، وتبرّع أحد المتعلمين بمكاتبة الجهات الرسمية وتذكيرهم بأن الحي يجلس على كنز من الذهب الأسود، لكنه عاد بعد ثلاثة أيام صامتاً وحمل أسرته وغادر الحي دون أن يتفوه بكلمة. وإن أسرّت زوجته لإحدى جاراتها بأن تغادر الحي قبل أن "تقع الفاس في الراس)، ولم تفقه الجارة تلك الوصية إلا حين وقعت الكارثة.

***

تناسى أهل الحي كنزهم المطمور مع جثة العنبري، وانشغلوا بأنفسهم حيث انتشر مرض أخذ يحصد الناس دون هوادة. وقد احتار طبيب المستوصف العجوز في تشخيص كثير من الأمراض التي كانت تصله، وإن كانت معظم الحالات تعاني من مرض غريب يؤدي إلى اختناق واحتقان زهري في أعلى البطن سرعان ما يؤدي إلى ظهور بثور برؤوس بيضاوية تنفجر ولا تترك صاحبها إلا بعد أن يسلم الروح.

ومع كثافة المراجعين والمتساقطين من تلك الأمراض التي اختلفت أعراضها لم يجد طبيب المستوصف ما يفعله سوى توزيع محلول "الوبيا". وقام من حينه بكتابة تقرير شامل عن تلك الأمراض وبعث بها إلى وزارة الصحة طالباً مد يد

العون، وفي هذه الأثناء كانت الأمراض تتكاثر ويتساقط أصحابها الواحد تلو الآخر.

في البدء انتشرت رائحة نفاذة خليط من رائحتي القاز والبراز ثم تحولت إلى رائحة خانقة أشبه بجيفة أنتنت مما حمل أهل الحي إلى الخروج زرافات للبحث عن مصدر تلك الرائحة وهم يعتقدون أن ثمة كلباً قد مات على أحد أسطح المنازل أو أنه انحشر بين خشب الصناديق المتداعية في كثير من بيوت الحي. وفي أثناء بحثهم كانت زوجة العنبري (التي أصيبت بلوثة بعد أن طُمر زوجها في إحدى الحفر العميقة) تدور في الأزقة صائحة:

- لقد قرب موعدكم فترقّبوه.

فكانوا يزجرونها لاعنين العنبري وما خلّفه لهم من عناء وضيق اليد.

كانت تلك الرائحة النتنة تجوب منعطفات الحي فلا يعود أحد قادراً على استنشاق الهواء، وقد تسببت تلك الرائحة في اختناق المستوصف من أهل الحي فأسلموا أرواحهم بهدوء. وقد فسّر طبيب المستوصف أن الأمراض التي عانى منها الكثيرون من أهل الحي قد تكون ناتجة من هذه الرائحة، حيث كان معظم الأهالي يقضون معظم أوقاتهم بين أتربة تلك البرحة السبخة.

احتار أهل الحارة في تحديد مصدر تلك الرائحة، وعندما وجد عمدة الحي الجديد أن الناس أخذوا في الانسلال هرباً أمر أن يقوم كل واحد من أبناء الحي بنزح بيارته. ومع أول أول معول ضرب الأرض حدث ما لم يكن في الحسبان حيث تراخت قشرة الأرض وتقوّضت وأخذت تبتلع البيوت والناس وانفجرت كل الشوارع قاذفةً بقاذورات وأوحال مسودّة أخذت تتدفق بلزوجة بين الأزقة وتجمّعت وانسابت متدفقةً كالسيل المنهمر جارفةً كل ما يقف في طريقها.

١٤١٥هـ

الخائن

كان الخوف أكبر من أن أتجرأ وأسأله، وكنت أكثر حرصاً على أن لا أثير أي زوبعة حولي، لذلك بقي سؤالي ميتاً بصدري، وإن نازعني بعد مغادرته سكبته من خلال لعنات وصرخات ممتدة:

– ماذا ينقصني يا بن الديوث، هه؟ ماذا ينقصني؟

وقد أبدّد غضبي العاتي بقذف حذائي أو بصقاتي خلفه بعد أن أتأكد من أنه لا يراني!

في كل مرة يأتيني أزداد رعباً واصفراراً، وأنقاد صاغراً لما يريد، وما إن يغيب بابتسامته المقززة حتى أنفجر لاعناً كل شيء وأظل أحوم داخل دكاني كالملدوغ.

***

كانت السيارة تخبّ بنا، وأنا أقترب من رأسها المتمايل وأهمس:

– الوطن جرح... إن بقيت بداخله جرح، وإن خرجت منه ازداد جرحك اتساعاً!

فتضمّ يدي وتغدو أكثر عذوبةً:

– كفى غربةً يا أعز الناس... وأؤكد لك أنك ستجده كما تشتهي.

يصيبني بلل من الطمأنينة وتنخرط أمنيات حلوة بالذاكرة، فأستعجل الزمن للوصول وأنا أتمايل مع رجفة السيارة العابرة لهذا الخلاء المتسع، وأسرح بالأحلام مع أزيزها الرتيب الممتد. كان كل شيء يعبرنا إلى الخلف، وثمة سؤال موحش يعبر حنجرتي بمرارة:

– أما زالت الدنيا كما تركتها؟

أطلقت زفرات حارة، وعلقت عيناي بالمدى، فشعرت بزوجتي تربت على ظهري وتطلق سرباً من الابتسامات البيضاء في فضاء وجهي.

ثمة لافتة كبيرة تقف على مدخل حدودنا كُتبت عليها عبارة "أيتها الطيور المهاجرة وطنكم يرحب بكم"، وكانت رائحة ترابه تمتزج بدمي وتهيّج دموعي التي لم أتمكن من تخبئتها عن عيون رجل الجمارك الذي ارتاب منها، فنثر محتويات حقائبي على الرصيف وقادني أمامه، دافعاً إياي إلى غرفة ضيقة، وانتزع مني كل شيء ابتداءً من لهفتي وانتهاءً بالتشكيك في هويتي. وعندما وجدني خالياً من كل العيوب التي رماني بها انتزع ورقة "بنكنوت" بزغت من جيب سترتي العلوي، وتركني أجمع بقاياي وأغادر نقطة التفتيش حاملاً تذمري ودعوات زوجتي وارتباكها... ساعتها تمنيت أن أعود من حيث أتيت لكني لم أجرؤ أن أعبر تلك "الخشية" مرة أخرى.

***

– أصبح الناس أكثر خساسة.

كلما صرخت بهذه العبارة بادرتني زوجتي بعبارتها الدائمة:

– سر بجوار الحائط!

هذا الحائط الذي نسير بجواره تهدّم فوق هاماتنا، وعبرنا الدروب الطويلة ونحن نزيح الركام من على عروة قمصاننا، ونمعن في السير الحذر لتجنّب سقوط حائط آخر. كل شيء يتساقط، ونحن نولي هذا الانهيار ظهورنا.

في الأيام الأولى من مجيئنا استقبلنا الأهل والأصدقاء بحفاوة، وظلوا وقتاً طويلاً يتزلفون إلينا ويغدقون علينا هبات مفرطة، ويتوددون إلينا بمجاملات مكشوفة، كانوا ينتظرون أن نخرج بنكاً من جيوبنا، وعندما افتتحت دكاناً صغيراً أيقنوا أن عمرنا المسكوب في الغربة لم يدرّ علينا إلا القليل، فأعرضوا عنا وهم يتصايحون:

– أمن أجل هذا تغرّبتما؟

وقد تبجح بعضهم بمطالبتنا بهداياهم السابقة، وتطاول علينا بعضهم بالقول. وحينما لم أجد مناصاً من مقارعتهم السباب نبذوني بالعراء أقتات سخطاً مرتوياً بالحسرة، ولم تكن معي إلا تلك الشجرة الخضراء أشكو لها ضعفي.

– إن ثمة تصدعاً يعترينا.

فتضمّني لصدرها وتمسح رأي برفق:

– تمالك نفسك كي لا يصيبك هذا الزلزال!

فأصيح فيها بجزع ملتهب:

– آه، كيف لنا أن نسير في عالمٍ فقد التوازن؟

***

في وسط شارع رئيسي استقرّ دكاني المتواضع، وقد دأبت على الخروج من الصباح الباكر مفتتحاً الطرقات بالأدعية:

– يا رزاق يا كريم... يا فتاح يا عليم... أصبحنا وأصبح الملك لك يا رب العالمين... اللهم أفِض علينا من فضلك.

وكلما تذكرت جدتي أسهبت في الدعاء، فقد سمعتها مراراً وهي توقظ أبناءها (من النجمة) وتحثّهم بصوتها الرطيب:

– إن الأرزاق توزَّع في الغبش، فبادروا إلى أرزاقكم قبل أن تنفد!

لذلك دأبت منذ زمن بعيد على النوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً، كي لا يهرب مني رزقي!

وما إن أصل دكاني حتى أزيح مزاليجه وأرشّ الماء على جنبات بوابته، وأتوسّطه مفتتحاً وجهي بابتسامة ودودة محاولاً اجتذاب تلك الأقدام الراكضة، ونادراً ما كنت أحجبها إزاء تجهّم وغلاظة بعض الزبائن.

في أول يوم وقفت بائعاً جاءني يحمل شنطته وعبوسه، ووقف يتفحص خارج وداخل الدكان بريبة، فابتدرته بالترحيب:

– خدامك... ماذا تريد؟

مطّ شفتيه باحتقار وزجرني بنظرة حادة، وتشاغل بفكّ حقيبته المهترئة، وأخرج مفكّرة وانكبّ يكتب، بينما كُنت أرقبه بدهشة وأتأمّل وجهه المتعب الذي ينبئ أنه ملّ كل شيء. وما إن رفع رأسه حتى بادرني بصوتٍ آمر:

– إدفع هذه الغرامة!

وقبل أن أستوضحه كان قد عبرني كالريح الثقيلة. وفي الزيارة التالية، ما إن رأيته

قادماً حتى أخرجت ما حرّره لي سابقاً، وسألته:

– لم إذاً هذه الغرامة؟

تطلّع إليّ باستغراب، فاتحاً فمه وواضعاً يده على لحيته المحلوقة. وعندما أعدت عليه السؤال بادر بفتح حقيبته وتحرير غرامة جديدة، ومدّ بها إليّ، وهو مبقٍ على الإمساك بها، وعيناه معلّقة بوجهي، وأطلق الكلمات من بين أسنانه:

– مخالفة وامتناع عن تسديد غرامة... حذارِ، ستندم حين لا ينفع الندم!

وقبل أن أستوضحه كان قد عبرني كالريح الثقيلة ومضى يزمجر بعيداً.

وفي المرة الثالثة كان أشدّ صلافةً وحدّة، وبعد أن حرّر الغرامة قال بصوتٍ ملتوٍ:

– يبدو أنك معبّأ ضدنا!

– ضد من؟

قذف بالورقة في وجهي ومضى، لأقف حائراً أمام تلك الغرامات المتكررة التي لا أعرف لها سبباً. هي مرة واحدة مضيت لسدادها، فشعرت بأني على وشك أن يُزجّ بي في السجن، فقد عنّ لي أن أسأل المحاسب عن نوع الغرامة التي أسددها، فما كان منه إلا أن وبّخني وأغلظ لي القول، ومدّ صوته لتتقافز كل العيون الموجودة على وجهي:

– يبدو أنك لم تذق طعم السجن بعد!

بعدها لم أحاول أن أسدّد تلك الفواتير التي تراكمت وغدت تلاًّ من خوف، خوف أن أسددها وخوف إبقائها عندي، وبقيت حائراً وعاجزاً أمام هذه المخالفات المتكررة التي لا أعرف لها سبباً.

***

جاءني محرر الغرامات، ومن خلفه سار جنديان يتبعان خطواته الثقال. مدّ عنقه إلى داخل الدكان، وكمن لم يجد مبتغاه زفر بضيق وارتسمت على محياه حيرة فاقعة:

– لا أريد إيذاءك، فلماذا تصرّ على إيذاء نفسك؟

اغتنمت ليونته المفاجئة وبادرته:

– سيدي، كل أوراقي الرسمية مستوفاة.

وأشرت له تجاهها حيث كانت معلّقة في صدر الدكان، فهشّني متضايقاً:
– أعلم ذلك!
فقفزت إلى مكان آخر وتناولت إحدى المعلبات:
– اُنظر، كل المعلبات التي أبيعها لم تنتهِ صلاحيتها بعد.
– أعلم ذلك!
– وأبيع بأبخس الأثمان، وأتحدّى إن وُجد من يبيع بأدنى مما أبيع.
– أعلم ذلك... وهذا مثار الشبهة.
– أي شبهة تعني؟
– أما زلت متواطئاً ضد وطنك؟
– متواطئ! ماذا تعني؟
– قريباً ستعرف.
ومضى يجرّ عبوسه وتعبه المزمن، بعد أن قذف بغرامة جديدة في وجهي.
كدت أن أجنّ! ما بال هذا العابس لا يقف إلا بدكاني لتحرير غراماته التي لا تنتهي؟ أيريدني أن أرشوه؟! ولكني مددت له يدي بمبلغ زهيد، فأزبد وأرعد وتوعّدني إن فعلتها مرة أخرى ليكونّن السجن منتهاي. أيريد مبلغاً كبيراً؟
نعم لا بد أنه يريد مبلغاً كبيراً، فكل الذين يجاورونني لا يصيبهم هذا العابس بسوئه، ولا بدّ أنهم يمنحونه ما يسدّ جشعه.
لمحت أحد الجنديين ينسحب من خلفه ويقترب مني هامساً:
– يا أخي علّقها ولن تخسر شيئاً.
– أعلّق ماذا؟
– صورة الزعيم!
ترك سؤالي معلّقاً وانطلق في إثر ذاك العابس. فجأةً تنبّهت إلى أن كل تلك المحلات التي تجاورني تضع صورته العريضة في صدر محلاتها وفي زواياها.
اشتريت من أحد "الأستوديوهات" صورة ضخمة للسيد الرئيس وغلّفتها بعناية، وعدت إلى داري، وانتزعت أغلى "برواز" عندي، وكنت أضع فيه صورة أبي؛ تلك الصورة التي قذفت بها جانباً بدون اكتراث؛ وانهمكت بتلميع "البرواز" وتركتها في مكانها، وتهيّأت للنوم. فجأةً قفزت من مخدعي خشية أن يأتي أحد الدرك

ويلمح صورة الزعيم مقذوفةً على الأرض. قفزت مسرعاً وحملتها – بإجلال – واحترت أين أضعها، وخوفاً من أن يتربص بي أحدهم وضعتها فوق رأسي – بدلاً من وسادتي – ونمت قرير العين.

استيقظت في الصباح الباكر – كالعادة – وحملت صورة الزعيم وسرتُ، وأنا أكثر بِشراً مما مضى. ثمة شيء ينبئ أنّ هذا الصباح لا يشبه الصباحات الماضية، لكنني لم أعر ذلك أدنى اهتمام وتوجّهت عمودياً صوب دكاني، وثبتُّ الصورة بمسمار صلب داقّاً إياه بعناية خوفَ أن تتشظى الصورة بضربة طائشة، وبعد أن اطمأننت لمكانها البارز جلست سعيداً بانتظار محرر الغرامات.

كان الشارع قفراً من المارة والدكاكين مغلقة، وأنا أجلس وحيداً، وثمة جنود يجوبون الطرقات شاهرين بنادقهم، وما إن رأيتهم مقبلين نحوي حتى أخذت أقبّل صورة الزعيم وأمسحها باحترام بالغ، وما إن رأوني على هذه الحال حتى تصايحوا:

– اقبضوا على هذا الخائن!

البشارة

استيقظت القرية من نومها راكضة، وانصبت عند مفترق الوادي.

الفلاحون تركوا "زاهيبهم" تستقبل الشمس وحيدةً، والرعاة تركوا بهائمهم ترزح في "مطارحها" تمضغ القصب اليابس وتنعم بيومٍ من الرغاء الممتد، وبائعات "الملوخيا" واللبن لم يخرجن كعادتهن الصباحية وهنّ يصحن:

– هيا أملخيا يا بنات.

والعسكريان الوحيدان الموجودان في القرية خرجا يحملان بندقيتين متصلبتين ووجهاهما تتقافز منهما حيرةٌ تحاول أقدامهما إخفاءها بالركض المتواصل. في هذا الجو الراكض ظلّت بعض الأشياء ملتزمةً الصمت، فعلى غير العادة توقفت "الغبرة" في هذا الصباح المندهش، وذاك السوق العتيق البالي التحف بالصمت الصباحي وظل غارقاً في روائح الموز و"الشفلح" والسمن، وإن استطاعت هذه الروائح أن تتسلل عبر ممراته الملتوية منتشرةً باتجاه شيء ما يشي بأن الكل يسابق الغلس صوب مفترق الوادي، حتى أن "الحاسي" قذف "برشاء" الدلو جانباً وانطلق راكضاً وهو يصرخ:

– أميوم أماي نشف... كنه حس بمقدوم.

ساحات القرية خلت من تلك القامات المشدودة والأصوات الممتعة، وغدت البيوت خاوية من الأطفال وصيحاتهم المتعالية، مما مكّن طيور "المساملة" أن تشقشق طويلاً، فالصغار خرجوا يحملون بيارقهم الملونة ويسابقون ذويهم نحو المقدمة، ولم يتبقّ بداخل القرية إلا صرخات الرضّع وأنّات المسنين الذين يزحفون نحو قبورهم بملل وألم.

في هذا الصمت – الطارئ – كانت الحياة تتأرجح بين صرخة رضيع وأنّة مسنّ، ومن وسط البيوت صعد زفيرٌ حاد، صاخب، ثاقباً رتابة هذا الخلاء، صادرٌ من جسد ملقى على "شبرية" مرتفعة. كان يئنّ، وحين يلمحها بجواره – تنضح من جسده تلكَ

الحمّى الفائضة بقطعة قطن وماء بارد – تنفرج عيناه ويتطلّع فيها بحسرة، محرّضاً إياها أن تركض صوب الوادي، وعندما يئس أطبق عليها أهدابه وأنّ بثقل.

على امتداد الوادي تناثرت الأجساد في حركة دائبة، فالعيون زائغة والأفواه تلهث، وتلك الأقدام الراكضة اجتاحت كثيراً من الحقول لتتقصّف تحتها غِراس صغيرة، وتتعالى صيحات محذّرة.

ارتفعت صيحات حماة "الزاهيب" محذّرةً تلك الجموع لإبعادهم عن محاصيلهم، إلا أن صراخهم تلاشى وسط دمدمة متعالية، فكتموا غيظهم وشاركوا تلك الأقدام دهس ما تبقّى من زرع منتصب ويمّموا بوجوههم صوب مفترق الوادي.

يقولون إنه سيأتي، في هذا اليوم، مع الشمس.

***

عصر الأمس كان "شوعي عبده" يقرع طبلته بعنف وصوته يتردد صاخباً:

– أمحاضر يبلغ أمغايب... أمعاملٍ ويتي في امغلس...

ومضى يدور في أزقة القرية صارخاً:

– أمحاضر يبلغ أمغايب...

كان صوته يصل "متاكي" رجال القرية دون أن يهتم أحد لسماعه، اللهم إلا صبية التفوا حوله وظلوا يسيرون خلفه مرددين ما يقول.

كانت لهجته تبدو أكثر حدةً وإلزاماً من أي "حضار"[١] سابق، وقد تأكّد أهل القرية من جدية النداء، بعد أن أطل عليهم العسكري موسى في متكآتهم وهم يتقوّتون بنهم، وأشداقهم المتكورة تكاد أن تطرد عروقها النافرة بصلابة وتوتر. وعندما رأوه يوزّع بيارق متعددة الألوان – بعدد أفراد كل أسرة – ازدادوا يقيناً بقدوم العامل.

---

١ حضار: يعني التحذير والتعهد بالاستجابة من قبل من يستلمه، وله صفة الإلزام بالحضور. فلو قام أحد بالشكوى عند قاض أو والٍ مدّعياً على خصم له، يقوم القاضي بإعطائه عوداً أو علبة أو قطعة قماش يسلّمها لخصمه قائلاً له: هذا "حضار" لك من القاضي. واستلام الخصم "للحضار" تعهّد ضمني بالحضور واستجابة أكيدة للتقاضي. والحضار نظام بدائي مارسته تهامة (جنوب الجزيرة العربية) كوسيلة لاستدعاء الخصم من غير الحاجة إلى عسكري يقوم بجلب الخصم.

كان موسى ينفض مؤخرته معلناً رحيله بعد أن يحذّرهم من مغبّة عدم ملاقاة "العامل" عند مفترق الوادي، منهياً كل زيارة له بجملته التي ذهبت مثلاً "من لم نره... لن يرى الدنيا".

***

هذه القرية تذكر بوضوح قدوم أول عسكري إليها: ذاك الرجل البدين، المتّقد العينين، ذو الشارب المعلّق في الهواء، وصاحب النبرة الحادة الآمرة الذي كان يصرخ في أرجاء القرية مذكّراً إياهم بأنه ممثل الحكومة في هذه الأرض المنسيّة خلف المستنقعات والأودية. فكانوا يرفعونه بعيونهم ويُسقطونه متندّرين منه ومن بزته الزيتية. وعندما نفد صراخه، ويئس من ركونه في غرفة المركز وحيداً يهشّ الذباب والفراغ، والقضايا تعبره صوب "عقلاء" ومشايخ القرية، قرر أن يحمل حاجياته ويغادر القرية ليلاً. وفي إحدى الصباحات أفاقت القرية بلا عسكري يصرخ فيها وهي تضحك من صراخه.

وظلت هكذا حتى جاء موسى مذكّراً بسلفه، إلاّ أنّ هذا وجد صوته يمضي مع الريح. حاول أن يندمج فيهم، فقذف ببزته وبندقيته في "سحّارة" عتيقة واشتغل في السوق بائعاً للموز، وأغلق المركز، مما أغضب دورية التفتيش القادمة من العاصمة، والمكونة من مجموعة عساكر ذوي رتب مرموقة، وحملها على اصطحاب "عقلاء" ومشايخ القرية إلى العاصمة. كان ذلك منذ عدة شهور مضت، حتى أن القرية اعتصمت بالصمت والحذر، وعندما أطلّ وفد المشايخ قادماً من العاصمة غدا قدوم العامل أمراً نافذاً.

ولما مضت الأيام الأولى دون أي بادرة لمقدم العامل تناسوا الأمر وعادت الحياة لسيرتها الأولى. بالأمس، ومع ضربات "الزقار"، تحرّكت ذكرياتهم الراكدة، ولكي ينفّذوا الأمر ناموا مبكرين، ليستيقظوا، مع الغلس، راكضين صوب مفترق الوادي.

***

كان الليل يلفظ آخر قطراته، وأصوات النسوة تزغرد بفرح.

أخرج لباسه المزركش من سحّارته "السيسم" وحشر قامته الفارغة بداخلها، وتناول جبّته المصنوعة من القطيف الخالص وذات النقوش المتعددة – والتي ورثها عن جده – وشدّ على خاصرته جنبيته الصنعانية ذات المقبض العاجي، والتي طالما فاخر بها في المجالس، ومن ركنٍ منزوٍ من "عشّته" تناول عصاته الغليظة، المنتهية برأسٍ فضيٍّ مدبّب، وهزّها بيده، حتى إذا رضي بزينته خرج وشدّ بغلته وامتطاها، في حينٍ كانت أصوات النسوة، من الداخل، تحثّه على الإسراع. التفت إليهن مزهواً:

– مع طلوع امشمس أكون بينهم.

ولكز بغلته وخبّ في السير باتجاه القرية.

***

على غير العادة كان المركز مشرعاً بابه، ذلك المركز الذي أغلق أبوابه منذ أمد طويل، وأصبح رجل البريد – إذ كان يحمل أمراً ما، وهذا نادر – يتوجه إلى السوقً ويسلّم ما يحمله إلى العسكري موسى، الذي أصبح بائع موز معروفاً بسوق القرية، حتى أن سلعته غدت مضرب مثل: كنه موز موسى!

اليوم استيقظت القرية لتجد باب المركز مشرعاً، ومن خلال فرجة الباب المفتوحة لمحت موسى، جالساً، ينفض الغبار المتكدس من على بندقيته، ويبلّل قطعة شاش في صحن مليء بالقاز ويمررها بين مفاصل بندقيته التي أكلها الصدأ، وقد أخرج بزته الزيتية وشدّها على قامته – تلك البدلة التي أصابها القرض في أماكن عدة لطول مكوثها داخل السحارة المليئة بالفئران والجداجد – فبدت هيئته مثيرة للضحك والرثاء معاً.

جاوره في جلسته تلك مأموره الذي اشتغل بسدّ ثغرات المركز بطينٍ جلبه من أقصى الوادي. كان صوت موسى قلقاً متوتراً:

– من جد ويتي عامل لتا امخريبة؟!

وعندما لم يجد إجابة شافية على سؤاله انقلب على مأموره ساخطاً:

– كنك تحسبنا نبيع أموز في أمسوق... أنا أشاورك.

رمى الطين، بتذمرٍ مكبوت، من بين يديه وأجاب:

– امجواب ينبي... كنك مقريته؟!

ردَّ عليه بملل وضيقٍ زائدين:

– قريته ربع مراتٍ وعادني متعجب!!

– باكر نرى.. جلس – ذحين – نفض بندقيتك ونظفها وكبني أصلح أمربعه قبل ما تفضحنا مع امعامل.

***

عند مفترق الوادي وقفت القرية تنتظر انجلاء "غبشة" الليل وتستعد لاستقبال العامل. كان موسى يحصي رجال القرية، وفي الشق الآخر تكفّلت زوجته بإحصاء النسوة.

كانت عيناه تتقافزان في أعيان القرية، وبإلحاح سأل:

– فيان الشيخ يحيى؟!

فتهادى إليه صوت من بين تلك الأجساد يعلمه بأن الحمّى تغطيه، وقد بقيت معه زوجته لتمريضه، فقذف موسى ما بيده من زهور "السكب"، التي قطفها من جنبات الوادي لتقديمها للعامل، وصرخ:

– أنا بنفسي نفذت له "حضارة" وامرض مش حيعفيه من امحبس.

قالها، وانشغل بصفّ تلك الأجساد حسب مكانتها وسنّها، حين كانت الشمس تتسرّب من معطف الليل ببطءٍ مملّ، وقد تشاغل القوم بالأقاويل:

– يقولون أنه ويتي راكبٍ بغلة كنها امبراق... لها جنحه!

– وه... عادوه لا نبي!

– صه لا يحبسنك.

– وه... مقلت؟

***

عليّ أن أصل مع بزوغ الشمس كما وعدتهم.

ترى ماذا سيقولون حين يرونني؟ حتماً سيقبّلون رأسي ويركضون بي في كل أرجاء القرية وهم فرحون، وربما يصوّبون نحو الفضاء عيارات نارية ترحيباً بمقدمي، عندها سأسير أمامهم مختالاً وأتحرك وكأنني هدهد سليمان. آه... لقد أحسنت صنعاً

لاختياري هذه الملابس، فمن خلالها أبدو مهيباً! أوه، لعنة الله على هذه البغلة، فقد ركنت مثلي إلى خواطرها وأخذت تتلكأ في السير، وتمضغ العشب المتنامي في هذا الخلاء. حتماً لو ظلت هكذا لن أصل مع بزوغ الشمس.

***

لم تفلح جهود موسى في تنظيم تلك الأفواج من الأجساد الراكضة من داخل القرية، فتناثرت عند مفترق الوادي في جماعات متفرقة، إلا أن حملة البيارق، احتفظوا بالمقدمة، وأخذ شاعرهم يلقّنهم ما سوف يردّدونه بعد كل مقطع من قصيدته، وتسابق الصبية إلى مقدمة الطريق لينقلوا خبر قدوم العامل قبل وصوله إلى مكان الترحيب، وبقيت النساء متهيئات لإطلاق الزغاريد، في هذا الجو المتأهب، والأصوات المتداخلة، والعيون المسكوبة بكل تلهف لرؤية القادم.

كان موسى غاضباً لأن بندقيته أصابها الصدأ، ولم تفلح محاولته السابقة في تحريك مفاصلها، ولم تعد قادرة على إطلاق حجر!

في يمين المقدمة، ظهر أعيان القرية محتزمين بنادقهم "التشيكية" ذات "المعبر" الضخم وقد "تمنطقوا" بمعابر عديدة، وشبّ بينهم جدل حول من يتقدم بالسلام على العامل. وبعد شجارٍ طويل ومناقشة شديدة رضوا أن يتقدمهم خطيب الجمعة، السيد عبده هادي، فهو يجيد الكلام النحوي وله فصاحة، اكتسبها من اعتلاء المنبر وخطب الجمع، تسعفه حين يتلعثم.

كان أصحاب الحقول المجاورة لمنطقة الالتقاء يشاركون موسى تذمّره، فهم متذمّرون ممّا حاق بحقولهم من عطب، تلك الحقول التي تقصّفت محاصيلها تحت أقدام المستقبلين. قال أحدهم لموسى:

– مه... امعامل شيعو ظني بدل امواجبهم يلي تقصف؟

فلكزه موسى ببندقيته الصدئة محذّراً:

– حسك عينك تتهرج.

من هناك – من بعيد – جاء داود "ريّس القرية" يحمل وجهه الأسود وتعبه اليومي، وقد استقرت تحت إبطه أدوات حلاقة بدائية. مدّ رأسه من فرجات الأجساد المتزاحمة ونادى موسى:

– واموسى... ترى أنا شادنبع للمعامل.

زجره موسى بغلظة:

– أقلك... تاراس امعامل مه... تحسبها راس امخادم؟!

انسحب داود، وهو يمسح مديته بإزاره المتّسخ، وجلس بعيداً، ينظر إلى "الزقارين" وهم "يُحمّون" طبولهم الكبيرة و"يحمّسونها" على نار اشتعلت من وقت مبكر، ويمسحون طبولهم براحات أكفهم ويعيدونها إلى ألسنة النار. تنهّد بعمق وجلس يشحذ شفرته بحجرٍ مستطيل تدلّى من عنقه وهو يتمتم:

– لجا... شادنبع له.

***

لم تتبق إلا عدة فراسخ وأكون بينهم. الذي أخشاه أن تتلكأ هذه البغلة ولا أصل في الوقت المضروب بيننا. ليت لهذه البغلة ساق ذاك الكلب الذي عبرني للتو. كان يقفز قفزاً سريعاً، منتظماً، ولسانه يتدلى بنهم، يبلله بريقه اللزج ويعدو وكأنه يسابق الغلس.

لم يكن أمامي إلا أن أتحمل تلكؤها البطيء واجترار ما أشتهي من خواطر.

***

الأفق يتفتق عن شمس باهتة مدّت خطوتها على الكون بخدر، فبدت أشعتها أرجوانية، باردة، وكأن المدى "يزحر" بميلاد يوم جديد، تدفعه نسائم من صباحات الحقول الريانة، والأرض ارتدت طلاًّ مرتوياً وقامات سنابل خفيضة.

هناك، عند مفترق الوادي، انهمك موسى، للمرة العاشرة، بصف أهل القرية صفوفاً متوازية، يتقدمهم رماة البنادق، ومن خلفهم النسوة المزغردات، تاركاً للبعض حرية التهيّؤ للاستقبال، فصعد بعضهم على ربوات الحقول، مادّين أبصارهم صوب الطريق الممتد والمنتهي بخلاء فسيح، علّهم يلمحون العامل قبل أولئك الصبية الذين انشغلوا بمطاردة العصافير والفراشات المستيقظة للتو.

صرخ أحد المتجمهرين:

- كني أرى عصفور مقبل علينا... كنه هو.
تهادى هذا الصوت إلى موسى الذي رفع صوته بانفعال:
- أطلقوا المعابر و"غطرفوا" يا حريم.
تطايرت المعابر، ودوّى صوت الرصاص مخترقاً ذاك الصباح الرائق، واكتسى المكان برائحة البارود، وزغاريد ممتدة تسيل دلالاً، واختلطت الأصوات بحدة مع أصوات الطلقات النارية، وظلّ صوت موسى ضائعاً، وهو يصرخ بين لحظةٍ وأخرى سائلاً:
- هه... وصل؟
فلا يسمعه أحد، فيقلع عن صراخه ويلقي ببصره إلى نهايته فلا يلمح إلا كلباً يعدو بقلق، وحين بلغ القوم وقف لاهثاً، معلقاً رقبته صوب موسى، الذي زجره، صدر منه نباح متكاسل، قصير، وبقي واقفاً وسط أفواج المستقبلين، فهمّ موسى أن يقذفه بحجر إلا أنه تراجع حين سمع أحدهم يقول:
- كنه كلب أمعامل.
فجأةً انطفأت تلك النشوة الفائرة وخمدت الأصوات وعادت الأعين تترقب ولادة المدى.
للتو تفتّق الأفق عن شمس باهتة، مخضّبة بصفرة فاقعة، وخطت تصعد إلى عرشها، حين انقلب بعض القوم هامّين بمغادرة المكان. التفت موسى صوب مأموره يائساً وهمس به:
- مقلتلك... تا مخربية!!
وانثنى ليعطي أمراً بالانصراف فاقتنصت عيناه بغلة تشقّ الوادي مخبّةً وعلى ظهرها استقرّ شخص مهيب الطلعة، فصرخ موسى بتهلل:
- أتى أمعامل... أطلقوا أمعابر وغطرفوا يا حريم.
فتراجع من همّ بالذهاب عن نيته، واستعدّ الرماة، واقتربت النساء، فخرج صوت جهوري من بين الصفوف:
- مقلتكم ذا كلب أمعامل...
فطغى على صوته عيارٌ ناريٌّ حادّ انطلق صوب الفضاء محدثاً دويّاً، ومحرّضاً تلك الزغاريد أن تتصاعد، ليعود الضجيج وتنطلق العيارات النارية في كل

الاتجاهات، وتخبطت الأصوات حتى أن الكلب مدّ رقبته للأسفل في نباح متواصل دون حراك. وما إن بلغت البغلة بصاحبها حتى تخاطفته أيدي كبار القومٍ، فأنزلوه وأحاطوا به، وتقدّم نحوه عبده هادي ليلقي خطاب الترحيب، إلا أن القادم كان صوته حازماً - بالرغم من تلك البشاشة البادية على محياه - وهو يتطلع في تلك الوجوه المحيطة به:

- فيان الشيخ يحيى؟!

لم يجبه أحد، وظلّت همسات خافتة تشتعل بين المجتمعين:

- مقلتلكم يعرف كل شيء!

آمن آخر على قول المتحدث باستغراب:

- عاده واصل وعرف كل شيء! كيف لو طول في أمقرية؟!

أعاد القادم سؤاله بنبرة أكثر إلحاحاً، فتحرك موسى من بين الصفوف وهو يتلوّى معتذراً:

- حاضر يا سيدنا، ذحين يكون بين يديك، بس أنت ارتاح من امسفر.

وتحرك الموكب يزفّ القادم صوب المركز تسابقه زغاريد النسوة وأصوات طلقات البنادق، وقد بدأ الضيف أقل هيبةً بالتفاتاته المتكررة وسؤاله الذي لا ينقطع:

- فيان الشيخ يحيى؟!

***

انسلّ موسى من صفوف المرحّبين مصطحباً ثلاثة رجال تبرعوا بإحضار الشيخ يحيى. كان موسى يسير مدمدماً بصوتٍ خفيض وهو يحثّ الخطى:

- عينه كمجمر. مالك في أول يومٍ وكسرت أوامره... شيعذبك يا موسى!

وعندما فطن أن هواجسه اخترقت مسامع مسايريه، أحجم وشدّ بندقيته بيده حتى التصقت بظهره:

- إن كان حضرتوه قبل ما يصل أمعامل امركز لكم اموز كله.

فانطلقت السيقان مهرولةً، ومن خلفها ركض موسى يقدح فيها تلك الهمّة المفاجئة:

– ولكم عليّ ما تصلكم يد في أمقرية.

***

في عشة واسعة كان جسد يحيى يفور بالحمى والأنّات، تغطّيه بطانية متآكلة وتفوح منه روائح "أبوفاس" و"الكالمين"، امرأته تسنده على ذراعيها، ترقب تلك العينين اللتين تحرضانها للذهاب إلى مفترق الوادي، وعندما تيأسان تطبقان عليهما أهدابهما وتئنّان.

كان لوقع أقدام الرجال في العشة دهشةٌ اتّسعت لها عين المرأة وشهقت:

– كذا لا دستور ولا ناموس، وكأن يحيى ميت.

لم يمكّنها موسى من أن تمدّ استنكارها بعيداً، فقد دفعها بيده وأشار للرجال الذين معه بحمل المريض، وما هي إلا لحظات حتى كانت الأيدي ترفع الجسد عالياً وتركض به خارج العشة، وصوت المرأة ارتفع عالياً:

– يا غارة الله عليكم.

وعندما يئست من موسى ورجاله، صرخت مستغيثة:

– وه يا أهل أمقرية الحقونا... شلوا يحيى وكنه ميت.

ذهبت استغاثتها تزمجر في القرية دون أن تجد جواباً، فارتمت باكيةً حين واصلت الأقدام الركض الحثيث، وموسى من خلفها، وحينما بلغوا المركز كان القادم قد دخل للتو، فتبعوه مسرعين وقذفوا بالمريض بين قدميه، وصار صوت موسى أكثر ثقةً وهو يتحدث:

– مولانا، هذا يحيى يلي خالف أمرك.

وما إن رأى القادم ذلك الجسد ملقياً تحت أقدامه حتى انكفأ عليه يقبّل رأسه ويده:

– سيدي الشيخ، امباشرة لي. بنتك وضعن... هبن ولد سموه يحيى... هه يا شيخ امبشارة.

١٤٠٩/٧/١٩هـ
جدة – عرعر

ليس هناك ما يبهج

ألم يكن بمقدوره أن يتأخر قليلاً؟!

سالت تلك الجملة في خاطره وهو يخترق المدينة من شمالها إلى جنوبها.

كانت ثمة غبرة عالقة في الجو أحالت الأشياء إلى اللون الرمادي الباهت، ولم تستطع أشعة الشمس الغاربة أن تبدد ذلك الجو الذي استحال إلى عتمة مبكرة. كان يسير بسيارته المرسيدس مخترقاً شوارع واسعة اصطفّت على جنباتها مقار شركات ومؤسسات ومحلات تجارية فخمة، وقد تناثرت فيما بينها لوحات دعائية صُمِّمت بأشعة الليزر لتومض أضواؤها وميضاً ساحراً في مثل هذا الوقت، وكعادته كان منجذباً لمعرفة تلك الشركات والمتاجر الأنيقة ومراجعة السبل التي تمكّنه من بناء علاقة وطيدة بأصحابها.

جذبه إعلان كبير عن وجود سلعة لأول مرة تُعرض في الشرق الأوسط وتبحث لها عن وكيل بالداخل. كاد يتوقف لمعرفة نوع تلك السلعة والشروط الواجب توافرها في الوكيل المرغوب به. امتعض كثيراً حينما تذكّر المشوار الإلزامي الذي يقطعه، فضرب مقود السيارة بعنف وتمتم بقرف:

– لماذا علينا أن ننقاد لهذه التفاهات باسم الواجب؟!

كان عليه أن يقرر إما التوقف أو مواصلة سيره، وفي تردده انبثقت عدة أبواق من الخلف ليعطي إشارة ويتمهل قبل دخول شارع الخدمات. كانت السيارات المنطلقة من الخلف تتجاوزه بصعوبة وتواصل عبورها المسرع، وإن لم يجرؤ أيٌّ من أصحابها على رفع إصبعه الوسطى في الهواء كما هي العادة حين يعبّرون عن استيائهم. تمكّن من دخول شارع الخدمات بعد جهد، وتوقف جانباً ليكتب رقم هاتف ذلك الإعلان، وبعد أن أنجز تلك المهمة أعاد مفكّرته إلى جيبه وانطلق ليكمل مشواره.

كان شيء ما يحترق بداخله فيخرج على هيئة تأوهات متتالية، وأحسّ بضيق يجثم على صدره ويتمدد، فلا يعرف كيف يبدده. أخرج سيجارة وأشعلها تاركاً الدخان يملأ مقصورة السيارة. تمنّى لو أنه تجاهل تلك المهاتفة التي أجبرته على ترك أعماله. فكّر جدياً أن يتجاهل الأمر، وأن يوكل للجيران مهمة إكمال تلك الطقوس التي كلما تذكر تفاصيلها ازداد نفوراً، لكنه وجد نفسه، لاإرادياً، منجذباً لإكمال مشواره الذي بدأه.

كان شارداً في تلك الشوارع التي تهرب من عينيه ولا يتبقّى أمامه سوى طوابير ممتدة من السيارات التي تسعى كالنمل، ووجوه مكفهرة تدلق بصرها في ذلك الخط الإسفلتي الطويل. نظر إلى وجهه في المرآة فلم يكن أحسن حالاً من تلك الوجوه التي تعبره أو تتلاقى عيناه بها عند الوقوف أمام إشارات المرور.

– لم يعد في الوجوه بهجة كما مضى.

هجس بهذه الجملة، وتواردت إلى خاطره صور ذلك الحي الضيق الذي كان يعيش فيه، حيث كان يضحكه أي شيء. أما الآن فلم يعد ثمة ما يبهج؛ حتى ذلك الحي لم يعد يطيق المرور به، ويتحاشى ذكره بين أصدقائه الجدد كي لا يلصق به العار ويُتّهم بأنه طارئ على الطبقة التي وجد نفسه فيها بمناصرة أرحامه الذين ادّعوا أكثر من مرة أنه سليل مجد. تنهّد بعمق وأدار مقود السيارة ليسلك أحد المخارج المؤدية إلى الأحياء الجنوبية. سمع نغمات جهاز الهاتف تتردد، لم يعد الهاتف السيّار يشبع نزوته التي كان يقوم بها. ففي الأيام الأولى كان يرفع سماعة هاتف سيارته ويفتعل الحديث ممسكاً مقود السيارة بيد واحدة بينما الأخرى يسندها على المقعد الأمامي ناظراً إلى العابرين بترفّع. مازال الهاتف يرنّ بنغمات هادئة، رفع السماعة وظل صامتاً، وما إن سمع صوت محدثه حتى هلّل ورحّب كثيراً وحاول الاعتذار بتعثر:

– سيدي، ألا أستطيع أن أؤجّل موعد الليلة؟

– كنت أعلم أنك لست محل ثقة.

– عذراً يا سيدي، ستجدني رهن بنانك، ولكنّ ظرفاً طارئاً حدث.

– في عالمنا لا توجد ظروف طارئة.

– لكن والدي...

إلا أن محدثه قطع جملته وأنهى المكالمة بصرامة:

– إذا لم تتواجد قبل العاشرة فإن الصفقة ستطير من بين يديك.

أرخى سماعة الهاتف ساخطاً: ألم يكن بمقدوره أن يتأخر قليلاً؟!

أحسّ بشيء ما يتآكل بداخله، تمنّى لو أنه يستطيع البكاء، فتباكى إلا أن وجهه ظل جامداً بينما كانت ذاكرته تفرز ندماً خصباً، فانفجر صارخاً بعنف:

– لو انقدت لسخافاتك فسوف تخسر كل شيء!

كان يرغب في أي شيء يوقف تلك التداعيات، فأسقط شريطاً في جهاز التسجيل لينبعث صوت محمد عبده مترنّماً:

هلا بالطيب الغالي

عزيز وشوفتك منوة

تمايل في البدء لكنه تراجع وأغلق الجهاز بسرعة وهم يتمتم:

– لا، ليس إلى هذا الحد!

كان ثمة صراع عنيف يحتدم بداخله، وهو يحاول أن ينتصر لقناعاته. وحسم ذلك الاحتدام بجملة أخذ يرددها مراراً:

– نحن نعيش مع الموت، فلا داعي أن يعكّر الأموات حياتنا.

انشرح لهذه الجملة، وأعاد الشريط لموضعه فانطلق الغناء رخيماً:

ترى ما جى على بالي

أشوف عيونك الحلوة

توقّف عند آخر إشارة تفصل ما بين شمال المدينة وجنوبها، حيث كان يلمح الشمال من خلفه – من خلال المرآة المثبّتة في منتصف زجاج السيارة – بأضوائه وشوارعه الفسيحة وقصوره ومتاجره، بينما كان وجهه يستقبل الوجه الآخر لهذه المدينة النائمة على خاصرة البحر؛ ذلك الوجه البائس حيث البيوت المتداعية المتلاصقة التي تستند إلى بعضها بعضاً خشية الوقوع، وتلك الشوارع الضيقة التي تختبئ في ثناياها روائح القمامة المكدّسة والمياه التي تنزّ من بيّارتها فتترك شوارعها موحلةً طوال العام، وأولئك الناس يسيرون بانكسار وأبصارهم تتابع تعرجات الأزقة التي تفضي بعضها إلى بعض.

كان يرتّب جملاً معينة يفاتح بها من استبطأه أو عاتبه، وحين كان يردّدها في

داخله بدت له لينةً لا تستوجب أن تُقال لأولئك المنسيين في حياته، وعقد العزم على أن ينهي مأموريته ويعود بأسرع وقت ممكن.

عندما بلغ الحي كان الليل يتسلل بهدوء بين مفاصل الشوارع الضيقة، وينثر قطرات من ليل موحش، فتنطوي الحارة على أزقّتها الملتوية الضامرة. كان المصلّون الخارجون من صلاة المغرب يتقاطرون صوب إيوان العزاء، وكان حديثهم منصبّاً على تلك الجثة التي لم تُدفن إلى الآن، فعلى باب المسجد قال الإمام:

– كنت أنتظر أن تدخلوا بالجنازة كي نصلي عليها.

فردّ عليه محمد البكيري باقتضاب:

– ماذا نصنع وابنه لم يحضر إلى الآن؟!

– خافوا الله! كان علينا أن نصلي عليه صلاة الظهر.

– يقولون إن ابنه سوف يأتي.

استعاذ الإمام كثيراً، وتناول حذاءه ومضى يسعى بين تلك الأزقة الملتوية.

دار بسيارته حول الحارة باحثاً عن مكانٍ لها. كان يسير ببطء بين منعطفات الحارة غير منتبهٍ لذلك الغناء المنبثق من سيارته:

هلا بالطيبً الغالي

عزيز وشوفتك منوة

فلمح جارهم القديم يوسف الغمري يصفّق كفّاً بكفّ، ويتحولق جاذباً بعض الواقفين وصائحاً بهم:

– انظروا إلى أبناء آخر زمن.

فسارع بإغلاق جهاز التسجيل وابتسم للمتطلعين إليه ابتسامةً متعثرة أقرب إلى الاعتذار؛ تلك الابتسامة التي بادلها الغمري ببصقةٍ كبيرة على بعد أمتار من حذاءه، وصاح منفعلاً:

– يا شيخ استحي.

أحسّ برغبةٍ جامحة بأن ينزل ويلقي بقبضته في وجه هذا العجوز وأن يعود من حيث أتى، فلمٍ يعد يربطه بهذا المكان سوى تلك الجثة المقذوفة التي سيردمها بعد لحظات. فكر جدياً في أن يعود من حيث أتى، وقبل أن يقدم على تنفيذ فكرته هجس:

– لم يعد بيني وبين هذا الحي سوى تلك الجثة وردمها، فلا ضير أن أتحمّل تناتنهم للحظات!

واصل دورانه حول الحارة مراراً، كان يخشى على سيارته أن يتركها في أحد هذه الأزقة فتتعرض للتلف أو السرقة، مما اضطره لإيقافها بعيداً، وترجّل قاذفاً بنفسه داخل تلك المنعطفات الحادة. كان يسير واضعاً يده على أنفه حيث ترامت القمامة بشكل عشوائي ونزّت روائح البيارات الطافحة وسال ماؤها في الأزقة موحِلاً راكداً. وفي سيره في أحد المنحنيات المظلمة غاصت جزمته في الأوحال فاستشاط غضباً وأخذ يلعن كل من يقطن هذا الحي، وعندما لم يجد من يكترث لغضبه تنحّى جانباً وأخرج منديله الحريري الأبيض وانحنى ليمسح جزمته باشمئزاز، ولمّا أعاد منديله إلى جيبه أحسّ بلزوجته فقذف به بين تلك الأوحال التي كانت تعبرها مجموعة من الصبية وهم يتراكضون ويتصايحون مع مجموعة أخرى كانت تقف بالخلف.

ازداد حنقه، أحس بـ"طرطشة" تلك الأقدام الراكضة تصيب ثوبه، فصاح بهم:

– النجاسة عالقة بكم أيها الكلاب.

لم يكترث الأطفال به كثيراً، فقد مضوا يتقافزون بين تلك الشوارع التي تسلم بعضها لبعض، بينما تبعتهم مجموعة أخرى تحاول الإمساك بمن تصل إليه أيديهم.

عندما واصل مسيرته كان يوسوس لنفسه:

– أليس من الخير أن تُردم مثل هذه الأحياء بدل أن تظل وصمة عار في وجه مدينتنا الجميلة؟!

واصل سيره بحذر فيما كانت الحارة تكتظ بالصبيان في كل زواياها، حيث تحلقوا على شكل جماعات كل مجموعة تمارس إحدى الألعاب الليلية، وبقيت الصبايا منزويات عن تجمعاتهم في حلقات أخرى يلعبن ألعابهن الخاصة بهن، بينما تناثر باعة "اليغمش" و"البسبوسة" و"البطاطا" و"الآيس كريم" صائحين على ما لديهم ومحفزين أولئك الصبية لشراء ما تبقى من مأكولاتهم. كان يسير وهو يكيل اللعنات بصمت:

– من هنا تخرج الجرائم... كل واحد يخلّف ما لا يقدر على تربيته.

أسلمه أحد الأزقة إلى برحة واسعة استقرّ بها رجال الحي المنشغلون بتجهيز الميت، وسمع أحدهم يصيح بالحضور:

– ياهو... أخرتوا الجنازة كثيراً... ألم تسمعوا بأن إكرام الميت دفنه؟!
وقال آخر:
– كان من المفترض أن نصلي عليه الظهر.
– لكن ابنه لم يأتِ إلى الآن.
– أي ابن هذا؟! لم يتذكره حياً، أيتذكره ميتاً؟!
– على أية حال لقد قمنا بواجبنا وكفّناه وحنّطناه، وإذا لم يأتِ نصلي عليه العشاء وندفنه.
توقف الحديث فجأةً حينما صرخ السكري:
– انظروا... ها هو قادم.
كان منظره مهيباً وهو يتدفق صوبهم، فالتفّ حوله الحضور معزين، فكان يدفعهم عن الالتصاق به بتأفّف وضيق زائدين:
– جزاكم الله خيراً.
قاده أحد كبار السن وهو يردد جملته بتودد:
– تعال يا بني وألقِ النظرة الأخيرة على أبيك وودّعه.
فتملّص من يده بحركة مفاجئة:
– لا داعي لذلك!
حاول أن يصلح تلك الغلطة الفادحة بكلام كثير وبافتعال الحزن العميق، فكانت الكلمات تجري على شفتيه دون أن يستطيعَ تدارك الخجل الذي نما في داخله وجعله يهذي بجمل مفككة:
– إنه يلاقي كريماً... أنا أخاف من منظر الأموات، لذلك لم أزره أثناء مرضه... أرجوكم لا تحمّلوني ما لا أطيق.
كان يتحدث بعشوائية ولا يدري لمن يوجّه كلامه. فجأةً توقف عن الكلام وقرر أن يتعامل معهم كما يشتهي، دون قيود تلجم قوله أو فعله، خاصةً بعد أن ارتفع صوت بداخله:
– ما الذي يحملك على أن تعتذر لمثل هذه الحثالة؟
فبتر حديثه بجملة مقتضبة:
– جئت لأدفنه.

كانت العيون ترمقه بتعجّب، وهمسات مواربة يتبادلها كبار السن بشيءٍ من الأسف، حتى أن أحدهم تضرّع إلى الله بصوت مسموع:

– اللهم سخر لي من يعزّني عند الموت.

فأمن من كان قريباً منه، بينما نهض الغمري من مكانه غامزاً:

– إن قلبه رقيق لا يتحمل رؤية الموتى، ففي مثل هذه الأوقات لا يطيب إلا الغناء.

فنهره عباس الطائفي ولامه، فترك المكان وانطلق يلعن الذرّية التي تورّث الذلّ والندم، فتقدم عباس معتذراً وضاغطاً على كتفه:

– كانت أمنيته الوحيدة أن يراك. بالأمس نهض وطلب صورتك وقبّلها وبكى، وعندما لفظ آخر أنفاسه كانت صورتك بين أحضانه.

– يكفي يا عم عباس... الله يرحمه.

فصمت وانسلّ من بين المجتمعين يواري دمعةً كادت تطفر من عينيه.

ظل واقفاً بقلق بينما كان المجتمعون يتساءلون:

– في أي مقبرة سوف يُدفن؟!

وظل تساؤلهم معلّقاً دون أن يجيب عليه أحد، وإن كانت عيونهم معلّقة بابنه ينتظرون أن ينطق بكلمة، فلا يرون إلا رجلاً متأنقاً بادي الضيق والاشمئزاز مما يحدث.

في هذه الأثناء ظهر عيسى، بائع الخردوات، الذي كان على صلة حميمة بالمتوفى، فركض صوبه وحضنه باكياً:

– لو تعلم كم كان يحبك؟

فزجره بحدّة:

– ابتعد عني...

بعد هذه الجملة انسحب الكثيرون، وتلطّف بعضهم بجرّ عيسى الذي انخرط في بكاء متقطع تخرج الكلمات من بين شدقيه محترقة:

– النّار لا تخلف إلاّ رماداً.

وما زالوا يسحبونه برفق ليبعدوه فلم يستجب لهم إلا بعد أن دخل إلى الغرفة التي يرقد فيها المتوفى متلمّساً رأسه من خلاله الكفن، فقبّله بين عينيه ودلق أدعيةً قصيرة ومضى.

تبقّت قلة من أهل الحي، وقد اختلفوا على الدفن، فالبعض يرى أن يُدفن صبيحة اليوم التالي بحجة أن الدفن ليلاً مكروه، والبعض الآخر رأى أن تُصلّى عليه صلاة العشاء ويُدفن قبل أن يصيبه العطب، خاصةً وأنه توفي صباح اليوم، ولكن بعضهم أحجم عن إبداء الرأي معللاً أن القرار الأخير يعود لابنه الذي تُرك بالخارج... كان الكل رافضاً أن يفاتحه في هذا الأمر، منتظرين ما سوف يفعله، وحين ارتفع أذان العشاء كانوا لا يزالون محتارين حتى إن إجاباتهم على الصبية الذين بعثهم ذووهم للاستفسار عن المقبرة التي سوف يذهبون إليها لم تكن تحمل إجابة محددة، فكانوا يدفعون بعضهم بعضاً للحديث معه لكن كل واحد كان يعتذر بعد أن يطلق نعتاً ملائماً لذلك الابن الذي وُصف بأنه متعجرف، وعاقّ، وسافل، ومنحطّ، فتبرع عباس الطائفي للحديث معه رافضاً اعتراض أخيه:

– ألم يكفِك ما سمعته منه!

فردّ عليه:

– لم يراعِ أباه، وكما يقول المثل: من أجل عين تكرم مدينة.

كان الابنَ يجلس بالخارج متأففاً متذمراً، وما إن رأى عباساً مقدماً عليه حتى بادره بالسؤال:

– ألم تنتهوا من تكفينه؟ الوقت يمضي مسرعاً وأريد أن أنتهي من هذا الأمر.

امتعض عباس من تلك النبرة وتمنّى أن يصفعه على وجهه، لكنه تراجع وردّ عليه متهكماً:

– أما هو فقد لاقى كريماً، كما تقول. أما أنت فستلاقي جباراً.

– كلنا سنلاقيه، فدع لسانك في مكانه.

فانسحب من أمامه ساخطاً لاعناً، ومعطياً إشارة بإخراج الجنازة التي كانت تترجرج بين أيدي حامليها الذين خرجوا من ثنايا الحارة وكأنهم ينتظرون هذه اللحظة، واتجهوا بالجنازة صوب المسجد، فأوقفهم آمراً بإنزال الجثمان، فاستجابوا له مستغربين طلبه، بينما كان صوته يرتفع عالياً:

– سأقوم بدفنه في حيّنا لكي أتمكّن من زيارته بين الحين والآخر.

فتغامز الحضور بسخرية، وأردف الحسيني:

– ونعم الابن، دعنا نصلي عليه جماعة وسننقله إلى حيّك ليُدفن بجوارك.

وأشار إلى السيارة التي أحضروها لنقل الجنازة، فردّ عليه بضيق:

– جزاكم الله خيراً على ما فعلتم، ويكفي هذا. أنا سأنقله بسيارتي.

فقال أحد الشباب من الذين رأوه يدخل الحارة بسيارته المرسيدس:

– لكن سيارتك لا تصلح لنقل الموتى.

وأردف الطائفي بنبرة جافة محتدة:

– وماذا يفعل هؤلاء الذين يريدون أن يحضروا دفنه.

فردّ بجفاء:

– هذه ليست مشكلتي، الذي أعرفه أن عليّ أن أدفن أبي في المكان الذي يريحني. أولست أنا المسؤول عن دفنه؟!

ازدراه الكثيرون، لكنه لم يكترث لأصواتهم المتداخلة بالاستنكار والشتم، فقد اتجه صوب الجنازة وخطف الجثمان بين ذراعيه، وانطلق بين الأزقة الضيقة يذرع الخطى تاركاً أصواتهم ودهشتهم تملأ المكان، ولم يكن يتبعه إلا عباس الطائفي صائحاً به:

– خذ هذه الأوراق، فأنت تحتاجها لدفنه.

كانت خطواته أوسع من أن تلحق بها خطوات عباس المتعثرة، الذي كان يحاول الركض للحاق به، فيلعنه مرة ومرة يلعن الكِبَر الذي لم يمكّنه من إيقاف ثور كهذا.

وصل إلى سيارته، وترجّى أحد المارة أن يفتح له الباب الخلفي حيث قذف بأبيه هناك وسط ذهول الكثيرين ممن تبعه، وصعد سيارته وأدار محركها وانطلق بعيداً عن تلك الأصوات التي تبعته، بينما كان المسجّل يصدح بتلك الأغنية:

هلا بالطيب الغالي

عزيز وشوفتك منوة

شعر بالارتياح حينما غادر ذلك الحي، نظر إلى ساعته فأصيب بالهلع حيث كانت عقاربها تركض متجاوزةً التاسعة والربع، فرفع سماعة الهاتف وضغط على الأرقام بسرعة، انتظر للحظات، ورفع صوته مهللاً ومحاولاً الاعتذار:

– أرجوك، أريد أن أتأخر لبعض الوقت، فلدي ظرف طارئ.

كان صوت محدثه يخترق مسامعه بصلف:

– وقتنا ليس لعبة، وأنت تعلم ذلك. وكما أخبرتك: إذا تأخرت عن العاشرة فإن

الصفقة ستطير إلى سواك، فالجميع هنا والكل يريدها.

فاعتذر بارتباك:

- سأكون عندك في تمام العاشرة!

انحرف بسيارته باتجاه الخط السريع، مهدئاً نفسه:

- لا بأس أن يتأخر دفنه ساعة أو ساعتين!

وانطلق مسرعاً صوب الموعد المحدد، ممنياً نفسه أن لا يتأخر عن الموعد.

***

أوقفت سيارتي أمام بوابة القصر وأخذت أرفع الأنوار الأمامية عالياً مشيراً لحارس البوابة بفتح الباب، لكنه ظل من داخل كبينته يشير لي بالرجوع، فنزلت من سيارتي وتوجهت إليه وأنا عازم على توبيخه، لكن لغتي لم تسعفني - كان حارساً جديداً أقرب الظن أنه من الفلبين - فحاولت بلغة متداعية - تعلمتها من خلال سفراتي المتلاحقة - إفهامه بأنني أحد الأصدقاء الخلص لسيده، لكن وجهه ظل مستفزاً يرطن بكلمات أقرب إلى التحقير منها إلى التفهم، وبينما كنت أنثر كلماتي المتداعية خرج من غرفته لاستدعاء كبير الحرس. خلال هذا الوقت وقفت خلفي سيارة "رولز رويس"، وقد ضغط سائقها على البوق بتواصل متقطع، في حين كنت أشير إليه أن يتمهّل ريثما يأتي الحارس، لكنه واصل إصراره على الضغط على ذلك البوق الذي غدا صوته مزعجاً لدرجة أن السيدة الحسناء التي كانت تقتعد المقعد الخلفي استثيرت ومدّت عنقها من خلف النافذة غاضبةً وصاحت:

- من هذا الكلب الذي تجرّأ وأوقف سيارته عند المدخل؟!

عرفت من ملامحها أنها الزوجة الجديدة لسيد القصر، فقد لمحتها مؤخراً معه في إحدى السفريات التي جمعتنا (كان ذلك في سويسرا)، وكنت أسترق إليها النظر وهي محاطة بالوصيفات والخدم. كانت تبدو كإحدى عجائب الدنيا السبع، فلها جمال لم أرَ له مثيلاً قط، وكنت أمنّي نفسي بأن تصبح لي زوجة في مثل جمالها، وأخمدتُ خاطراً شبّ في مخيلتي بأنني لن أتمكّن من ذلك إلا وأنا على مشارف القبر، حين همهمت: "لا تيأس، فغداً لمّا يأتِ بعد"، وجزمتُ بأن هذه الحورية لم تقبل به إلا من أجل تلك الأموال الطائلة التي يربض عليها ذلك الكهل.

أفقت من خواطري على صوتها المنفعل وهي تصيح في سائقها بغضب:
– أُجرف هذه السيارة أمامك.
فهرولت إليها معتذراً:
– عفواً سيدتي، لم يتعرّف إليّ الحارس الجديد مما اضطرني أن أقف أمام البوابة.
أشاحت بوجهها عني وهي تمطرني – وأشباهي – بشتائم جعلتني أقف مذهولاً لا أعرف كيف أتصرف، وعندما رأتني لا أزال واقفاً صرخت في وجهي:
– تحرك أيها الأهبل وأزح سيارتك من مكانها قبلٍ أن أزيح عمرك.
فركضت إلى سيارتي بعد أن رجوت سائقها أن يمكنني من العودة للخلف.
كان رئيس الحرس قد وصل وسمع من سيدته ما جعله يذرف الاعتذارات ويطأطئ رأسه مراراً متمنياً عليها أن لا تعكر دمها، فمرقت بسيارتها وهي تتوعّده. كنت أتوقع أن يعتذر إليّ لكنه رفع حاجبيه وأخذ يرطن للحارس الفلبيني، وما إن أعدت المحاولة للدخول حتى زجرني بغلظة:
– أرجوك يا سيد، يكفي ما حدث، لقد أوقعتنا في حرج مع سيدة القصر ولن يمرّ ما حدث بسهولة.
– أولا تعرفني؟!
– أعرف من أعمل لديهم وهذا يكفي.
– ولكن لدي موعد مع سيدك.
ودون أن يتحدث توجّه إلى أحد التليفونات المعلقة على تلك البوابة الضخمة وضغط على ثلاثة أرقام وأخذ ينتظر بتحفز، ودلق كلمات من التحيات والتبجيلات وأخبره بوجودي بكلمات مفككة سريعة وأخذ ينصت باهتمام وهو يردد:
– أمرك يا طويل العمر... أمرك.
وأعاد السماعة إلى موضعها، ثم حدّثني بلهجة محايدة:
– عفواً، كل المواقف "فُلّ". يمكنك الدخول سيراً.
– وماذا تظنني؟!
– وماذا تظن نفسك؟!
وغمغم بكلمات كانت أواخرها تقطر بشتائم مواربة، وأطلق كلمات عالية بلغة

أخرى لم أستطع تمييزها، فقد كانت خليطاً من لغات متداخلة، وإن كنت أجزم أنها استكمال لتلك الشتائم التي بدأتها سيدته، وانسحب دون أن يترك لي فرصة الاستيضاح، وأشار للحارس الفليبيني أن يسمح لي بالدخول سيراً على الأقدام، وانسلّ إلى داخل القصر.

كانت ثمة غصة تعبر حنجرتي وغضب يتمدد في صدري من تلك الانفعالات والكلمات التي صدرت من كبير الحرس، وكنت عازماً على مفاتحة سيد القصر بسوء سلوكه، وأن أقترح عليه استبداله بشخص أكثر تفهماً منه.

أوقفت سيارتي جانباً، وغطّيت جثة أبي بالفرو الذي كنت أقتعده وأغلقت الأبواب، واتجهت إلى بهو الضيافة... لأول مرة أسلك الطريق إلى البهو سيراً على الأقدام. كان الطريق مغايراً، حيث يقتضي الأمر أن تسلك صالات متعددة توصلك إلى ممر بلوري شفاف تكاد ترى وجهك فيه بوضوح، وقد سُقف بخشب الصندل تتداخل معه شجيرات اللبلاب المزروعة على الأعمدة النحاسية الثقيلة التي أُقيمت على طول الممر، وقد عُلِّقت على رؤوسها ثريات صغيرة تمثّل المصابيح القديمة التي صُمِّمت بحيث تنثر ضوءها الملون، وقد عُلِّقت على ذلك البلاط البلوري مخلفةً بقعاً بديعة الألوان تلمع من بين يديك ومن خلفك، بينما استقرت عدة مصابيح موزعة في أماكن متقاربة من أعلى السقف الخشبي لتحدث تموّجات على أرضية الممر عاكسةً ظلال شجيرات اللبلاب التي تظهر على هيئة صور تتراقص على أطراف الممر، وما إن ينتهي الممر حتى تجد نفسك في فضاء فسيح قُسِّمت مساحاته بشكل هندسي رائع، حيث انتشرت الحدائق في جهات متعددة تتوسطها نوافير مختلفة الأحكام، وقد شُذِّبت أشجارها على هيئة عصافير محلقة، بينما زُيِّنت جنباتها بأزهار لا تنبت إلا في المناطق الاستوائية؛ كانت أزهاراً قصيرة ذات تويجات مفلطحة تميل إلى اللون البرتقالي، بينما كانت تجاورها أزهار محلية متعددة الألوان منها الأحمر والوردي والأبيض، وقد وضعت في دوائر متعددة يحفّها رخام مذهّب وتخترقها عدة ممرات بلورية يجري من أسفلها الماء لتغذية تلك النوافير الموزّعة بين الحدائق، ويوازيها مشتل زجاجي جُمعت به أنواع كثيرة من الزهور والنباتات النادرة التي جُمعت من أقاصي الأرض. وكانت هناك مسافات واسعة تفصل بين الفلل المتناثرة في الخلف وبين البهو الذي شُيّد على أرض مستطيلة على الطراز

الأوروبي؛ ذلك البهو الذي كنت أصل إليه مباشرةً من خلال طريق تحفّه أشجار الموز والمانجو وكروم العنب. مدخل البهو مغطّى بطبقات حريرية متداخلة الألوان بتناسقٍ جمالي فريد، وعلى جنباته عُلِّقت لوحات فنية باهظة الثمن، وفُرش بسجّاد شيرازي دقيق العقد ذي خيوط حريرية. وقد تفرّع هذا السرداق إلى عدة طرق كل طريق ينتهي بباب إلكتروني يوصلك إلى غرف مختلفة من هذا البهو، يقف عند كل باب خادم يحمل مبخرةً ينزّ منها بخور كمبودي... كان الخدم يبزغون من بوابات متفرقة وهم يحملون الأطباق المتنوعة من مأكولات ومشروبات.

وقفت أمام إحدى المرايات لأصلح هندامي، ومررت بيدي على شاربي الكثّ لأهذّب الشعيرات المتقافزة بعشوائية فشممت رائحة نفاذة، فرفعت كم قميصي أتشمّمه فوجدت تلك الرائحة تسري في كل بدني، فشعرت بالمهانة... كنت أسير في الممرات المؤدية إلى صالة الاستقبال بتخاذل وابتسامة متّسعة أشدّ بها وجهي لأبدو واثقاً من خطواتي المتعثرة. شعرت بالضآلة حينما دخلت ولم يلتفت إليّ أحد بالرغم من السلام المرتفع الذي ألقيته على مسامع الحاضرين المتحلقين في مجموعات متناثرة يتخللهم الخدم حاملين المرطبات المتنوعة.

كانت عيناي تبحثان عن سيد القصر، وعندما لم ألمحه توجّهت إلى مجموعة من رجال الأعمال كنت قد فرضت صداقتي عليهم منذ عدة أشهر، وافتعلت الحديث عن مشروع وهمي رأس ماله بالملايين طالباً النصح في الخطوة القادمة، ولم يكن هذا التودد إلا مدعاةً للسخرية المبطنة، فانتقلت إلى التنكيت إلا أن دمي لم يسعفني بما فيه الكفاية لاستثارة ضحكاتهم، وكنت كلما حاولت التداخل معهم نفروا مني، استعنت بكل وسائل النفاق الاجتماعي لكي أتقرّب منهم فأصغيت إلى حديثهم كثيراً إلا أن كل محاولاتي لم تفلح في أن أشعر باحتفائهم بي. ولا أدري لماذا لازمتني رغبة في أن أبدو مهماً، فكنت أشير للخدم الحاملين المرطبات بالاقتراب، وعندما يقبل أحدهم أتعمّد أن أطلب المشروبات الفاخرة التي تقدّمها فنادق باريس الفخمة ظنّاً أن الخادم سيعتذر، لكنه يبادرني بلباقة مصححاً مقولتي:

– عفواً سيدي، المشروب الذي طلبته تعوّدت فنادق هولندا تقديمه وليست فنادق باريس، وسيكون بين يديك في لحظات.

وينسحب تاركاً ابتسامةً رقيقة على فمه، بينما يرفع جلسائي ضحكاتهم بتندّرٍ

فجّ. عندما أحضر الخادم المشروب الذي طلبته، ولم أكن أعرفه بالتحديد، فقط كنت أسمع به يتردد على أفواه بعض الوجهاء، ارتشفت منه فشعرت بمرارة جافة تعبر حنجرتي، ولولا حيائي لركضت أبصق ما ارتشفته من هذا المشروب المنتن، فابتلعته على مضض، وأشرت لأحد الخدم فأقبل مسرعاً:

– أين السيد؟!

– يجلس مع بعض الضيوف في الملحق.

هززت رأسي بتروٍّ فانسحب الخادم منحنياً، فرفعت صوتي قدر الإمكان محاولاً تفخيمه:

– أخبره أنني جئت.

مما حمل البعض من الحضور أن يلوي عنقه باتجاه هذا الصوت بتعجّب، فأحسست بشيءٍ من الغبطة تسري في بدني، فقد جرت العادة أن لا يسأل عنه إلا قلة قليلة من أصدقائه وما عداهم لا يجرؤ أن يحدثه، فقط يكتفي بالسلام والانحناء باحترام له دون أن يحدّق في وجهه. لذلك وجدت أن سؤالي عنه بهذه النبرة يحملني إلى مصاف أولئك القلة من أصدقائه المهمّين.

اعتراني ذلك الشعور اللذيذ، فتصورت أن الكثيرين من الحضور أخذ ينظر إلي بكثيرٍ من الاحترام مغيّرين تلك النظرة التي ابتدروني بها مع مجيئي، وكنت مصمماً في داخلي على أن أصبح سيّداً تنحني له الرؤوس مهما كلفني ذلك من عنت ومثابرة... نعم، لن أدع الظروف تقهرني، فلقد أمضيت سنوات وأنا أتقرّب منه، وحان الوقت لكي أجني ثمرة تلك الأيام الطويلة التي قضيتها أدبّج له المديح وأتقبّل إهاناته المتكررة بضحكة منفرجة، بل وأشكره في أحيان كثيرة لأنه اصطفاني دون سواي بمزاحه وتنكيته. كنت أمتلك مقدرةً فذّة على استقبال إهاناته وتعليقها كأوسمة على صدري... هذا الخضوع المتناهي قرّبني منه كثيراً لدرجة أن يصطحبني معه إلى أي جهة يذهب إليها أو يقصدها للسياحة والترفيه عن النفس، فخلال رحلاتنا أتحوّل إلى عبدٍ يسمع فيطيع، وكم من مرة مسحت بصاقه من على وجهي وأنا أبتسم، فقد تعلمتُ أن بصاق السادة والوجهاء تكريم ويجب المفاخرة به، ولولا ذلك الخضوع والانحناء لما وصلت إلى هذا الوضع المرموق الذي أُحسد عليه من قبل الكثيرين ممن يعرفون من أين قدمت، وكيف كانت حالي

قبل الارتباط بهذه الشخصية التي تجعل كل الأبواب مفتوحة لمجرد معرفتك بها، فكيف بك وأنت صفيّه. ليس هذا فقط، بل والوحيد الذي يشتمك في أي وقت يشاء، وغالباً ما يسترضيك بهدية تفوق إهانته بمراحل.

تعرفت إليه من خلال أسرة زوجتي، فقد كانت تربطهما صلة قرابة، وإن كانت بعيدة، إلا أنه كان دائم السؤال عن إكمال ذلك الزواج. لكن هذه القسمة التي لم يُكتب لها النجاح لم تبعده عنهم وظلّ على اتّصال بهم ويساعد كل من يأتي من طرفهم. وقد دفعتني إليه زوجتي توصيه بالاهتمام بي فرحّب بذلك ومنحني اهتمامه، وإن ظلت وعوده معلقة على مشروع إنشاء مستشفى حكومي كبير، وها أنا أترك جثة أبي في السيارة من أجل إتمام هذا المشروع. كانت علاقته بي علاقة السيد بالخادم، لذلك لم أحظَ باحترام أصدقائه، ولم أكن أذهب إليه إلا بعد أن تهاتفه زوجتي، فأسمع قهقهته العميقة تنزّ من سماعة التلفون وهو يردّد:

- من أجلكِ فقط.

فتتمطّى زوجتي في حديثها وتختم محادثتها:

- الله لا يحرمني منك.

وتستعجلني في الذهاب إليه.

كنت غالباً أجلس في هذه الصالة لوقت طويل دون أن يُسمح لي برؤيته، فأظل صامتاً بينما يكون الحضور منهمكين في الأحاديث المختلفة. وعندما أعود دون رؤيته توبّخني زوجتي وتنعتني قائلةً:

- أنت كالحطب، لا تصلح لشيء سوى الاحتراق.

وقد أوصتني أن أتحدث مع من أجد وأُشعرهم بأنني مهم لكي أدخل ذلك العالم المخملي. وعلى سيرة زوجتي، فهي تكبرني بتسع سنوات تقريباً. كانت الصدف وراء زواجنا، فقد كنت أعمل في إحدى مؤسسات العطور بائعاً، ويبدو أنني أعجبتها فأخذت زياراتها تتكرر إلى المحل، ثم تطور الأمر بأن أذهب بما تطلبه إلى فيلتها، وأخذت تلمّح إلى أن بمقدوري الارتباط بها، وقد عمدت إلى فتح مؤسسة صغيرة لي باسمها كنت أديرها لها، وعندما انتعشت قليلاً طلبت أن أتقدم إلى أهلها طالباً يدها وأوصتني أن أخبرهم بأنني رجل أعمال وليس لي أحد في هذه الدنيا. وتمّ الزواج وكان شرطها الأساسي أن أنسى كل الماضي وما يحمله وأن

أقذف بمشاعري على عتبة تلك الفيلا الفاخرة التي قُدِّمت لنا من أبيها كهدية زواج.

مضى على هذا الزواج أربع سنوات نسيت فيها كل الماضي، ولا أدري كيف توصّل أهل تلك الحارة البائسة إلى عنواني ليعلموني بنبأ موت أبي.

كانت رائحة الكافور لا تزال عالقةً بيدي وثيابي مما جعل أحد الحضور يتهكّم بي:

– هل تتطيّب بتراب المقابر.

فتضاحك من كان قريباً منّا ممّا حفّزه لأن يطلق العنان للسانه في حبك النكات حولي. كنت قادراً على ردّ إهانته لكنني كنت أحفظ نصيحة زوجتي حين قالت:

– في تلك الطبقة عليك أن تكون طبلاً يستجيب لأي قرعة ويمنحها نغمةً تتوافق مع ما تجيده تلك اليد القارعة لكي تكون دائماً قريباً منهم.

ومن أجل تلك النصيحة التي أثبتت جدواها منحته فرصةً إضافية لإكمال نكاته السمجة، وكنت أفتعل الحركات الغبية التي من شأنها إضحاك المتجمهرين حولنا، وعندما ملّ الحضور نكاته وحركاتي الغبية انقلبوا إلى أماكنهم يتبادلون الأحاديث أو اللعب بالورق.

أمسكت بالعديد من الخدم وكل واحد أسأله عن سيده ولا أنسى أن أصيح عند مغادرته لي:

– أخبره أنني جئت.

ولكثرة تكرار هذه الجملة أصبح الخدم يرددونها دون أن يستجيبوا لإشاراتي المتلاحقة بأن يقولوا:

– سنخبره أنك جئت.

تجاوز الليل منتصفه ليقودنا رئيس الخدم إلى صالون الطعام حيث امتدت السفرة مسافة عشرين متراً، وقد استقرت عليها خمسة عشر طبق "كوازي" وأصناف متعددة من المقبّلات والمأكولات والمشروبات وأنواع مختلفة من الفواكه، وانحدر الحضور صوب تلك المائدة كالسيل يمضغون ويتحدثون في آن واحد.

وكنت كلما اخترت كرسياً اعتذر مني رئيس الخدم بأدبٍ جمّ بأنه محجوز، لأجد نفسي في نهاية الأمر أقف على تلك الرؤوس المنكبّة على الطعام. كان منظري يدعو للرثاء، حيث لم أستطع التراجع إلى مكاني أو الجلوس إلى مائدة الطعام.

ويبدو أن منظري كان محزناً، فقد أشفق عليّ أحد الخدم فسارع بإحضار كرسي إضافي لأجلس في زاوية منحرفة لا تمكّن يدي من الوصول إلى شيء سوى العيش الموضوع على جنبات المائدة، فجلست أمضغ العيش محاولاً الوصول إلى بقية الأطباق مما حمل الذي يجاورني أن يرفع صوته متأففاً:

– لقد أذيتنا بيدك ورائحتك.

فاعتذرت منه بأدبٍ جمّ وأقسمت أن أترك مكاني ليهنأ بعشائه في محاولة لكسب ودّه، فوافقني بنبرةٍ جافة:

– تفعل خيراً.

وأمام هذه الجملة الباردة الجافة تنحيت جانباً وافتعلت تخليل أسناني وتخليصها ممّا علق بها من لحم، ليسارع أحد الخدم وينحني بقرب أذني هامساً:

– ليس من اللائق، يا سيدي، أن تقوم بهذا الفعل أثناء تناول الآخرين طعامهم.

فوافقته باعتذارٍ بليد، وسألته بنفس تلك النبرة الفخمة:

– ألم تخبر سيدك بأنني جئت؟

فابتسم في وجهي وعاد إلى مكانه كتمثال برونزي وُضع في أحد المتاحف الفخمة.

كان منظري مثيراً للضحك وأنا أقتعد خلف ظهور الناس بينما هم منهمكون في أكل ما لذّ وطاب، لذلك تحركت باتجاه المغاسل المتراصّة في الجهة الأخرى من صالون الطعام. كان هناك اثنان من الخدم يقوم أحدهما بمناولتك الصابون بينما يظلّ الآخر منتظراً انتهاءك ليرشّ بين يديك ما تشتهي من عطر وُضع على فترينة تجاور تلك المغاسل التي جُلبت من إيطاليا وصُنعت من السيراميك النقي على هيئة المغاسل القديمة، بينما صُنعت صنابيرها من النحاس الخالص ورُشّت بماء الذهب. لم أكن أرغب في غسل يدي ولكنني حين تذكرت رائحة يدي المشبعة بالكافور تناولت قارورة عطر ورششت راحة يدي بكميات كبيرة، وبعد أن شممتها مراراً قررت أن أسير بين ممرات البهو، فلم أكن راغباً في العودة إلى الصالة التي كنا نقتعدها، فأخذت بالسير بين الممرات أتطلع إلى تلك اللوحات وبعض الأدوات الأثرية التي كانت تزيّن جنبات الممرات وزواياها والتي جُلبت من مزادات عالمية وكل قطعة منها تمثل ثروة. دفعت عدة أبواب وأنا أسير بين تلك الممرات، فوجدت

نفسي أقف مباشرةً في أحد الصالونات الكبيرة التي توسطتها مائدة دائرية كبيرة جلست عليها مجموعة من الرجال والنساء كان من بينهم سيد القصر. ارتبكت قليلاً ولكنني سرعان ما خطرت باتجاههم لألمح سيد القصر يشير لأحد الخدم بإبعادي، وقبل أن يصل الخادم صحت:

– لقد جئت قبل العاشرة يا سيدي... حسب الموعد!

اكتشفت أنني ارتكبت حماقةً ما، فقد جذبني الخادم بشدة وهو يتمتم بصوتٍ منخفض:

– كيف دخلت إلى هنا؟!

وجذبني بلطف:

– أرجوك، هذا المكان لا يدخله أحد.

وزجر أحد الخدم الواقفين بين ممرات البهو:

– ألم أقل لك أن لا تتحرك من أمام هذا الباب؟

ولم يمهله لأن يبرر موقفه بل صاح فيه:

– اصطحب السيد إلى صالون الضيافة.

فقادني ذلك الخادم معنّفاً:

– سوف تتسبّب في أذيتنا جميعاً.

تجاوزت الساعة الثانية صباحاً وأنا مازلت أمسك بكل خادم على حدة وأهمس حيناً وأرفع صوتي حيناً آخر:

– أخبر سيدك أنني جئت.

حتى أصبحت هذه الجملة مدعاةً للضحك من قبل الحضور والخدم الذين يبتسمون ابتسامةً أقرب للسخرية ويمضون متمتمين:

– سنخبره يا سيدي.

وبعد أن دارت على الحضور كؤوس المرطّبات والشاي، وقف رئيس الخدم معتذراً للحضور نيابةً عن سيد القصر:

– يبلغكم سيدي عن أسفه لعدم تمكّنه من رؤيتكم هذا المساء، ويبلغكم أن من يريده فليكن بالغد.

فانسلّ الحضور الواحد تلو الآخر، ولم يتبقّ في ذلك البهو الكبير سواي والخدم

الذين حاولوا بشتى الطرق أن أمضي لكنني أصررت على رؤية سيد القصر. وبعد مضي ساعة رأيته يقف أمامي ويحدّق بي بضيق:

– ماذا تريد؟

– لقد جئت حسب الموعد.

– أوه لقد نسيت، في الغد أستطيع أن أتحدث معك، ولا تنسَ أن تبلّغ تحياتي لزوجتك، أما الآن فباستطاعتك الانصراف.

أحسست بغبنٍ شديد فأسبغت عليه كل النعوت التي يحبّها، ورددت:

– ولكنك حدّدت هذه الليلة دون سواها.

فرمقني بنصف عينه:

– أعلم ذلك... والآن ماذا تريد؟

فاعتذرت منه بارتباك:

– لا شيء سوى رضاك.

– إذاً اذهب قبل أن أغيّر رأيي فيك.

فتمتمت بضيق:

– كما تشاء يا سيدي.

عبس في وجهي وأخذ يتشمّم بأنفه ورفع صوته لرئيس الخدم:

– ما هذه الرائحة العجيبة التي تملأ المكان؟!

فأشار رئيس الخدم باتجاهي، فرمقني سيد القصر بازدراء:

– أتريد أن تصبح رجل أعمال وهذه رائحتك! اغتسل جيداً حين تأتي إلى هنا.

ومنحني ظهره واتجه نحو القاعة المنزوية التي ضجّت بأصوات غنج نسائي طروب.

***

خرج يجر قدميه بتخاذل فيما كانت الساعة تسير ببطء نحو الثالثة والثلث صباحاً. قطع ممرات وساحات القصر وكل الإهانات تبزغ في مخيلته وتستحيل إلى ضجيج مرتفع. كان يتكلم بصوتٍ مرتفع أثناء سيره مما حمل الخدم والعمال على كتمِ سخرياتهم بغمز كانوا يتبادلونه فيما بينهم.

وجد نفسه خارج القصر وهو يدير محرك سيارته ليأنس قليلاً بتلك الأغنية:

ترى ما جى على بالي

أشوف عيونك الحلوة

فجأةً أحسّ بالاختناق لرائحة الكافور الدبقة التي تشبّعت بها سيارته، فأرخى زجاج النافذة وانطلق صوب المقبرة.

بلغ بوابة المقبرة وحمل جثمان أبيه بين يديه وأخذ يطرق البوابة بقدميه. انفتحت البوابة فرأى جثةً ضخمة تقف في وجهه، فبادرها بالسلام فردّ عليه باقتضاب، فحاول الدخول فوقف القبّار في طريقه:

– إلى أين؟!

– لأتنزّه.

– احترم حرمة الموتى.

– وأنت ألا ترى ماذا أحمل؟

– لم أتعوّد أن أرى ميتاً يُحمل هكذا ولا يسير في جنازته أحد.

– لا ... تعوّد.

بُهت للحظات، وعندها صرخ به:

– سينقسم ظهري، فأنا لم أعد أقوى على حمله.

فنادى على أحد أعوانه وأمره بفتح أحد القبور القديمة، والتفت إليه مخاطباً:

– أين أوراق دفنه؟!

تلعثم وردّ بارتباك:

– هه؟ في الحقيقة نسيتها.

– إذاً عد بميتك حتى تستوفي أوراقه.

وصرخ بصاحبه:

– عد إلى نومك.

فصرخ به محتداً:

– ولكنني لا أستطيع أن أعود به، أعدك أن أجلبها في الغد.

فردّ عليه بغير مبالاة:

– وأنا أعدك أن أدفنه في الغد.

وأغلق تلك البوابة في وجهه، فعاد يحمل جثمان أبيه وألقى به في مؤخرة السيارة، وانطلق مخترقاً الشوارع وتلك الإهانات تتزاحم في رأسه.

***

ماذا أصنع الآن؟!

ستغضب وتنعتني – كالعادة – بأنني حائط مائل لا يمكن الاستناد عليه، فهي ما فتئت تردد بأنها أضاعت عدة فرص كانت ستمكّنها من الارتباط برجل أكثر مقدرةً على توفير حياة لائقة بها. في أحيان كثيرة كانت تلعن حظها الذي أوقعها برجل وضيع حاولت أن تصنع منه رجلاً وجيهاً لكن عرقه البائس يأبى الابتعاد عن الأرض كثيراً.

أعلم أنها ستغضب لمجرد معرفتها بأنني توجّهت إلى حيّنا القديم، فكيف لو علمت أنني أحمل جثمان أبي... حتماً ستطردني من الفيلا وتكسر خلفي ألف جرة، وربما تجرّدني من كل هذه الأبهة التي أتمتع بها. لقد بدأت تملّ كلّ تصرفاتي، وإذا دخلت بجثة أبي فحتماً ستقذف بي إلى الشارع مرةً أخرى لأعود إلى التسكع.

جثمان أبي لا يزال قابعاً في الخلف ولا أدري ماذا أصنع! هل أظل أذرع الشوارع إلى أن يستيقظ الناس من مراقدهم وأذهب لأخذ أوراق دفنه من جيراننا القدماء؟ أوه، لو عدت به إلى حيّنا القديم فلن أجد من يستقبلني في هذا الليل، وإن استقبلوني فلربما تمتد يد أحدهم لتهشّم رأسي لإهمالي المفرط لأبي حياً وميتاً. لا لا، عليّ أن أقوم باستخراج أوراق دفن جديدة... وكيف سيكون ذلك؟! لا بد وأن الدكتور الذي سيمنحني هذه الشهادة سيطالب برؤية الجثة، فماذا سيقول حين يراها قد كُفِّنت وحُنِّطت؟ ربما يتبادر إلى ذهنه أن المتوفى لم يمت ميتةً طبيعية، وإذا لم يتبادر إلى ذهنه ذلك سيتعجب من كون الجثة قد كُفِّنت دون أن تحصل على شهادة وفاة! وإذا أخبرته بأن من قام بذلك أناس بسطاء لا يعرفون أهمية شهادة الوفاة سيطلب أوراق أبي الرسمية وأنا لا أحمل تلك الأوراق... آه، ماذا أصنع؟! عليّ أن أعود إلى حارتنا وأطلب أوراقه. أوه، ماذا سيقول أولئك الأغبياء؟ سيتعجبون من أنه لم يُدفن إلى الآن. سأقول لهم إنني دفنته وإنما جئت لطلب أوراق دفنه لأنني تعهدت بجلبها للمسؤول عن المقبرة. نعم، يجب أن أذهب إليهم. لكن الذهاب إليهم سيوقعني في مشكلة أخرى، فليس من المعقول أن أتغيّب عن البيت كل هذا الوقت! فهي تنتظرني لكي

أبشّرها بتمام الصفقة، وسيكون الأمر صعباً إن أخبرتها بأنها لم تتمّ، وربما تُرجع ذلك لأنني أمضيت بعض الوقت أمام الشاطئ. ستضحك كثيراً وربما تبادر إلى نعتي بما لا أحب سماعه، ولو أن الصفقة تمّت لهان الموقف، فقد أُرجع سبب ذهابي إلى الشاطئ ابتهاجاً بذلك، أو أخبرها بأني نذرت أن أقذف بنفسي في ماء البحر لأغتسل من الماضي نهائياً حينما أشعر بأنني قفزت إلى مصاف الوجهاء... لعنة الله على الضعف:

ماذا أصنع الآن؟!

لا بدّ أن أعود إلى البيت. نعم، لا بدّ أن أعود وأستكمل إجراءات دفنه في الصباح، وإذا لم أتمكن من استخراجها سأذهب إلى جيراننا القدماء وأطلبها منهم... نعم، هذا هو الرأي السديد.

فجأةً قفزت إلى مخيلتي صورة رجال الشرطة وهم يقفون في الشوارع للتفتيش، ماذا سيكون وضعي لو لمحوا هذه الجثة؟ هل سأجرؤ وأقول لهم إنها جثة أبي ولم أستطع دفنها إلى الآن؟ حتماً سيعرفون الحقيقة ولن أنجو من التوبيخ، وإن لم يتحدثوا فإن عيونهم ستطلق كثيراً من اللعنات على ابن يهمل مواراة جثة أبيه... ولكي لا أقع في مثل هذا الموقف عليّ أن أسلك طريقاً يبعدني عن عيونهم التي قد تتلصص وتلمح هذه الجثة المفرودة في المقعد الخلفي، عندها سيقع ما أخشاه، وربما يتطور الأمر للتأكد من صحة أقوالي فتعلم زوجتي بما حدث وترجع عدم استكمال الصفقة لاهتمامي بدفن أبي... عندها لن تغفر لي مهما أقسمت لها.

أعلم أن هيئتي وسيارتي لن تجعل رجال الشرطة يشكّون بي للحظات، ولكن الاحتياط واجب، فقد أصادف أحد أولئك المحتزمين بمبدأ المساواة، عندها سيقع ما لا تُحمد عواقبه. سلكت طريقاً مغايراً يخترق الأحياء الراقية ويوصلني إلى المنزل دون المرور بنقاط التفتيش الموزّعة على مداخل ومخارج المدينة.

بلغت الفيلا بعد أن أمضيت وقتاً أطول من المعتاد، فأوقفت سيارتي جانباً، وغطّيت جثمان أبي بقطعة الفرو، وأغلقت الأبواب جيداً وصعدت إلى البيت... كانت تنتظرني عند المدخل:

– بشّر.

رددت إليها بقبلة محاولاً أن لا أستفزّها:

– وعدني في الغد.

مطّت شفتيها وجفلت بحنق:

– أظنك لم تذهب في الموعد المحدد.

– بل ذهبت ولكن...

فقاطعتني بحدة:

– ولكن متأخراً، فلا بدّ وأنك انشغلت بأبيك المتوفى.

– ومن ذا الذي أخبرك؟

– لقد جاء حثالة حيّكم للعزاء فطردتهم.

حاولت أن أبدي تذمّري من فعلتها لكنني تراجعت أمام ثورتها:

– لم يعد باقياً سوى استقبال تلك القمامات.

وجفلت بحنق وصاحت:

– من أعلمهم ببيتي. يبدو أنك لم تتخلّص من ماضيك البالي.

فأقسمت لها بأنني لم أخبر أحداً بمكاني، فصاحت:

– لقد جاءت تلك القمامات بعد الساعة الحادية عشرة، عندها أيقنت أنك لن تذهب في موعدك.

– لم يستغرق ذهابي سوى ساعة وأنهيت كل شيء، وقد ذهبت في الوقت المحدد.

فصاحت بضيق:

– كلما حاولت تلميع وجهك أعدته للأوحال.

لوت عنقها وهي تلعن حظها العاثر، بينما ظللت واقفاً أنتظر موجةً أخرى من غضبها الدافق. تطلعت صوبي باشمئزاز:

– لا أريد هذه القمامات في بيتي... أفهمت؟!

هززت لها رأسي موافقاً وحاولت الاقتراب منها لتقبيلها فدفعتني عنها بقرف:

– ألا تشمّ رائحتك؟!

فتراجعت بانكسار، فقطبت حاجبيها وأردفت ساخرةً:

– يبدو أنك حنّيت لتلك القاذورات فاحتضنت كل واحد منهم على حدة حتى غدت رائحتك خليطاً من الروائح المقزّزة التي تثير القيء.

وعندما وجدتني صامتاً فتحت عينيها على اتّساعهما:

- أوَذهبت إلى القصر بهذه الرائحة؟!

ثم صاحت بانفعال:

- يا لفضيحتي!!

الميزان لا يستقرّ، فحين تسخر من قوم يسخر منك آخرون، إن بشاعتنا تنهض حينما نحاول أن ننفر من واقعنا... سالت هذه الجملة في مخيلتي فشعرت أمامها بالضآلة وتمنيت أن أمارس حقي كزوج، أو أن تحترم رغباتي. المهانة تلاحقني أينما اتّجهت... هل يجب عليّ أن أظل هكذا؟! لا بدّ أن أعمل أي شيء كي أستعيد ما خسرته. أوه... ما أكثر الخسائر؟!

سمعتها تصرخ:

- لماذا تقف صامتاً؟!

فكّرت أن أمهّد لإدخال جثة أبي إلى داخل البيت بدلاً من أن تظل مقذوفةً بداخل السيارة، فقلت:

- يبدو أنها علقت بين رائحة الجنازة عندما كنت أحملها.

وصمتُّ لبرهة فوجدتها تتطلّع إليّ باحتقار، فأردفت بتودد:

- تمنّيت أن تخرج جنازة أبي من بيتي.

فصرخت باشمئزاز:

- لم أقبل بمعزّيه فكيف أقبل بتلك الجيفة التي كانت تدبّ على الأرض؟

كتمت غيظي:

- حسناً... أليس من اللائق أن تعزّيني؟

أشاحت بوجهها ولوت فمها:

- لقد عزّيتك فيه يوم قبلت بزواجك مني، فلا داعي أن تعيد إلى ذهني تلك الحماقة التي ارتكبتها باقتراني بك.

فأردفت:

- نعم... لقد مات منذ ذلك اليوم.

توجّهت إلى غرفة النوم راجياً منها إيقاظي في تمام الساعة التاسعة، فصرخت محتدةً:

- لا تُقلق منامي، يكفي أنني انتظرتك كل هذا الوقت وكنت أتوقع أنك أتممت

الصفقة ولكنك كالعادة مخيب لكل الآمال.

ثم أردفت باستغراب:

– لقد تعوّدت أن تستيقظ متأخراً، فما الداعي لإيقاظك؟!

كنت على وشك أن أخبرها بجثة أبي المقذوفة في الخارج لكنني أمسكت عن ذلك في اللحظات الأخيرة وتمتمت:

– يوجد لدي بعض الأعمال.

– وهل جدّ جديد. فموظفو المؤسسة هم من يقومون بجميع الأعمال، وعملك يقتصر أن تذهب إليهم في المساء.

ضقت وكدت أنفجر صارخاً بها ولكن ذلك الخوف الذي ينتابني أمامها عاد يتطاول بداخلي، فرددت بخنوع:

– أريد أن أستيقظ مبكراً وكفى.

– إذاً لا تأمرني، ضع بجوارك منبهاً.

– ولكنك تعرفين أن نومي ثقيل.

فصفقت بيديها وطوّحت بهما في الهواء:

– وهذا أحد العيوب التي أقعدتنا في الخلف. ولو كنت نشيطاً لأصبحنا في الواجهات الأمامية بدلاً من أن أظل أسترضي لك أقاربي وأرحامي في جذبك إلى مصافهم.

وخرجت إلى غرفة أخرى لأتوجّه إلى غرفة النوم حين كانت ساعة الحائط تشير إلى الساعة السادسة صباحاً. فكّرت في البقاء مستيقظاً لحين الانتهاء من دفن أبي. كان الإرهاق قد بلغ بي مبلغاً عسيراً، ولكي لا أستسلم له ضغطت على أحد الأجراس الخاصة بالخادمات، وحين جاءت إحداهن طلبت منها أن تعدّ لي فنجان قهوة، وقبل أن تأتي كنت قد ارتميت على فراشي.

استيقظت في تمام الساعة السابعة مساءً مفزوعاً، وركضت إلى سيارتي، وما إن فتحت الباب حتى فارت رائحة نتنة، فقد كان الجو حارّاً والشمس حارقة مما ساهم في سرعة عطب الجثة، وكان الوقت ضيقاً بين أن أتوجه إلى المقبرة وبين حضور الموعد المحدد لإتمام الصفقة، فقررت الذهاب إلى القصر أولاً ومن ثم إلى المقبرة.

***

في وسط البهو جلس سيد القصر يتجاذب الحديث مع نفرٍ قليل بينما توزّع بقية الحضور على الكراسي المذهّبة التي رُصَّت بشكل منظّم بحيث تجعل الجميع في مواجهة سيد القصر. اقتربتُ منه منحنياً:

– كما ترى يا سيدي، لقد جئت في الموعد المحدد.

نظر إليه مبتسماً:

– نعم في الوقت المحدد ولكن يؤسفني أن أبلغك أن الصفقة ذهبت لشخص آخر.

تخشّب للحظات وأخذ يتمتم:

– ولكنك وعدت المدام أن تكون الصفقة لي.

– ومن أجل خاطرها سأعوضك بصفقة أخرى.

– متى؟!

– سأخبرها بنفسي عندما يحين الوقت.

ثم نظر إليه ساخراً:

– بيد أنك لم تغتسل من ليلة البارحة فما زلت تحمل رائحة القبور، والأفضل الآن أن تذهب وتغتسل وتأتي لاستكمال السهرة.

خرج من القصر ليجد نفسه يذرع تلك الشوارع الفسيحة بينما كان الليل ينثر تفاصيله الغامقة على وجه المدينة، وفي المكان المحيط بالمقبرة يزداد الليل وحشةً وضراوة، ولم يكن يعذبه سوى تلك الرائحة النتنة التي كانت تنزّ من جثة أبيه التي تخشّبت بين ذراعيه. كان يسير بها وهو يذرف كثيراً من اللعن على كل السادة والوجهاء الذين لا يقيمون لوعودهم ظلاًّ. كانت تلك الرائحة تزداد في نتانتها فأنزل الجثة على الأرض وكمّم فمه بشماغه وسار باتجاه بوابة المقبرة. كان يقطع الشارع بخطوات متباعدة وثمّة خلاء يتّسع في داخله تصفر به رياح الانكسار والهزيمة. كاد يتعثر في مشيته حين اصطدم بحجرٍ ناتئ فاستشاط داخله باللعن وفكر أن يقذف بحمولته ويمضي هارباً.

عندما بلغ بوابة المَقبرة أنزل جثة أبيه وطرق تلك البوابة طرقاً منتظماً وظل واقفاً ينتظر أن تطلّ عليه قامة ذلك القبار الضخم. كان يفكّر كيف يقنعه بإحضار أوراق دفن

المتوفى في وقت لاحق فقرر أن يخاطبه بلين ويرجوه أن يقوم بدفن تلك الجثة ريثما يتمكن من إحضار تلك الأوراق، وأخرج بطاقته ووضعها في جيبه العلوي وانتظر.
ظل يطرق الباب دون أن يجد إجابةً لطرقه، فترك جثة أبيه بجوار البوابة وأخذ يسير بمحاذاة ذلك السور المنخفض الذي تطلّ من على جدرانه أشجار السدر والعشْرِق.
كانت ثمة غرفة في آخر السور مضاءة فتوجّه إليها وطرق نافذتها وانتظر. انفتحت تلك النافذة محدثةً صريراً مزعجاً ليطلّ من خلفها ذلك القبّار الضخم ذو الملامح الجامدة، وإن كانت عيناه تشعّان ببريقٍ منطفئ لم يتبقَّ منه سوى وميض باهت. كان يغالب نوماً ثقيلاً لذلك بقيت عيناه شبهَ مغلقتين، وعندما رأى الطارقَ تأفف بضيق:

– أهذا أنت؟ لقد أزعجتني.

اعتذر له بتودّد محاولاً كسب ودّه:

– أرجو أن تساعدني، لقد مضت عليه ليلتان حتى أنتن.

– ولو مضى عليه شهر فلن أقبله بدون أوراق رسمية.

– أعدك أن آتي بها في صباح الغد وسوف أعطيك كل الضمانات على صدق قولي.

ومدّ يده إلى جيبه العلوي وأعطاه هويته:

– خذ، هذه هويتي، وإذا لم أحضر لك أوراق دفنه الرسمية أتحمّل كل المسؤولية، وإن أردت أوقّع لك على أوراق بذلك سأفعل.

فردّ عليه القبار بضيق:

– هذا لا يكفي، كما وأنك قد وعدت ليلة البارحة بإحضار الأوراق.

– ولكنني لم أتمكّن من ذلك.

– وأنا لن أتمكن من مساعدتك.

وأغلق نافذته بعنف ليعود إلى جثة أبيه يملأ بها ذراعيه ويعاود السير باتجاه سيارته الواقفة على بعد. كان يسير مختنقاً بتلك الرائحة التي تفوح من جثة أبيه. قال في نفسه:

– لو بقي معي فلن يُدفن.

فكّر ملياً بأن يقذف حمولته ويمضي هارباً.

١/٣/١٤١٥هـ

يمكن مراسلة الكاتب على الإيميل

abdookhal2@yahoo.com

"أصبح غياب رشيد الشغل الشاغل لأهل الحي، بعد أن روت إحدى السيدات المسنّات، التي لا تخطئ رؤيتها أبداً، أنها رأته في المنام يلبس رداءً أخضر ويغني بصوتٍ أنثوي، وفجأةً يمسك بالطار ويرقص في أرضٍ خراب حتى يستحيل نسراً ضخماً يحلق في الفضاء فارداً جناحيه وحاجباً قطرات الماء من أن تهطل على الحي، ثم يهبط على أسطح المنازل ويصيح بصوتٍ كالرعد:

ـ سأجعلها خراباً... سأجعلها خراباً.

وانتشر هذا الحلم بين أهالي الحي، فصدّقه الكثيرون حتى أن مؤذّن المسجد محمد اليوسفي صاح بالمصلّين عقب صلاة الظهر:

ـ ألا ترون... انظروا إلى السماء، فالغمام يعبرنا دون أن تحطّ قطرة واحدة على هاماتنا!"

عبده خال كاتب وروائي سعودي. صدر له في الرواية عن دار الساقي "ترمي بشرر..." الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٠، "فسوق"، "مدن تأكل العشب"، "لوعة الغاوية"، "الموت يمرّ من هنا"



ISBN 978-6-14425-814-9
9 786144 258149 >
www.daralsaqi.com